

موسوعة
جغرافية مصر وتاريخها
N
نوبليس

موسوعة

جغرافية مصر وتاريخها

(٥)

عبد الرحمان الجبرتي

موسوعة

جغرافية مصر وتاريخها

المجلّد الخامس

عجائب الآثار في التراجم والأخبار ـ ٢ ـ

الجزء الثاني: قيام وسقوط علي بك ـ ١ ـ

إعداد وتحقيق

عبد العزيز جمال الدين

دار نوبليس

اسم الموسوعة:	موسوعة جغرافية مصر وتاريخها
اسم الكتـــاب:	عجائب الآثار في التراجم والأخبار ـ ٢ ـ الجزء الثاني: قيام وسقوط علي بك ـ ١ ـ عبد الرحمان الجبرتي
إعداد وتحقيق:	عبد العزيز جمال الدين
قيـاس الكتـاب:	١٧ × ٢٤
عدد الصفحات:	٢٣٢
عدد صفحات الموسوعة:	٥٧٨٤
مكـان النشـر:	بيروت
دار النشر والتوزيع:	دار نوبليس
تلفاكس:	٩٦١ (١) ٥٨ ٣٤ ٧٥
هاتـف:	٩٦١ (١) ٥٨ ١١ ٢١ ـ ٩٦١ (٣) ٥٨ ١١ ٢١
صندوق بريـد:	٧٠ ٦٩ ١٦ بيروت لبنان
بريد إلكتروني:	info@nobilis-int.com
الطبعة الأولى:	٢٠١٢

EAN 9786144031353

ISBN 978-614-403-135-3

مقدمة

إن تاريخ تأسيس السلطنة العثمانية لا يزال موضوع نقاش، ولكن من المؤكد أن تأسيسها كان فى أصله مشروعا شعبيا، بمعنى أن القبائل التركية الأولى التى نزحت إلى آسيا الصغرى كانت تتحرك بمجملها للهجرة والغزو من أجل البحث عن أرض جديدة بديلة عن الأراضى الرعوية فى وسط آسيا التى كانت تفقد خصوبتها بشكل مستمر، والتى لم تعد قادر على استيعاب اعدادهم المتزايدة، وكان كل فرد فى هذه القبائل النازحة يعتبر نفسه صاحبا لهذا المشروع. وكان نداء الطبيعية ودوافعها السبب المباشر فى الغزوا ت التركية على اسيا الصغرى[١] وظهور هذا المشروع.

على انه كلما اتسع ملك السلاطين العثمانيين تغلب الطابع الأسرى العثمانى على الطابع الشعبى ـ القبلى ـ ، أى تغلب مشروع الأسرة الحاكمة العثمانية الناشئة على مشروع القبيلة . ففقدت القبائل التركية الحماسة العصبية فى الغزو وقل المحاربين والمتطوعين منهم، كما أن السلاطين انفسهم عملوا على الحد من ذلك ـ حتىٰ لا يكون افراد القبائل مشاركين لهم فى السلطة[٢] . من هنا اختلفت مصالح السلاطين ـ إلى حد ما ـ عن مصالح رعاياهم الأول وشعر هؤلاء السلاطين ـ كما شعر ملوك وحكام سبقوهم ـ بالحاجة إلى قوات عسكرية تدين بالولاء والطاعة لعرش الاسرة العثمانية وحدة وليس للعصبية القبلية، فباتوا يجندونها من الأسرى والعبيد غير المسلمين من ابناء البلدان التى احتلوها. وفى غضون ذلك كانت القوات العسكرية القديمة قد انقسمت الى مجموعتين أولئك الذين يتقاضون مرتبا من خزينة السلطان، ثم مجموعة الذين يمنحون أراضى التزام يجمعون من سكانها وفلاحيها الضرائب والعشور والمكوس والرسوم المختلفة. ولقد استُبعد جنود المجموعة الاولى من القيام بالخدمة بعد أن اصبح دخول العبيد فى سلك الجندية أمرا عاديا يطّرد باستمرار. ومن ثم حل محل الجيش القائم على تقاضى مرتباتهم من خزينة السلطان هيئة عسكرية تقوم فى معظمها على العبيد الذين هم ملك خاص للسلاطين، ذلك انه ما ان حل ذلك الوقت الذى اصبح فيه توسع السلطنة العثمانية فى فتوحها تقليد لا يمكن تحاشيه فان القوات التى تاخذ رواتبها من الخزانة السلطانية لم تعد كافية لتحقيق توسع آخر أوصد أى هجوم مضاد. ولقد استعان السلاطين العثمانيين لتحقيق ذلك بخطة واسعة لتجنيد العبيد ـ

نظرا لقلة تكلفتها ـ ولكن عيبها الخطير انها كانت تخالف الشرع الاسلامى الذى ضربوا به عرض الحائط.

فقد كانت الخطة تقوم على تجنيد دورى للفتية الذكور غير المتزوجين من رعاياهم المسيحيين الارثوذكس ، وبخاصة فى شرق أوروبا ، وذلك بعد انتزاعهم من عائلاتهم فى سن تتراوح بين العاشرة والعشرين، والنزول بهم إلى مستوى الرق، ثم تدريبهم على خدمة السلطنة والجندية (٣)

ومن هنا ادى نظام جمع الاطفال هذا، وكان يسمى «دوشرمه»(٤) إلى تطور آخر: فبينما كان يقوم على ادارة السلطنة العثمانية والدفاع عنها فى ايامها الاولى مسلمون احرار، فقد حل الآن محلهم دون استثناء عبيد السلطان على نطاق واسع حتى وصل الامر الى ان كل منصب كبير تقريبا فى السلطنة يشغله اما مسيحى أو عبد يقتنى بطريقة اخرى (٥)

وحقيقى انه بعد مضى ثلاثة قرون على تأسيس السلطنة العثمانية ـ اى فى اواخر القرن السادس عشر ـ كانت قد بلغت اقصى اتساعها فبسطت نفوذها على البحر الاسود والبحر المتوسط والبحر الأحمر وشمال افريقيا والعراق وشبه الجزيرة العربية والشام وشبه جزيرة الموره ويوغسلافيا ورومانيا وأجزاد كبيرة من امبراطورية النمسا والمجر، لكن هذا الاتساع الذى حققته فى زمن قياسى سريع، كان الاسرع منه تراجعها عنه خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، وذلك بسبب ضعف وفساد القوة العسكرية وكثرة هزائمها وتمرداتها، إلى جانب اعتماد نظام الحكم فى الاساس على شخص السلطان الذى كان بالتبعية يتعرض للتقلص والتحلل بمجرد أن يلى الحكم سلطان غير كفوء مهما كان السلطان السابق له مصلحا أو عادلا.

ولعل الذى انقذ السلطنة من انياب الدول الاوروبية فى القرن السابع عشر هو جهل اوروبا بمدى عمق التدهور العثمانى، وانشغالها بحروبها الداخلية. ولم تنتبه اوروبا لتهالك السلطنة إلا عندما صدت جيوشها عند أبواب فينيا عام ١٦٨٣ ثم فقدها للمجر واستيلاء إمارة البندقية على سواحل البانيا. ومنذ عام ١٦٨٧ استعادت النمسا كرواتيا وسلافونيا وترانسلفانيا وبلغراد. ووصلت الى نيش عام ١٦٨٨ ، كما استولت روسيا عام ١٦٩٦ على ازوف على البحر الاسود، واسست فيها قاعدة بحرية ثابتة.

وتوالت الهزائم على السلطنة العثمانية فى كل جبهاتها حتى فى الشرق حيث استولى المغامر

التركماني نادر خان على العراق عام ١٧٣٠ . وظل الحال يتدهور خلال القرن الثامن عشر فاجبرت السلطنة على توقيع «صلح ياسى» مع الامبراطورة كاترين عام ١٧٩٢ حيث تنازلت لروسيا عن كل املاكها شمال البحر الاسود. ولم يوقف علميات سحق السلطنة العثمانية فى نهاية القرن الثامن عشر سوى قيام الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ وانصراف دول اوروبا مؤقتا عن السلطنة خوفا من الثورة الفرنسية وظهور نابليون. ولكن مع صعود نجم نابليون بدأت فرنسا فى تحقيق امبراطوريتها الشرقية التى كانت نواتها مصر. ومن هنا جاءت الحملة الفرنسية على مصر كتهديد جديد للسلطنة وبداية للصراع الانجليزى الفرنسي على ما تبقى فى يدها من ممتلكات فى الشرق.

وقد واكب هذا الضعف فى نظام الحكم تزايد الخلافات والفوضى والحركات الاستقلالية فى الولايات العثمانية التى كفت عن ارسال المال الى الخزينة السلطانية [٦] ، فتأخرت رواتب الجند واندلعت ثورات الانكشارية فى استانبول حيث قتلوا الصدر الاعظم وخلعوا السلطان احمد الثالث ١٧٠٣ ـ ١٧٣٠)[٧] وانتشرت الرشوة حيث اصبحت قاعدة ثابتة لتولى المناصب والوظائف وحكم الولايات فمن كان يدفع مالا اكثر للباب العالى والصدر الاعظم كان يتولاها. مما زاد فى جشع الموظفين والمسئولين والملتزمين والميل إلى الرشوة والابتزاز، حتى انهم ابتكروا حيل شرعية لذلك كخدمة التكايا والطرق الصوفية. إلى جانب الاوقاف الاهلية التى تستروا خلفها لحماية ثرواتهم عند موتهم او طردهم من وظائفهم ، فقد عمدوا الى احالة الاراضى والاموال التى كانت التزاماً لهم إلى نظام الوقف الاهلى، ثم تصرفوا فيها بالبيع والشراء والايجار رغم كونها من املاك السلطنة، مما ساعد على تجميد اموال وعوائد كثيرة توقف الاستفادة منها فى تحسين الاحوال الاقتصادية، وراحت ايرادات هذه الاوقاف الى جيوب حائزيها.

وقد زاد من سوء الامور تدهور النظم الزراعية والتجارة إلى جانب ضعف النشاط الصناعى بسبب نقص المواد الاولية واعتماده على نظام الطوائف الحرفية البالى.

ولقد حاولت السلطنة منع خروج هذه المواد ـ انظر محاولات الجزار فى الشام ومحمد على فى مصر عندما وضعا نظام الاحتكار ـ بسن القوانين واللوائح المانعة للتصدير وتثبيت اسعارها دون جدوى، ذلك ان تخلف نظام الطوائف الحرفية الذى يقوم على محاولات

الاكتفاء الذاتي وعدم قدرته على مواجهة التجارة الدولية وعدم جدوى نظام الاحتكار الى جانب تفشي الرشوة والفساد بين موظفي السلطنة ليتغاضوا عن تطبيق هذه اللوائح والقوانين، كل ذلك لم يوقف تدهور النظام الاقتصادى للسلطنة. وزاد الطين بلة انه بعد سحب هذه المواد الاولية من السلطنة الى اوروبا قامت بتصنيعها واعادة تصديرها لاسواق السلطنة في ظل نظام الحماية الاجنبيةالذى فرضته دول اوروبا على السلطنة فساعد ذلك على زيادة كساد الصناعات المحلية واضطراب شديد في التوازن التجارى بين السلطنة ودول اوروبا.

فدول اوروبا منذ نهايات القرن السادس عشر كانت تمارس سياسات مالية واقتصادية تهدف إلى اختراق نظام الاكتفاء الذاتي الذى كانت تطبقه السلطنة، فتوغلت بنوكها وشركاتها الاستثمارية إلى داخل السلطنة واستنزفت مواردها وسيطرة على اسواقها المحلية واقتصادياتها.

كما عانت السلطنة بسبب ثورة النقد الناجمة عن تدفق الفضة الامريكية الى اوروبا وعدم قدرة السلطنة في الحصول على نصيب مناسب منها، مما أدى الى نقص متتالي في قيمة العملة العثمانية وارتفاع معدلات التضخم، واستمرت مرتبات الجند والموظفين ثابتة دون اى زيادة مما ساعد على توطين الرشوة بشكل اساسي في النظام الادارى للسلطنة. وبات من المستحيل اصلاح امرها دون هدمها واقامتها على اسس جديدة مختلفة وهذا ما حاولته الثورة التركية الكمالية فيما بعد عندما الغت الخلافة العثمانية الفاسدة واقتحمت الثورة العلمية والصناعية الحديثة.

وها هو الجزء الثاني من تاريخ الجبرتي يصف فيه الاحوال السياسية و الفكرية لمصر فيما بين عامي ١١٦٢/١١٧٤ = ١٧٤٨/١٧٦٠م في ظل الظروف التي سبق شرحها، ويوضح لنا كيف كانت الأحداث في هذه الفترة من الاحتلال العثماني لمصر تتوالى و تتصادم، والنزعات الدموية تحتد بين البيوت المملوكية على النفوذ وخاصة على منصبى «شيخ البلد» و «امير الحاج» ، ومحاولة استغلال الباشا العثماني لهذه النزاعا لتثبيت اركان حكم السلطنة في مصر، وفشله في ذلك. واثر كل ذلك على أحوال الشعب المصرى وحياته السياسية والفكرية، والاستغلال البشع والمهين له من قبل سلطة محلية مستبدة [المماليك]

وسلطة استعمارية [العثمانيين] تستنزفه لحساب قوى خارجية اجنبية.

كما يوضح لنا الجبرتي رد فعل الشعراء والادباء المصريين على هذه الاوضاع المتردية والظالمة متمثلين في ذلك ما أنجزه من قبل أدباء وشعراء قاوموا الاستبداد الأيوبى والمملوكى والعثمانى من أمثال «ابن مماتى» و «ابن سودون» و «ابن دانيال» و «ابن عروس» و «الوهرانى» وغيرهم.

ولهذا فإن هذا الجزء يعتبر من أهم أجزاء تاريخ الجبرتى التى تستعرض الحالة الفكرية والأدبية لمصر فى ظل الاحتلال العثمانى، مما دفعنى إلى إلحاق بعض الدراسات الهامة حول الحالة الفكرية والأدبية لمصر فى هذه الفترة ضمن الهوامش والملاحق.

إلى جانب هذا يرصد الجبرتى عدة ظواهر هامة فى الحياة الفكرية والأدبية منها ظاهرة انتشار المقاهى وشرب القهوة و بروز دورها فى الحياة الفكرية والأدبية ، واتساع ظاهرة رواة سير البطولات الشعبية داخل هذه المقاهى واجتماع الناس حول هؤلاء الرواة وسيرهم التى كانت تهاجم الاستبداد العثمانى ، مما دفع السلطات العثمانية إلى محاولة محاصرة هذه الظاهرة عن طريق دفع بعض المشايخ الى الافتاء بتحريم شرب القهوة واعتبارها من الخمور، وان المجتمعين حولها فى المقهى فاسقين وخارجين عن الدين، وقد ردّ عليهم بعض المشايخ وافتوا بعدم حرمانيتها، وانها الزم للانقطاع لذكر الله.

ومن الطريف ان هذا الصراع بين المشايخ حول موضوع القهوة تطور ليصبح مظهرا من مظاهر الصراع المذهبى والسياسى والأدبى بين الاشراف من السادة الوفائية (اتباع السيدة فاطمة الزهراء والذين ساندوا شرب القهوة)، والاشراف من السادة البكرية (اتباع الخليفة ابو بكر الصديق الذين حرموا فى أول الامر شرب القهوة)، فقد التقى موقف السادة البكرية مع الموقف العثمانى، فساند كل منهما الآخر ضد السادة الوفائية ، الذين اتهموا بالتشيع لآل البيت والميل للفرس الشيعة.

وقد سارع الامراء المماليك إلى مساندة السادة الوفائية والانتساب اليهم وإلى آل البيت وقريش، من أجل الحصول على سند شرعى يدعم نفوذهم ومساعيهم من أجل الانفراد بالسلطة فى مصر، التى فقدوها منذ غزوة السلطان سليم وهزيمة السلطان الغورى على يده.

وقد ظهر ذلك واضحا في اجتذاب الامراء المماليك للشعراء المشايعين للسادة الوفائية إلى

مجالسهم مثلما فعل الامير رضوان الذى لم يكتف بتشجيعهم على اعلان أشعارهم المشايعة لآل البيت، بل انه كلف احد المشايخ لكتابة رسالة «قهر الوجود العابسة بذكر نسب الجراكسة إلى قريش» لينسب المماليك الجراكسة ومنهم الامير رضوان إلى آل البيت وقريش وبالتالى يستحوذ على نسب شريف يدعم نفوذه السياسى.

ولقد كان من مظاهر هذا الانقسام بين الوفائية، والبكرية انقسام الشعراء بينهما وازدهار حركة شعرية مشايعة لال البيت فى مصر، كما هو واضح من الدراسات المرفقة.

وفى بدايات هذا الجزء يذكر الجبرتى أحداث هامة توضح المواقف المضادة للسلطنة العثمانية ورجال الدين الموالين لها تجاه المصريين الاقباط [قصة منع المحمل القبطى]، تلك المواقف التى دأبت السلطة عليها من أجل تفتيت وحدة الشعب المصرى حتى تتمكن من استنزافه ونهبه تحت دعاوى دينية باطلة. وليس أدل على أن هذه المواقف كانت بعيدة كل البعد عن الدين وتهدف إلى استغلال الشعب المصرى من حالة هروب الفلاحين من أراضيهم بشكل جماعى، والتى عرفت بظاهرة «تسحب الفلاحين» أى هروبهم من أراضيهم ، بسبب النهب المستمر والجائر لهم من قبل رموز السلطة العثمانية ويكفى ان نذكر هنا مثالا واحدا. لما كانت تبتزه اجهزة الإدارة العثمانية بشكل رسمى من القرى إلى جانب مال السلطان والجزية. ففى سجل الترابيع رقم ١٦٠٥ الخاص بولاية الشرقية سجل المال الإضافى على قرية منية عامر كالآتى بالبارة:

٢٠٠٠	ثمن حصان تقدمه
٢٠٠٠	عادة قائمقام.
٣٠٠	عادة الخازندار
١٠٠٠	ثمن اغنام الضيافة
١٠٢٠	ثمن اغنام الهبة
١٠٠٠	ركبات (ركايب) مقدمة لرجال الادارة.
٣٠٦٠٠	ثمن سمن معتاد
٣٢٤٠	عادة الملتزم.
٤١١٦٠.	

إلى جانب كل ذلك يذكر الجبرتى الكثير من التحولات فى النظام المملوكى فى ظل الاحتلال العثمانى، سواء على مستوى التنظيم الداخلى للبيت المملوكى وتحولهم عن الاسماء الآسيوية إلى الاسماء المصرية، أو على مستوى النزوع إلى الاستبداد بالسلطة والاستقلال بها عن السلطنة العثمانية والسيطرة على منصبى «شيخ البلد» و «امير

الحاج» ، والصراع الدموى الضارى بين البيوت المملوكية على ذلك، واتباع اساليب الاغتيال والذبح فيما بينها.
وعلى بك الكبير فى هذا الشأن يشكل مثالا واضحا لهذه الاساليب التى أوصلته الى الانفراد بالسلطة فى مصر، بعد ان قضى على امراء البيوت المملوكية المنافسة له، وكذلك على نفوذ القبائل العربية فى الوجهين القبلى والبحرى وشل فعالية الحامية العثمانية والباشا والسيطرة على كل عقود الالتزام [فى الزراعة والجمارك والتجارة] والاوقاف والخزانة السلطانية وعوايد الباشا ذاته.
ولكن مقتل على بك جاء بنفس اساليبه التى تعلمها منه وأتقنها محمد بك ابو الدهب احد الادوات التى وصل بها على بك الى السلطة.

وسنلاحظ أن القضاء على سلطة على بك الكبير لم يمنع احد ادواته وهو أحمد الجزار من أن يحاول تحقيق نفس أحلام على بك. فعلى بك كان النموذج الدموى الامثل الذى طرحته وابدعته السلطنة العثمانية والذى ظلت تطرحه باستمرار لحكم ولاياتها اعتقادا منها بان مثل هذه النماذج هى الوسيلة الوحيدة لسيطرتها على املاكها الممتدة من غرب اسيا حتى وسط أوربا ولكنها كانت فى نفس الوقت السبب فى انهيارها.
من أجل هذا اطلقنا على هذا الجزء من كتاب الجبرتى اسم «على بك الكبير الصعود والسقوط» فهو يملؤه حضورا وحركة سواء فى صعوده أو هبوطه، وحياته تشكل عملا دراميا متميزا تتجلى فيه احوال السلطنة العثمانية فى ذلك الوقت. تبدأ قصة على بك الكبير عندما خطفه تجار العبيد من بلاده الأباظة [٨] وهو فى سن الخامسة عشرة وباعوه بالاسكندرية عام ١١٥٦ / ١٧٤٣م لمديرى جمركها الاخوين اليهوديين اسحاق ويوسف اللذين اهدياه للامير ابراهيم جاويش كخيا [كتخدا]، فسماه عليا، ورباه على النظام المملوكى حتى صار خازنداره، بفضل مهارته القتالية والعقلية . وعندما بلغ الثامنة عشرة اعتقه سيده، وسمح له بإرخاء لحيته.
وما ان استهل عامه الثانى والعشرين فى ١١٦٢ / ١٧٤٩م حتى صار من كشاف مصر، وبدأ ذكره فى دفاتر الروزنامة بلقب «كاشف شرقية» ولما توفى استاذه ابراهيم كخيا (١٧٥٤/١١٦٨م) تقلد على بك الصنجقية باسم «على بك مير اللوا قازدغلى» ، فكان ذلك دافعا له ليسعى نحو منصب «شيخ البلد» أى زعامة المماليك جميعا وحكم مصر. ولكن لان هذا لم يكن مطمعه وحده

فقد دب الخلاف بين البكوات المماليك اتباع ابراهيم الكخيا وتساقط فى هذا الصراع عدد منهم، وكان نصيب على بك من هذه الصراعات نفيه إلى «نوسا الغيط[٩]» بالوجه البحرى.

ولكنه عاد للقاهرة بعد ان مهد له الجو عبد الرحمن كتخدا (صاحب العماير المشهورة) ليتولى مشيخة البلد سنة ١١٧٤/ ١٧٦٠م بفرمان (بيورلدى) من الباشا، فعرف باسم «حالا شيخ البلد مصر عزتك ميرالك مكرم على بك قازدغلى». ومنذ توليه المشيخة أبعد كل منافسيه على رياسة مصر، حتى عبد الرحمن كتخدا ـ الذى كان سبب صعود نجمه ـ نفاه إلى الحجاز، وعين فى المناصب الحساسة الامراء الموالين له ومنهم خازنداره محمد بك ابو الدهب.

ولكن أحد الامراء الموالين له وهو حسين بك كشكش انقلب عليه وتمكن من عزله ونفيه الى الشام فى ١١٧٩/١٧٧٧م وحذف اسمه هو واتباعه من دفتر الجراية والعليق، فقد ذكر فيها «على بك ميراللوا كاشف شرقية سابق» واضيف فوقها «رفع شدة» أى عزل.

ولكنه عاد فجأة للقاهرة مع اتباعه دون محاربة فتم نفيه الى النوسا كما نفى اتباعه الى اسيوط.

ولكن فى اعقاب احد مؤامراته وهو فى النوسا نفى الى اسيوط فصار وسط اتباعه، وتوافق مع شيخ العرب همام والامير صالح بك العدو اللدود لحسين كشكش، وزحفوا على القاهرة بعسكرهم مما دفع حسين كشكش بك الى الفرار للشام. وعاد على بك للقاهرة شيخا للبلد فى ٢٩ جماد اول ١١٨١/٢٢ اكتوبر ١٧٦٧م، وشتت وقتل معظم خصومه.

وفجأة عاد حسين كشكش بجيش كبير نزل به فى دمياط (١١٨٢هـ) وتقدم مكتسحا شمال الدلتا حتى وصل إلى طنطا. وأحس على بك بخطورة الازمة فارسل له جيشا مدعوما من شيخ عرب هوارة وصالح بك، بقيادة محمد بك ابو الدهب تمكن من محاصرة حسين كشكش وقتله هو ومن معه من انصاره. وبهذا استقرت الامور له، فانقلب على حليفه صالح بك وقتله.

لم يقنع على بك بنفوذه الكبير بين الامراء المماليك وخضوعهم له فسعى الى تحقيق الحلم التقليدى لكل الامراء الكبار، وهو الاستقلال بمصر. لم يكن على بك يستطيع المضى نحو هدفه المضمر هذا ما لم ينجح فى التغلب على العقبة الكبرى التى طالما أودت بحياة عشرات من مشايخ البلد وبكواتها ،

تلك هى شكوك ديوان الاستانة والباشا الممثل لهم فى مصر تجاهه، وفى سبيل ذلك قدم الهدايا والرشاوى لرجال السلطنة وملأ الخزانة و المخازن السلطانية من خيرات مصر برهانا على ولائه وتفانيه فى خدمة السلطان (انظر حوادث شوال ١١٨١). وأصبح الباشا ينزل من القلعة الى منزله طمعا فى هداياه ورشاويه (انظر احداث يوم السبت ثانى عشر ربيع اول ١١٨١) واستكثر من شراء المماليك.

وبفضل تلك السياسة ضمن عدم معارضة الباشا أو الديوان لأعماله، وفى ظل تلك الثقة نشط على بك يكمل تنفيذ خطته لإزالة بقية العقبات فبدأ بنفى كل معارضيه الى البنادر مثل دمياط ورشيد والاسكندرية و المنصورة ثم ارسل من يغتالهم واحدا بعد واحد، وذلك بعد ان يستصفى اموالهم ياخذ التزاماتهم ويوزعها على مماليكه واتباعه الذين يؤمرهم فى مكانهم.

بهذه الطريقة تمكن على بك فى ظرف سنوات أربع، من أن يقيم فى أهم المناصب بكوات من خاصة اتباعه، فولى اسماعيل بك دفتردارية مصر، وحسن بك رضوان امارة الحج وايوب بك ولاية جرجا التى كانت تعد اهم ولايات مصر. كما تيسر له ان يملأ جميع مراكز الصناجق بيكوات تابعين له ذكر منهم التاجر «لوزينان» الذى كان بمصر فى هذه الفترة سبعة عشرة بيكا هم: رضوان، على، اسماعيل، خليل، عبد الرحمن، حسن، يوسف، ذو الفقار، عجيب، احمد الجزار (والى عكا فيما بعد)، سليم اغا، سليمان كتخدا، لطيف، عثمان، محمد بك ابو الدهب، ابراهيم بك، مراد بك.

وفى الوقت الذى استكثر فيه على بك من المماليك حتى حاز ما يقرب من ٦٠٠٠ مملوك، حرم على بكواته وكشافه ان يحوز الواحد منهم اكثر من مملوك او اثنين حتى يستعصموا به دائما ويأمن من غدرهم.

وأراد على بك فيما أراد أن يأمن شر الحامية العثمانية والديوان فعول على القضاء التام على نفوذهما والتقليل جهد الطاقة من عدد رجالهما، فبدأ أولا باشراكهم فى الحروب الداخلية حتى هلك من صدور الأوجاق من هلك، خصوصا فى اول اصطدام لجيش على بك مع كشكش بك، ثم ابعد معظم من بقى من كبرائهم كما ابعد اتباعهم. وكان غرضه من ذلك كما ذكر الجبرتى «ازالة اصحاب المظاهر كائنا ما كان» وقد ذكر الجبرتى من هؤلاء المنفيين ما يزيد على الثلاثين من ضباط

الحامية. وكان إذا عزل أو نفي أو اغتال واحدا من ضباط الاوجاقات استبدل به آخر من اتباعه . وقد ذكر المؤرخون ان علي بك لجأ اخيرا الى حيلة ما كرة لتشتيت شمل من بقى من رجال الفرق الذين كانوا قد التحقوا بها طمعا في دسامة الموجبات. اذا اخر دفع رواتبهم مدة ستة اشهر متعللا بقلة المال. ولما اشتد بهم الحال وذاقت انفسهم مرارة الحرمان، مع عجزهم عن السلب او النهب لعناية علي بك بالامن قبلوا تسلم نصف رواتبهم، ولم تعد الجندية مطمعا لأولئك الذين لم يعرفوا لها معنى إلا التجبر والنهب فأخذوا يبحثون عن عمل أجدى.

هكذا اضعف علي بك سلطة الديوان العثماني بالقضاء على نفوذ كبار ضباط الاوجاقات ، وانقص عدد رجالها الى الحد الذى يمكن اعتبارها بسببه كما مهملا

وبعد ان آمن علي بك مكر الباشا والديوان، وكسب رضاء السلطان وقضى على المعاندين والمنافسين، وشل الحامية حتى كادت تكون اسما بلا جسم ، وبعد ان ركز السلطتين الادارية والحربية في يده، اصبح في مركز يسمح له بالقضاء على آخر القوى الخطيرة التى يمكن ان تهدد سلطته، بل وجوده، تلك هي قوة العربان المنتشرين في الوجه البحرى والمنبثين في الصعيد.

وللعرب في مصر قصة قديمة تبدأ مع الغزو العربى. ومنذ دخلوا في ركاب عمرو وهم اصحاب السلطة، حتى إذا ما انتقلت امور الحكم الى أيدى دول شبه مستقلة استمر تدخلهم بشكل ما. ولما استقلت بمصر دول الفاطميين والايوبيين والمماليك، وتعذر على العرب التدخل الفعلى في شئون الحكم، التحق بعضهم بالجيش كجند مرتزقة. وأخيرا عندما حارب المماليك دفاعا عن دولتهم ضد العثمانيين ساعدهم العرب أولا، ثم تخلوا عنهم عندما تبين أن قضيتهم خاسرة ونفعهم قليل.

وجاء الحكم العثمانى حائلا دون تدخلهم في الحكومة والجيش، فراحوا يعيثون في مصر فسادا، يقطعون طريق الحج، ويسلبون التجارة في طريقها من الصعيد الى انحاء الوجه البحرى؛ واخذوا يهاجمون الارض المزروعة من حين الى آخر، لا يراعون في ذلك حرمة. واشتهر امرهم هذا وعرف في التاريخ باسم «افساد العربان».

وكان أخطر العرب قدرا بالوجه البحرى الحبايبه بشرق الدلتا ووسطها، والهنادى بالبحيرة. وهؤلاء جاء معظمهم من الحجاز، بينما استقر عرب هواره بالصعيد . ومعظمهم

جاء من بلاد المغرب وغير هؤلاء كثيرون انبثوا فى أنحاء القطر على حدود الوادى المنزرع.

وورث سويلم بن حبيب زعيم الحبايبه وشقيقه سالم شهرة تردد صداها فى انحاء الوجه البحرى، وانتهت اليه زعامة جميع القبائل هناك وقد انتهت اليه خفارة الملاحة النيلية بين بولاق وكل من دمياط ورشيد، غير انه رغم ثروته الطائلة، وما كان بيمينه من الضياع الواسعة، تجبر وبغى وطغى واصبح لا يفترق فى شىء عن قطاع الطرق بعد ان زاول القرصنة النيلية «وأنشأ عدة مراكب تسمى الخرجات، لها شرافات وقلوع عظيمة، وعليها رجال غلاظ فاذا مرت بهم سفينة صاعدة الى (الوجه القبلى) أو حادرة (الى البحرى)، صرخ عليها اولئك: «البر»، فان امتثلوا وحضروا، أخذوا منها ما أحبوه من حمل السفينة وبضائع التجار، وان تلكئوا فى الحضور قاطعوا عليهم بالخرجات فى اسرع وقت، واحضروهم صاغرين، واخذوا منهم اضعاف ما كان يؤخذ منه لو حضروا طائعين من أول الامر.

وكان له قواعد وأغراض وركائز واناس من الامراء وأعوانهم بمصر يراسلهم ويهاديهم فيذبون عنه ولا يسمعون فيه شكوى.

وما كان على بك ليسمح لتلك الفوضى بالبقاء فى عهده، وما كان ليغمض عينيه على من كانت «غالب بلاد القليوبية والشرقية تحت حمايته وحماية أقاربه وأولاده ولا يقدر ملتزم، ولا قائمقام على تنفيذ امر مع فلاحيه إلا باشارته.» ثم هو يتحكم فى الطرق بين القاهرة وموانى القطر الشمالية، فوجه على بك تجريدة بقيادة ابى الدهب وايوب بك للقضاء على سويلم بن حبيب، وتأديب اتباعه، وحجته فى ذلك أن سويلما كان قد أكرم حسين بك كشكش وخليل بك عند عودتهما من الشام.

ولم يكن سويلم موجودا فى مركزه دجوه؛ بل كان فى سند نهور، فاسرع الى البحيرة. والتجأ الى عرب الهنادى فاكتفى محمد بك ابو الدهب بتجريد دوائره مما فيها؛ وعاد الى القاهرة سنة ١٧٦٩ (ربيع آخر ١١٨٢هـ).

ولم يكتف على بك بذلك، بل سلط عليهم سنجق البحيرة عبد الله فاشتبك معهم ولكنه خر صريع المعركة، فتولى بعده ذو الفقار كاشف الذى استعان باحمد بك الجزار على الانتقام لمقتل عبد الله.

ولما تم اغتيال صالح بك. ووقعت القطيعة بسبب تلك الحادثة بين احمد بك الجزار وعلى بك، فر الجزار الى سورية ثم عاد مرة ثانية ليناصر سويلما عدوه القديم ضد سيده

وصاحب الفضل عليه على بك.

عند ذلك اسرع على بك فجهز تجريدة بقيادة اسماعيل بك شددت النكير على الحبابية والهنادى ، فانكسروا شر كسرة، وقضوا على سويلم ونكلوا باتباعه، وزال خطر اولئك الاعراب، وهرب الجزار مرة أخرى إلى الشام.

وبعد أن اصبحت القاهرة في يد على بك وخلص له الوجه البحرى ايضا تطلع الى استخلاص الصعيد، وهو مركز تموين القطر، من يد اعظم مشايخ العرب قدرا واكثرهم نفوذا واتباعا همام بن يوسف الهوارى.

وكان حكم الصعيد منذ عصر المماليك فى يد شيوخ العرب من هوارة حتى كان عهد الوالى العثمانى سليمان باشا الذى فكر فى ان يعهد بحكم الصعيد الى أحد بكوات المماليك بدلا من مشايخ العرب الذين كانوا قد أدى بهم الغرور والاستهانة بالعثمانيين الى قلة الاهتمام بالاموال السلطانية والغلال الديوانية وكثرة البواقى التى لا تعد ولا تنحصر، والتقصير فى ضبط المال والغلال والجبايات الظاهرة وحصول الخسارة الزائدة والظلم المترادف لعامة الرعايا وكافة البلايا هذا مع اهمال مصالح البلاد وكافة انواع الاصلاح مما ادى الى الخراب.

ففى عهد هذا الوالى تم تحجيم دور الهوارة فى الصعيد ولكن عندما ضعف سلطان العثمانيين بمصر وتمهد السبيل لسيادة المماليك وأخذ سنجق جرجا يتجه ببصره الى القاهرة ويهتم بحوادثها السياسية اكثر من الاهتمام بامور الصعيد، واصبح الوجه القبلى منفى المتمردين والمغضوب عليهم وكان هؤلاء فى حاجة الى سواعد العرب واموالهم ليستعينوا بهم على منافسيهم بالقاهرة، بدأ النفوذ يعود تدريجا الى عرب هواره.

وبدأ هؤلاء ينصارون حزبا على اخر ويهتمون بالاحداث السياسية التى لم تعد تقتصر على القاهرة بل شملت القطر من شماله الى جنوبه واضحوا بذلك قوة هائلة خطيرة ترجح الكفة التى يضمون اليها.

وما كاد القرن الثامن عشر الميلادى ينتصف حتى انتهت زعامة عربان الصعيد الى شيخ العرب همام بن يوسف الهوارى. لم يكن همام يطمع فى زيادة مال، ولم يعمل لتوطيد نفوذه أو توسيع املاكه ولم يكن على بك يخشى منه هذا، وانما كان يرجو بالقضاء عليه ان يستولى على الوكر الذى تنبت فيه الفتن. اراد ان يخرب الحصن الذى يتسجير به المنفيون، وان يقضى على المورد الذى يمول منافس شيخ البلد على بك الكبير.

ولم يكن همام بالضعيف الذى يجار عليه ، وهو الذى اجار على بك من قبل. ولم يكن بالاعزل الذى ينقصه السلاح او الاتباع ، بل كان رجاله لايحصيهم العد وسلاحه يزيد على حاجته. ورغم كل هذه الاعتبارات لم يتوان على بك فى ارسال تجريدة بقيادة ابى الدهب لقتال همام بحجة انه انكر الاتفاق الذى كان قد عقده مع ابراهيم كخيا سنة ١١٤٩ ومؤداه التنازل له عن التزام برديس وفرشوط.

وما كاد ابوالدهب يقابل طلائع همام حتى اتفق الطرفان على ان يقتصر حكم همام على البلاد الواقعة قبلي برديس وبذا اخرجت منها جرجا عاصمة الصعيد وكان ذلك فى منتصف رجب سنة ١١٨٢هـ (١٧٦٨).

عند ذلك اسرع على بك بتعيين ايوب بك حاكما على جرجا، وفى نفس الوقت عول على ان يستثمر هذا الصلح فى تطهير الصعيد من جميع الامراء والمماليك المنفيين، فارسل يشترط على همام ان يطردهم من البلاد التى فى حكمه مقابل اقراره لنصوص الاتفاق – واستشف همام نيات على بك – وايقن فى نفسه ان هذا العمل لن يكون الا خطوة تمهد (لشيخ البلد) بالقاهرة القضاء على (شيخ الصعيد) فجمع المماليك المنفيين، والفارين، واللاجئين واخبرهم بما اراد على بك، وطلب منهم ان يخرجوا الى اسيوط. ويتحصنوا بها فهى مفتاح الصعيد . ووعد ان يمدهم بالمال والرجال.

ولما زحف هؤلاء على اسيوط وجودها محصنة، حولها بوابات مسلحة بناها عبد الرحمن كاشف وذو الفقار كاشف من اتباع على بك. فلما امتنعت عليهم استعانوا بأحطاب جعلوا الكبريت والزيت فى رؤسها واشعلوها واحرقوا الباب وملكوا مفتاح الصعيد قبل وصول ايوب بك بقليل.

ولم ير أيوب بك من الحكمة ان يصطدم بمن سبقه الى اسيوط فارسل الى على بك يطلب مددا.

ورأى على بك اهمية المعركة القادمة وخطورتها ، فالسيادة ستنتهى الى من يكتب له النصر فيها. لذلك جهز نجدة سريعة من المماليك والمغاربة وفرق الحامية على رأسهم خليل بك القاسمى وابراهيم بك بلفيا ومحمد بك ابو شنب وعلى بك الطنطاوى ، وزودهم بالمؤنة والذخيرة، وأرسل فى أثرهم تجريدة شاملة من المماليك، والمرتزقة من الدلاة والدروز والمتاولة والشوام، وعلى رأسهم محمد بك ابو الدهب ورضوان بك، ولما التأم جميعهم تقدموا واصطدم الفريقان

خارج اسيوط.
واشتد القتال حتى تقرر النصر لجيش على بك، وقتل من أعدائه الكثيرون وفرت فلول المهزومين الى فرشوط حيث كان همام. ولكن ابا الدهب لجأ الى الحيلة فراسل ابن عم همام، وهو ابو عبد الله، واستماله ومناه ووعده برياسة بلاد الصعيد حتى ركن الى تلك الامنية، وصدق تمويه ابى الدهب وتقاعس وثبط عن القتال وخذل طوائفه. ولما أحس همام بحالة جيشه النفسية وخيانة اقرب الناس اليه مات كمدا قرب اسنا (٨ من شعبان سنة ١١٨٣ هـ ـ ١٧٦٩م) وبذلك تقرر النصر النهائى لعلى بك.
وتعتبر معركة اسيوط فى نظرنا من احسم المواقع فى تاريخ على بك، وهى ثانى المعارك الثلاثة الهامة التى اشرنا اليها. وهى التى اكدت له النصر، فاصبح سيد الوجهين وصاحب النفوذ المطلق فى جميع انحاء القطر المصرى.

لم يكد على بك يفرغ من توطيد نفوذه فى مصر حتى اشتبكت الدولة العثمانية فى حرب ضروس مع روسيا التى عادت الى تنفيذ سياستها التقليدية بالتوسع نحو بحر البلطيق غربا والبحر المتوسط جنوبا. وتدخلت فى ازمة العرش البولندى بعد خلوه بوفاة الملك فردريك اغسطس الثالث فى ٥ اكتوبر ١٧٦٣. وقد أدى هذا التدخل الى ان تعلن الدولة العثمانية الحرب ضدها فى اواخر اكتوبر ١٧٦٨. ولكى تشغل الروسيا عدوها عن تكريس قوته لتلك الحرب، وتعجزه عن التدخل الحاسم فى تلك المسألة، قامت بدعاية واسعة ضد الدولة العثمانية فى ولاياتها الأوروبية والاسيوية، ونجح الدعاة الروس فى استغلال مساوىء الادارة العثمانية والنعرة الوطنية والدينية والمذهبية، فبدأ لهيب الفتنة، وانتظمت روح الثورة ولايات البلقان، وماجت رومانيا بالثورة، وتبعتها سواحل الادرياتيك وتساليا والبلوبونيز والصرب والافلاق والبغدان والجبل الاسود.
ولم تكن الدولة العثمانية فى حاجة الى ما يزيد انشغالها اذا كان لديها ما عجزت عن معالجته فى بلاد العرب ومصر وفلسطين وسوريا وبغداد وارمينية وطرابيزون. فاذا اضفنا الى ذلك ثورات املاكها الاوروبية، وفساد نظمها الداخلية، ووهن قوتها الحربية ادركنا مدى عجزها عن المقاومة.
وبينما كان الدولة العثمانية تنتظر وصول الامدادات الحربية التى طلبتها من ولاياتها، اسرعت روسيا فهاجمت الحدود العثمانية من

جميع النواحي دفعة واحدة من الشمال والجنوب، ومن الشرق والغرب. فخاضت جيوشها غمار المعارك على الدانوب، وفي القرم ، وفي جورجيا ، وبلاد المورة، بينما انتشرت اساطيلها في البحرين الاسود والمتوسط فهاجم بلاد الاناضول وسورية وهددت مصر. وضيقت الخناق على البحرية العثمانية التي ارتدت الى خليج جشمة وقضت على معظم وحداته (٧ يوليو ١٧٦٩) وفي الميادين البرية ذاق العثمانيون من مرارة الهزيمة ما جعل فلولهم ترتد عبر الدانوب، وتخرج من القرم، وتجلو عن الافلاق والبغدان وصربيا.

من خلال تلك الكوارث الحربية استشف على بك الكبير في مصر انشغال الدولة العثمانية في اوروبا ، وارتباكها السياسي ، وضعفها الحربي، وعجزها عن حفظ هيبتها، فعول على استغلال تلك الفرصة لمصلحته الخاصة.

بدء الثورة وتخلصه من الباشا العثماني

والتخلص من الباشا العثماني قبل ذلك لم يكن من مصلحة على بك، فقد رأينا كيف اتخذه سندا في كفاحه ضد العناصر المعادية. ولكن حان الوقت للتخلص من ظل سلطته، فاستصدر من الديوان امرا بعزل الباشا. والى ذلك أشار الجبرتي بقوله انه «حصلت قلقلة من جهة والي مصر محمد باشا فانزلوه الى بيت احمد بك كشك وجرشوه في سابع عشر رجب ١١٨٢» (اكتوبر ١٧٦٨م) «وفي يوم الاحد غرة شعبان ، تولى على بك قائمقامية عوضا عن الباشا». وقد ظل محمد باشا محجورا عليه حتى توفى في أوائل سنة ١١٨٣ (١٧٦٩) . وظل على بك قائمقام حتى آخر عهده ولم يعد يسمح للباشوات العثمانيين بدخول مصر.

وبعد طرد الباشا لم يبق في مصر من مظاهر السيادة العثمانية سوى الخطبة والعملة والخزنة السنوية. اما الاولى فقد بقيت كما هي.، واما الثانية فقد أحدث فيها تغييرا طفيفا منذ ١٧٦٩ ، واما الخزنة فقد أوقف ارسالها ابتداء من سنة ١٧٦٨ . اشار الى ذلك الجبرتي في ترجمته للامير قاسم بك ابى سيف الذى سافر بالخزنة ومات بالروم وذلك في سنة ١١٨٠هـ. «وهي آخر خزنة رأيناها سافرت الى اسلامبول على الوضع القديم..».

أغراض على بك من الحركة

يذكر جمهرة المؤرخين الأوروبين ان غرض على بك من حركته كان الملك والاستقلال منتهزا فرصة انشغال الدولة العثمانية فى حربها ضد روسيا، بل ان قنصل فرنسا المسيو دى جونفيل M. De Jonville استشف نيات على بك فكتب يقول ان غرضه جعل مصر دولة مستقلة قوامها قوة المماليك المطلقة. ويذكر الجبرتى ان على بك «كان يقول لبعض خاصته ان ملوك مصر كانوا مثلنا مماليك الاكراد ، مثل السلطان بيبرس والسلطان قلاوون وأولادهم ، وكذلك ملوك الجراكسة وهم مماليك بنى قلاوون الى آخرهم كانوا كذلك وهؤلا العثمانية اخذوها بالتغلب ونفاق أهلها، وينوه ويشير بمثل هذا القول بما فى ضميره وسريرته».

بقى لنا ان نتساءل : هل حصل على بك حقيقة على الاستقلال ؟ كل الأدلة والشواهد والوثائق الرسمية تدل على انه لم يعلن استقلاله او انفصاله عن الدولة العثمانية ، فقد كانت هناك بعض الروابط بين مصر والدولة العثمانية، وبقيت هذه الروابط رغم ما كان بينهما من حروب.

ولا يصح لنا ان نرجع بقاء هذه الروابط الى ما ذكره بعض المؤرخين من ان الحرب الروسية التركية فأجأت على بك قبل ان يتم استعداده ، فانه نجح فعلا فى جميع مشروعاته. وانما بقاء هذه الروابط يرجع الى ان الحركة لم تكن سوى ثورة اوسع نطاقا واعمق غورا من سابقاتها. وكان غرضه منها الانفراد بالحكم فى مصر ولا بأس من بقاء مصر تابعة للدولة العثمانية ظاهريا.

تولى على بك قائمقام عقب عزل محمد باشا يوم الاحد غرة شعبان ١١٨١ (اكتوبر ١٧٦٨) كما هى العادة، ولكنه لم يسمح لاى وال عثمانى بدخول مصر بعد ذلك، فقد أشار الجبرتى الى انه «منع ورود الولاة العثمانية» وعزز ذلك المؤرخ العثمانى جودت بقوله ان على بك «عزل محمد باشا والى مصر وأنزله عن منصبه.. ولم ترسل الدولة بعده واليا على مصر مدة اربع سنوات».

فكانت جميع الأوامر والفرمانات وتقاسيط الالتزام التى كان تصدر بتوقيع باشا مصر اصبحت تصدر باسم «حضرة على بك ميرلوا قائمقام محروسة مصر» كما كانت تقاسيط الالتزام تختم بخاتمه الخاص دون اى إشارة للباشا وذلك فى المدة الواقعة بين عامى ١١٨١ ـ ١١٨٦ (١٧٦٨ ـ ١٧٧٢م) .

وثمة دراسة لدفاتر «اصول مال اسكلها ومقاطعات..»، «ايرادات مال الكمارك..» عن السنوات من ١١٧٤ ـ ١١٩٠ (١٧٦٠ ـ ١١٧٦م). اى منذ تولى على بك شياخة البلد للمرة الأولى حتى بعد وفاته بثلاث سنوات.
لاحظنا فيها مايلى:

(أ) ان التزام «مقاطعة عشور اصناف بهار وتوابعها وسمسارية بهار وتوابعها مع مقاطعة قصير، كان لباشا مصر يغل إيراده لنفسه. والسجلات من بسنة ١١٧٥ إلى ١١٧٩ تنص على انه كان «در عهده دستور مكرم مشير مفخم حضرت وزير مصطفى باشا».
ثم كان لحمزة باشا حتى سنة ١١٨١، وفى سنة ١١٨٣ اصبح «در عهدة حضرة وزير افخم محمد باشا محافظ مصر حالا».

(ب) ولكن ابتداء من سنة ١١٨٣ (١٧٦٩) اى منذ بدء ثورة على بك لم يعد يذكر اسم الباشا واشير اليه رمزاً فقط «در عهدة دستور مكر مشير مفخم حضرت وزير...» ونشير إلى ان هذا الامر لم يحدث مطلقا من قبل.

(جـ) وابتداء من سنة ١١٨٤ حتى ١١٧٨ اى عند اكتمال سلطة على بك، لم يعد يذكر اسم الباشا أو يشار اليه قطعيا. وهذا يعزز الراى القائل بان على بك منع قدوم الباشوات العثمانيين.

(د) لم يعاد ذكر الباشا فى الوثائق الا سنة ١١٩٠، واشير اليه بلقب «حضرت وزير ذو روشن ضممير».

سياسة على بك الداخلية

لاحظ الرحالة الانجليزى بروس Bruce ١٧٦٨م ان على بك كان كثير الاهتمام بامور حكومته، يصرف امورها بنفسه الى ساعة متأخرة من الميل، وانه انهمك فى ذلك حتى تأثرت قوة بصره الى حد ما. واصبح مريضا ممعودا.

التزام الاراضى والأموال المقررة

رغم ان حماس على بك وشدة اهتمامه بالعدل والاصلاح دفعا الكشاف الى الاهتمام بامور الزراعة، من حيث الرى والصرف واقامة الجسور وحفر الترع والقنوات ثم حمايتها وحماية غلاتها من عبث البدو فان سياسته فى منح الالتزام وفرض الضرائب لم تكن خالصة لصالح الشعب، إنما اضطرته اليها الظروف ودفعته اليها دفعا.
فان السياسة التى اتبعها لاضعاف الاوجاقات العثمانية انتهت بهزالها وضعف نفوذها ولما كان معظم ملتزمى الاراضى قبيل عهده من ضباط تلك الفرق، فقد نزعها منهم وجعل

الالتزام وقفا على مماليكه وانصاره وهكذا ابقى نظام الالتزام.

اما اهم فروع الالتزامات فكانت التزامات الاراضي والتزامات الجمارك ومتعلقاتها. وقد فضلت أن أذكر امثلة واقعية مستخرجة من السجلات الرسمية لاغراض سنشير اليها. كما اني فضلت ان تكون الامثلة شاملة وذلك بإيراد مثال تاريخه متقدم على عصر علي بك، والثاني في أواخر عصره حتى تكون المقارنة وافية بالغرض.

أولا : التزامات الاراضي:

(أ) دفتر التزامات ولايات الوجه البحرى عن سنة ١١٧٠ رقم ٢٤ / ٦ مخزن تركي:

«مقاطعة قرية بيشة رزينة وغيره»

در عهدة (أى في عهدة) مراد عبد الله بايع على كوكللويان ٣ ط (٣ قيراط) [ط= قيرط]. وبشير عبد الله بك ط [قيراط واحد] ومنا وعبد الله ٣ ط وبلال اغا عبد الله ٦ ط وبشير اغا عبد الله ٦ ط واحمد عبد الله تابع السيد احمد تفنكجيان ٣ ط بر وجه التزام (اى على وجه التزام) قرية بيشة رزينة.

«غيره» مال مضاف وقف ابراهيم باشا براى مهمات سايرة در راه حج شريف (أى لاجل طريق حج شريف).

في سنة التون ٦٩٦ التون = ٣٠ بارة

بحساب البارة ١٧٤٠٠

\+ ٢٠٨٨ مضاف

١٩٤٨٨ بساره

يكون أقلام (أى مقاطعتان ماليتان)

في سنة التون	٧٠٨	التون = ٢٥ باره
بحساب البارة	١٧٧٠٠	
	٢٠٨٨	
	٦٤٩٦	
	١٠٣٩	
	٢٧٣٢٣	
	١٠٩٣	
صيفي باره	٢٨٤١٦	شتوى باره ٢٧٣٢٣

ويلاحظ ان هذا الدفتر يبين نصيب كل ملتزم من القراريط في قرية بيشة رزينة التابعة لولاية الشرقية. وقد اشير في آخر الحساب الختامي الى مقدار ما يدفع في كل من الموسمين الصيفي والشتوى . مع ملاحظة ان الالتون يساوى ٢٥ بارة.

(ب) دفتر التزامات «الولايات القبلية عن سنة ١١٧٠ رقم ٦/٢٣ مخزن تركي» مقاطعة قرية اتليدم (للشمال من مركز ملوى)

وكفرها در عهده اسماعيل عبد الله تابع رضوان جوربجى بحق ٣ط ، وصالح عبد الله ٦ط، وحسن عبدالله تابع يوسف جاويش ٢ط، وصالح عبد الله تابع مصطفى بك ٢ط، وحسن عبد الله تابع كاشف يك ط ١,٥ ط، وعلى عبد الله تابع كاشف يك ط و١,٥ط، وأحمد أغا تابع سليمان بحق ٢ط واحمد سليمان ٣ط ومحمد يوسف ولدش يك، ط، وعنبر اغا عبد الله ٢ط.

فى سنة التون	١٨٤	التون = ١٨ باره	
بحساب البارة	٤٦٠٨		
	٥٥٢	مضاف	
	٥١٦٠	مجموع	
	١٢٧١	فرط	
	٦٤٣١	مجموع	
	٧٢٥	مضاف	
	٧١٥٦	مجموع	
	٢٨٦	مضاف	
	٧٤٤٢	مجموع	

(جـ) دفتر التزامات الوجه البحرى سنة ١١٨٥ رقم ٧/٥٥ مخزن تركى «مقاطعة قرية الغابة (ولاية شرقية) در عهدة احمد رضوان شراقوه ٦ط، وايوب عبد الله تابع رضوان شراقوه مستحفظان ٦ط، وحسن عبد الله تابع مصطفى ٦ط، وحسن عبد الله تابع على تسلم نصف ط وربع ط، وابراهيم عبد الله تابع رضوان جاوش مستحفظان بلك ط و نصف ط، وعثمان نام وبشير اغا عبد الله بروجه اشتراك ٣ ط وربع ط وثمن ط، وسرور اغا تابع رضوان جاوش مراد ربع ط وثمن ط بروجه التزام قيده نفد.

فى سنة التون	٢٢٨	التون = ٢٤ باره
بحساب البارة	٥٤٧٢	
	٦٥٨	مضاف
	٦١٣٠	
	١٧٤١	
	٤١٩	
	٨٢٩٠	
	٣٣٢	مضاف سنة ١١٧٤
	٨٦٢٢	مجموع

من مقارنة السجلا الثلاثة السابقة يتضح لنا اشتراك اكثر من ملتزم واحد فى القرية الواحدة، وثانيا انه فى اواخر عهد على بك كان هناك بعض ملتزمين للقرى من ضباط الاوجاقات، وثالثا ان مبلغ الالتزام الاصلى كان ينمو بزيادة عدة مضافات كانت رسمية قبل عهد على بك. ففى المثل الاول كان مبلغ

الالتـزام الاصلى ١٧,٤٠٠ بارة، زيد عليـه مضاف حتى اصبح ١٩,٤٨٨ بارة، وفى المثل الثانى كان المبلغ الاصلى ٤,٦٠٨ بارة فظل يزيد حتى كان يصل الى قدر الاصل مرتين فاصبح ٧,٤٤٢ وهكذا الحال فى المبلغ الثالث وهو فى عهد على بك، كان أصله ٥,٤٧٢ فاصبح ٨,٦٢٢ بارة .

ولكن الملاحظة التى تهمنا بصفة خاصة انه بعد المضاف الذى فرضه سنة ١١٧٢ لم يقرر مضاف آخر حتى سنة ١١٨٦ وهى آخر عهد على بك وذلك يعد فخرا له.

ثانيا : تقاسيط الالتزام:

وبهذه المناسبة رأينا ان ننقل صورة تقسيطى التزام احدهما فى سنة ١١٧٥ (١٧٦١م) على عهد مصطفى باشا والثانى سنة ١١٨٥ (١٧٧١م) فى عهد على بك وهو ممهور بخاتمه الخاص.

١ ـ وثيقة رقم ٢ ملف رقم ١٩ محفظه ١ مخزن تركى

«مقاطعة قرية منية بدر سلسيل بحق ٢ط ونصف ط تابع ولاية منصورة در عهده يوسف عبد الله تابع سليمان جاوش قازدغلى كه حالا بروجه التزام قيد شده عن اول توت الواقع فى ٩ ص (صفر) ١١٧٥ أدات شده كه عن مصالحة سليمان شراقوه مستحفظان ملتزم قرية مزبورة بحق ٥ ط عن التزامن ٢ط ونصف ط بمزبور بروجه مصالحه داده وقيد شده مزبورة بيورلدى شريف حضرت وزير روشن ضمير صدر اعظم سابق مصطفى باشا محافظ محروسة مصر حالا. المؤرخ دربالاى قائمة مزاد الواقع فى ٢٣ ذى ١١٧٥ بأمر حضرت وزير دام إجلاله».

قريه مزبوره بحق ٢ ونصف ط قطعة ١ فى سنة التون. . .

بحساب باره	١٠٥٣	قديم
	١٢٧	مضاف
	٤٨	فرط
	٤٩	مضاف
	١٢٧٧	مجموع
	٥١	مضاف درسنه ١١٧٤
	١٣٢٨	شتوى

سنكة ملتزم مزبورة سن اشبويه يكه دير بلان تقسيط ديوان موجبنجة قرية مزبورة بحق ايكى قيراط مذكورك مصالحة سندن التزامكة دير يلوب كركوركه متصرف أولوب اوزركه اداسى لازم كان مال ميرى وقت وزما نيله ديوانه ادا وتسلم ايليوب ظلم وتعديدن بغايت احتراز اوزره اولاشن،

«خاتم الباشا»

تحريرا في التاريخ المزبور ٢٣ ذى الحجة ١١٧٥

والشطر الاخير من التقسيط هو النصيحة التقليدية التى يوجهها الباشاللمتزمين وتعريبها. «انت ايها الملتزم المذكور، انه بموجب هذا التقسيط الديواني المعطى لك، قد أصبحت القرية المذكورة في التزامك بحق قيراطين ونصف قيراط من مصلحة المذكور، فبناء عليه تصرف فيها، وعليك ان تؤدى وتسلم المال الميرى المفروض عليك في وقته مع التحرز من الظلم والتعدى».

ب ـ محفظة رقم ١ ملف رقم ٢٨ وثيقة رقم ٥٠

«مقاطعة قرية منشأة دهشور بحق ٢ط تابع ولايت جيزة در عهده احمد جلبى ولدش كه حالا بروجه التزام قيد شدة عن اول توت الواقع في ١٩ جا (جمادى الاولى) سنة ١١٨٤ ادات شدة كي عن فراغ يوسف عبد الله تابع على ولدش ملتزم قرية مزبورة بحق ١٩ ط به حصة اسن بمزبور ٢ ط فراغت كرده وقيد شده برمودة ببيورلدى شريف حضرت على بك ميرلوا قائمقام محروسة مصر حالا المؤرخ دربالاى عرضحال فارغ المزبور الواقع في ١٧ ذى (ربيع ثانى) سنة ١١٨٥.

بأمر حضرت قائمقام على بك دام عزه.

قرية مزبورة بحق ٢ ط قطعة ١

بحساب بارة	٤٨١٥	قديم
	٢٩٧	مضاف
	٩٢٦	فرط
	١٤٨	مضاف
	١٥٤	مضاف سابق
	١٦٠	« سنة ١١٧٤
	٤١٦٦	موقوف إلى زمان صيفى
	٦٥٦٦	مجموع

ويتلو ذلك النصيحة التقليدية السابقة مع زيادة نص «رعايا وبراياتك حفظ وحماية سيله مشغول ومقيد أولوب» أى «وأن تكون منشغلا ومقيدا بحفظ وحماية الرعايا والبرايا».

يتضح لنا من دراسة التقسيطين السابقين وهما مثلان من آلاف التقاسيط ما يأتى:

١ ـ ان على بك ابقى نظام الالتزام السابق لعصره دون أى تغيير.

٢ ـ وانه أجلى عناصر الحامية العثمانية عن ميدان التزام الاراضى الى درجة ما، ولم يعد يسمح بذلك إلا لمن والاه منهم

وتأكد من اخلاصه.

٣ ـ ان آخر «مضاف» على أراضى الالتزام كان فى سنة ١١٧٤ أى فى أول عصر على بك، ولم تزد عليه اية رسوم أخرى شرعية حتى نهاية عصره.

غير أن سياسة على بك فى جمع المال لم تكن قائمة على اساس اقتصادى عادل، فعندما كان يشعر بحاجته الى المال كما حدث ١٧٧٠ (١١٨٤ هـ) وقت تجهيز حملات الشام كان يتغلب على العقبة المالية باحدى الطرق الآتية:

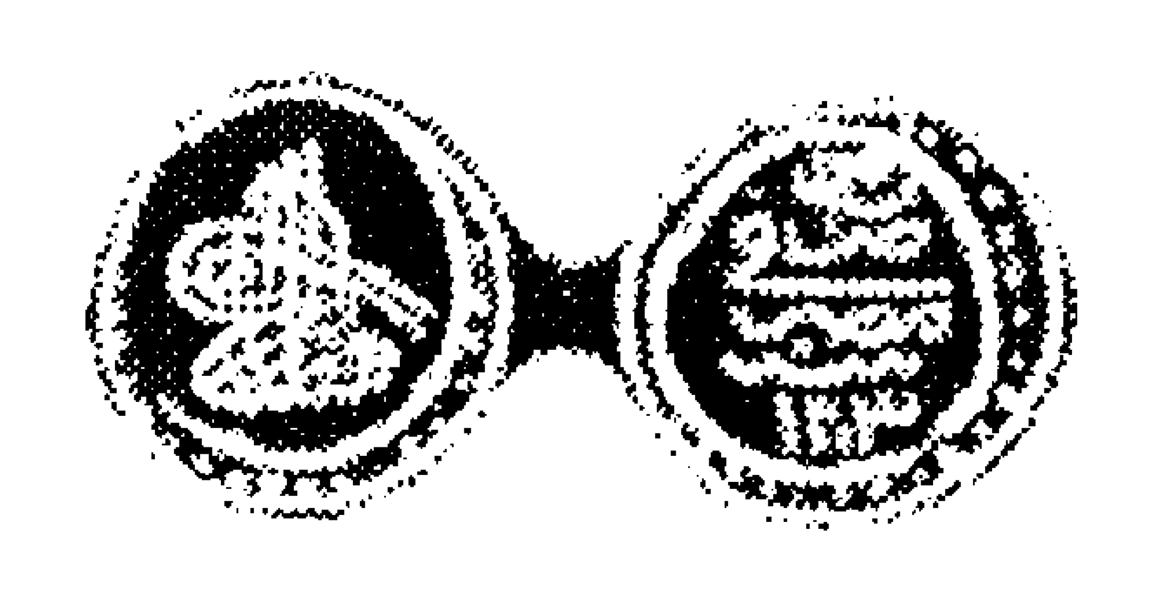
مصادرة أموال من يشك فى ثرائهم من غير مريديه، كما فعل فى تلك المناسبة فطلب حسن أغا تابع الوكيل والروزنامجى وباش قلفة واسماعيل أغا الزعيم وآخرين وصادرهم فى نحو اربعمائة كيس(١٠).

ومنها فرض قدر من المال على أهل الذمة من اليهود والاقباط(١١)، وزيادة مقدار الضرائب على أفراد الشعب، فيخبرنا الجبرتى مثلا انه، عمل دراهم على القرى وعمل على كل بلد مائة ريال وثلاثة ريال حق طريق، ولم يبال بما لحق الناس من شدة جعلتهم يضجون بالشكوى، طالما كانت زيادة ضرائب مال الكشوفية تتبعها زيادة ميرى مال الكشوفية الذى يدفعه الكشاف للخزانة العامة (١٢)

ومنها أيضا انه كان يأمر المعلم رزق بسك عمله جديدة يوزعها على مماليكه.

هذا وينبغى أن نشير إلى عدم وجود تعارض بين فرض دراهم على القرى وبين عدم فرض مضافات جديدة، فالمضاف كان يفرض على الملتزم، وهذا يجبيه من الفلاحين فى كل موسم (الصيفى والشتوى) فهو عبء ثابت ليس له مبرر، وقد وضحنا أن على بك عدل عن هذا السبيل.

أما الدراهم التى كانت تفرض على القرى فكانت حسب الحاجة، فهى ليست دائمة، كما أنها كانت تفرض على جميع أهل القرية: فلاحين وتجارا ومن اليهم فيقل نصيب الفرد ويخف العبء. وقد فضل على بك هذا الامر على ذلك.



النقود المصرية والعملة الأجنبية المتداولة في مصر:

استمر سك العملة في دار ضرب النقود بالقلعة في اثناء الاحتلال العثماني، وكانت تسك اما من الذهب أو الفضة أو النحاس، في سبائك غير خالصة وبفئات مختلفة.

أما النقود الذهبية فكانت المحبوب (أو السكواني) وقيمته ١٨٠ نصف فضة واجزاؤه الزرمحبوب أو النصفية، ثم ربع المحبوب أو الربعية . والزنجيرلي وقيمته ٢٠٠ نصف فضة تقريبا، الفندقلي (او المجر المصري) وقيمته ٢٥٠ نصف فضة تقريبا.

وكانت أقل النقود الفضية قيمة : البارة [١٣] (بالتركية ويسميها المصريون مصرية) مقدارها نصف فضة وهي الميدي (تحريف مؤيدي). ومضاعفاتها ذات الخمس بارات (يسميها الترك بشلك والمصريون خمساوية) وذات العشرة بارات (أو نلك) وذات الخمس عشرة بارة (أو نبشلك، بالتركية ويسميها المصريون نصف صلدي) والقطعة ذات العشرين بارة (يارم قرش بالتركية أو نصف قرش بالمصرية أو عشرينية) وذات الثلاثين بارة (وهي الصلدي). ثم القطعة ذات الاربعين بارة وهي القرش أو الأصلاني [١٤] .

أما النقود النحاسية فهي أجزاء البارة مثل الجديد ويساوي ربع بارة والمقصوص ويساوي ٨ جدد والمرادي ويساوي ١٢ جديدا، والاخشا يساوي ١٦ جديدا.

ومنذ سنة ٩٢٣هـ الموافقة ١٥١٧م، وهذه النقود يجدد سكها كلما تولى عرش السلطنة سلطان جديد ، فتسك باسمه، ولما كانت دار الضرب تحت إشراف الباشا العثماني، وهو الذي يصدر الاذن بسك العملة الجديدة سنحت الفرصة للجشعين من الباشوات بتزييفها، اما عن طريق غش السبيكة، أو عن طريق انقاص سمك القطعة ذاتها. وتكرر ذلك كثيرا لدرجة افقدت العملة ثقة الشعب المصري، فكان يطمئن في الصفقات الكبرى الى التعامل بالعملة الأجنبية المتداولة في مصر اكثر من اطمئنانه الى العملة المحلية.

وكان أكثر هذه النقود تداولا سكواني البندقية أو البندقي، دوقات المجر وهولندة (واشتهرت باسم بوكلب إشارة الى الاسد المنقوش عليها) وهي من الذهب، ثم العملة الاسبانية الفضية من جميع الفئات وخاصة التالير، وهي الريالات الاسبانية وواحدها ابو طاقة (باتاك).

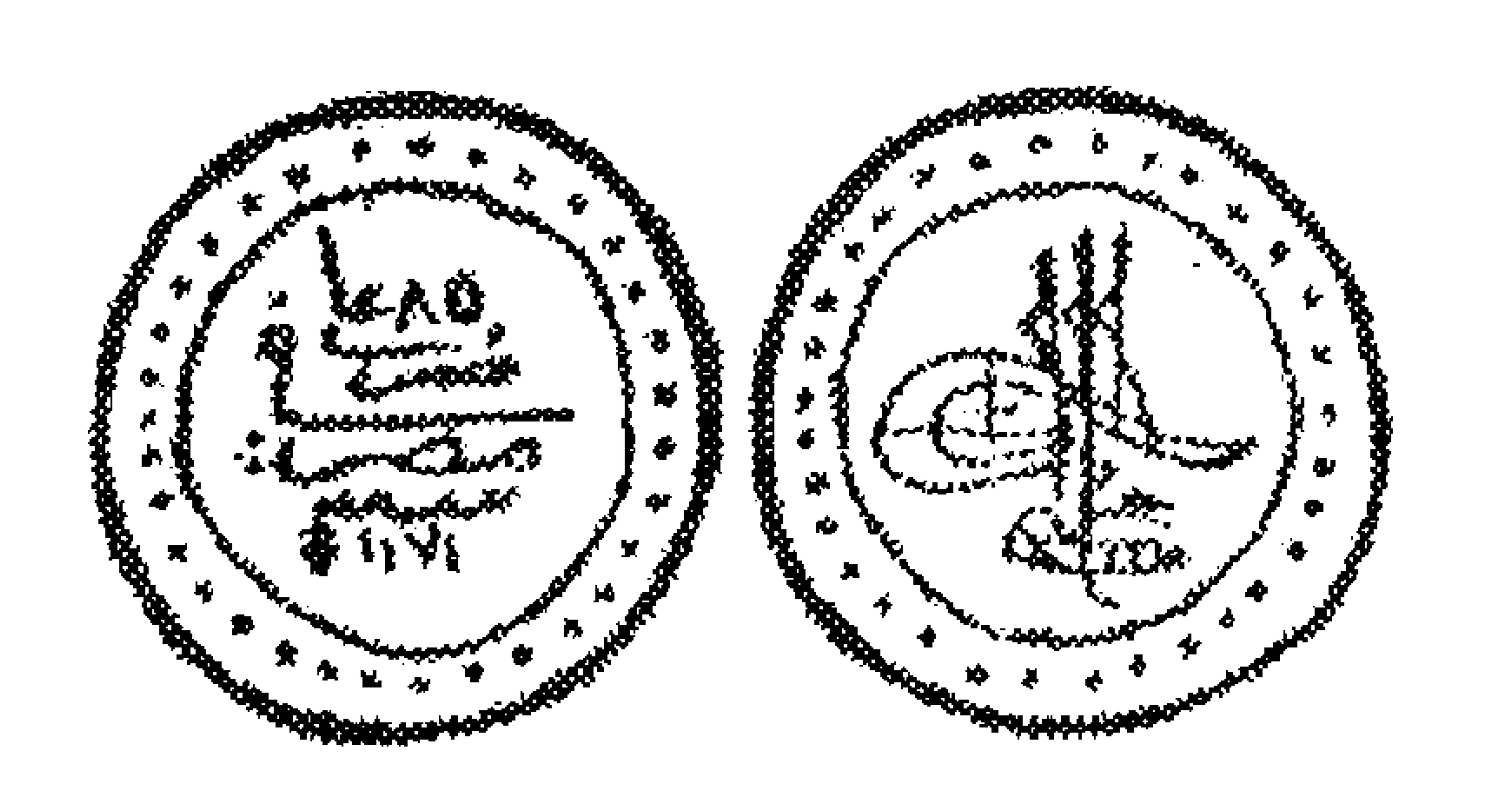
وكانت القيمة السائرة لهذه النقود في مصر تتغير من وقت الى آخر، ولكنها على كل

حال كانت أزيد من قيمتها السائرة في الخارج، وليس لدينا بيان عن قيمتها في عهد على بك[١٥].

والتعديل الذى أحدثه على بك فى العملة المحلية تناول عيار سبيكتها ونقشها، فانه اراد أن يعيد الثقة إلى تلك العملة، فأعاد سك معظم القطع النحاسية (الجديد ومضاعفاته)، والفضية (البارة ومضاعفاتها) ـ وزاد عيار السبيكة بزيادة مقدار المعدن الاساسى فيها بمقدار الثلث تقريبا.

وعلى أحد وجهيها ابقى نقش اسم السلطان «سلطان محمد مصطفى بن أحمد خان عز نصره» بالطغراء أما الوجه الثانى فقد سجل عليه اسمه بطريقة بارعة مستخدما لذلك حرف الباء فى كلمة «ضرب» بدل حرف الياء الذى يشكل الحرف الأخير من اسمه فاصبحت تكتب هكذا ....

غير اننا نلاحظ أن السنة التى ضربت على قطع الفئات المختلفة كانت تختلف من فئة إلى أخرى: فمثلا على قطعة العشرينية (٢٠ بارة) نقش سنة ١١٨٣هـ (١٧٦٨م) سنة ضربها وهي السنة التى تولى فيها قائمقام ـ وبعد عامين أى فى سنة ١١٨٥هـ (١٧٧١م) اصدر قطعا من ذات الاربعين ميديا (القرش) ونقش عليها عام ١١٧١هـ على أنه عام



ضربها مع انه فى الواقع سنة تولى مصطفى الثالث عرش السلطنة، وفى الوقت نقش رقم ـ ٨٥ ـ اختصار سنة ١١٨٥ فوق كلمة ضرب [انظر الشكل اعلاه].

وهى السنة التى ضرب فيها تلك العملة.

والاضطراب الذى نلاحظه فى التاريخ المنقوش على العملة مرجعه الى الاضطراب الذى صادف على بك فى تحديد مركزه بازاء السلطان العثمانى .

ذكر الجبرتى ان النقود التى ضربها على بك

كانت «قروش مفرد ومجوز وقطع صغار تصرف بعشرة أنصاف وخمسة أنصاف ونصف قرش، وكان أكثرها نحاسا وعليها علامة على بك.

وقد ذكر أيضا في حوادث سنة ١٢٣٥ هـ أن أول من أحدث ذلك النوع من القروش «على بك القازدغلى بعد الثمانين وماية وألف، عندما استفحل امره واكثر من العساكر والغلمان واظهر العصيان على الدولة».

وعندما امر ابو الدهب في سنة ١٧٧٢هـ (١١٨٦)، بعد فرار على بك، بابطال العملة المضروبة باسمه فقدت تلك العملة حوالى ٣٠٪ من قيمتها، انتهز التجار الأجانب تلك الفرصة فصار يجمعها بعضهم ويرسلها الى مرسيليا حيث كانوا يحولونها الى سبائك، وجنوا من وراء ذلك أرباحا طائلة»

اما دار ضرب النقود في القلعة فقد جعلها على بك تحت اشراف المعلم رزق[١٦]. وكان يرمى من وراد ذلك إلى ثلاثة أغراض. أولها الحصول على الأرباح الناتجة من سك العملة، إذ كان صهر العملة الاجنبية وإعادة سكها انصاف فضة (بارات) يعطى ربحا صافيا ٣٠٪ ـ والغرض الثانى ضمان عيارها. اما الغرض الأخير فكان إبرازها فى نقش جديد يدل على معنى انفراده بالسلطة، وجعل دار الضرب تحت اشرافه مكنه من سك اى مبلغ يحتاجه منها.

السياسة المالية وإدارة الجمارك

العامل الأساسى الذى وجه على بك فى سياسته المالية كانت حاجته الملحة الى المال للصرف على الحرب والأعمال الداخلية من تجريدات وجوامك عمال الحكومة. أما اهم القواعد التى أقام عليها تلك سياسة كانت: الاستيلاء على عوائد الباشا وأوقاف الدولة والخزنة، ثم ترويج التجارة.

وكان أول ما بدأ على بك ان منع ارسال «الخزنة» السنوية الى الاستانة ابتداء من سنة ١٧٦٩ وفى خلال اعوام ١٧٧٠، ١٧٧٢، فحصل بذلك على مبالغ لا يستهان بها[١٧].

يعنى ذلك انه حصل على نحو ١٧٦٦ كيسا مصريا يساوى ٤٤,١٥٠,٠٠٠ باره بمتوسط ٤٤١,٥ كيسا فى السنة[١٨].

ثم وضع يده على موارد الباشا المالية من إيرادات وعوائد أخصها مال جمرك البهار وعوائد على دخل دواوين (جمارك) الاسكندرية ورشيد ودمياط وبولاق ومصر العتيقة، وعوائد امين البحرين وامين الخردة وحلوان التزام البلاد التى يتوفى عنها اصحابها. كما انه ادار دار الضرب لحسابه

مباشرة [١٩] وتنظر على أوقاف دار السعادة.
ولجأ على بك الى التشديد فى جمع الضرائب المقررة من ميرى وعوائد مختلفة ثم فرض بعض الرسوم الجديدة.
ومن بين الرسوم التى استحدثها على بك رسوم «دفن الموتى» تدفع عند ابواب المدافن.
ثم انه كان يضغط على الاغنياء عن طرق المصادرات او فرض المغارم، كما فعل مع يوسف ليفى معلم دواوين الاسكندرية (جمارك الاسكندرية ورشيد وابو قير) واسحق اليهودى معلم الديوان ببولاق. فقد قبض على الاخير وصادره فى ٤٠ ألف محبوب وضربه حتى مات. وكان يفرض على القبط واليهود عموما آلاف الريالات[٢٠].
ذكر الجبرتى انه صادر كثيرا من التجار وغيرهم وأنه «هو الذى ابتدع المصادرات وسلب الاموال من مبادئ - بدء ظهوره واقتدى به من بعده».
اما مع الاجانب فقد اتبع سياسة القروض الاجبارية، يردها احيانا ويحتفظ بها غالبا.
ثم أنا نلاحظ أن الدفتر دار وهو رئيس الديوان الدفترى، والرزنامجى رئيس ديوان الروزنامة، وهما رأس الإدارة المالية، لم يكن لهما من الشهرة او النفوذ فى عهد على بك قدر ما كان للمعلم رزق القبطى الذى شغل الى جانب على بك مركز المستشار المالى بفضل معلوماته المالية والفلكية.
اما إدارة الدواوين (الجمارك) فقد صادفت تغييرا هاما. كان بمصر أربعة منها، وهى جمرك الاسكندرية ويتبعه جمركا رشيد وابو قير للتجارة القادمة من اوروبا وجمرك دمياط للتجارة الآتية من الشام، وجمرك بولاق للبضائع ، الآتية من الوجه البحرى ويتبعه جمرك مصر العتيقة للبضائع الواردة من الصعيد، والرابع جمرك البهار (شرقى القاهرة فى طريق السويس) للتجارة الواردة عن طريق البحر الأحمر. وكان إيراد الجمارك الثلاثة الأولى يعطى «موجبات» لفرقة اليكيجرية اما إيراد جمرك البهار فكان من حق الباشا، كما كانت رسوم الدواوين تباع عن طريق ديوان الروزنامة الى الملتزمين، وهؤلاء يعهدون بادارة كل منها الى مدير بأسم «جمركى أو امين الجمرك أو معلم الديوان».
والتغيير الذى أحدثه على بك كان فى الفئة التى تتولى إدارة الجمارك إذا كان هؤلاء من اليهود ثبتت أقدامهم فى تلك المراكز بما اكتسبوه من خبرة بمضى الزمن، ولكنهم تغالوا فى فرض رسوم غير محتملة على التجار الاجانب انفردوا بها لحسابهم الخاص ولما كانت سياسة على بك المالية تقوم من

ناحية على ترويج التجارة، فقد قبض على معلم دواوين الاسكندرية يوسف ليفي، ومعلم دواوين بولاق اسحق اليهودى وصادر اموالهما وأعد مهما وعزل بقية معلمى الدواوين من اليهود، وعهد بالأشراف على ادارتها الى رجال من السوريين المسيحيين الكاثوليك، ولعل هذا رابع الى اصوله الكاثوليكية. وكان السوريون قد تسرب بعضهم بالهجرة الى مصر يزاولون التجارة بعد ان شجعهم حزم على بك وعدله وتسامحه الدينى.

وكان اول هؤلاء السوريين من معلمى الجمارك «المعلم ميخائيل فرحات ثم المعلم ميخائيل الجمل ثم المعلم يوسف بيطار.

وقد سمح هذا المركز للسوريين، الذين جاءوا الى مصر قليلين ضعفاء أن يتمكنوا منها فى وقت قصير ويتخذوا لهم فيها مركزا محترما عاليا. وتكاثروا حتى بلغ عددهم فى أواخر حكم على بك فى القاهرة وحدها نحو ثلاثة الاف شخص.

ثم توسعوا فى التجارة الداخلية وبعض فروع التجارة الخارجية «واستقلوا بها ولم تستطع الجالية الافرنجية مع ما كان لها من النفوذ، ولا اليهودية مع ما كان لها من الدهاء ان تستردها منهم..» وهكذا نجد بواكير الهجرات السورية الى مصر فى عهد على بك الكبير وبتشجيعه.

ويغلب على الظن ان على بك لم يتبع سياسة الالتزام فيما يختص بالجمارك بل ادارها لحسابه هو فحصل بذلك على مالا يقل عن ثلاثة وعشرين مليونا من البارات كل سنة (وقد رأينا أن نذكر فيما يلى ثلاثة امثلة لالتزام الجمارك مستخرجة من السجلات الرسمية لذلك العهد.

(أ) الأول فى سنة ١١٧٥ أى فى عهد على بك بشياخة البلد.

(ب) والثانى سنة ١١٨١ (١٧٦٧) قبيل انفراده بالحكم.

(جـ) والثالث سنة ١١٨٥ (١٧٧١) فى أواخر عهده

وقد استخرجناها من الدفاتر الثلاث الاتية على التوالى:

(أ) دفتر اصول اسكلها ومقاطعات مع مضاف جديد واجب سنة ١١٧٥ تابع قلم شهر رقم ٣٠/٢٥.

(ب) دفتر يتضمن مال إيرادات الجمارك يخص المحاسبة سنة ١١٨١ رقم ٣٠/٣٤.

(جـ) دفتر عن ايرادات مال الجمارك سنة ١١٨٥ رقم ٣٠/٤٥.

١ ـ مقاطعة اسكلهاء اسكندرية ورشيد وتوابعها مع تعريف مراكب ورسم جلود

بقرى وجاموس بندر رشيد.

(أ) أى عن سنة ١١٧٥ در عـهـده (اى فى عهده) مصطفى كتخدا مستحفظان ملتزم بود (بنفسه).

٥,٤٠٥,٧٠٥ بارة

(ب) اى عن سنة ١١٨١ - در عهده (لم يذكر)

٥,٤٠٤,٦٦٨ بارة

(جـ) اى عن سنة ١١٨٥ - در عهده (لم يذكر)

٥,٤٠٤,٦٦٨ بارة

٢ ـ مقاطعة اسكله بولاق ومصر قديم وتوابعها.

(أ) در عهـده مصطفى كتخدا مستحفظان باش اختيار ملتزم بود

٣,٥١٦,٣١٦ بارة.

(ب) در عهده مصطفى كتخدا (لم يذكر)

٣,٥١٩,٤٣٦ بارة

(جـ) در عهده مصطفى كتخدا (لم يذكر)

١,٥٦٤,٥٣٠ بارة

٣ ـ مقاطعة اسكله دمياط وتوابعها

(أ) در عـهـده مـصطفى كـتـخـدا باش اختيار مستحفظان ملتزم بود

١,٥٠٤,٣٥٦ بارة

(ب) در عهده مصطفى كتخدا باش (لم يذكر)

١,٥٦٤,٥٣٠ بارة

(جـ) در عهده مصطفى كتخدا باش (لم يذكر)

١,٥٦٤,٥٣٠ بارة.

٤ ـ مقاطعة اسكله برلس

١ ـ در عهده محمد وسليمان عبد الله تابعا اسماعيل ١٢ ط وعبد الله تابع عبد الله جوربجى مستحفظان ٦ط ومحمد سعيد تابع عبدالله ٣ ط ومحمد بدوى تابع عبد الله ٣ط ملتزمين بود

١٣٨,٣٨٣ بارة

(ب) در عهده مصطفى عبدالله تابع محمد ٨ ط ومحرم عبد الله تابع محمد ٤ ط وعثمان عبد الله تابع محمد ٨ ط ونعمان محمد تابع محمد ٤ ط

٤١٢,١٤١ بارة

(جـ) در عـهـده ... (لم يذكر)

٤١,٤٤١ بارة

٥ ـ مقاطعة عشور اصناف بهار وتوابعها ، وسمسارية بهار وتوابعها ، مع مقاطعة قصير.

(أ) در عهـده دستور مكرم مشير مفخم حضرة وزير مصطفى باشا

٤٤٢,٩٢٤١ بارة سنويا.

(ب) در عهده دستور مكرم مشير مفخم حضرة وزير افخم محمد باشا

محافظ مصر حالا.

(جـ) در عهده .... (لم يذكر) محافظ مصر حالا.

٦ ـ مقاطعة سمسارية بحرين وتوابعها مع مقاطعة بحرين وتعريف مراكب وسمسارية بذر قرطم وغيره.

(أ) در عهده حسن كتخدا عزبان باش اختيار مشهدى ٦٣٤,٤٣٢ بارة

(ب) در عهده ..... (لم يذكر) ٨٣٧,٣٠٠٠ بارة

(جـ) در عهده ... (لم يذكر) ٨٣٧,٣٠٠ بارة

٧ ـ مقاطعة خردة وتوابعها مع بيت المال عام تاج بازاراسب (أى سوق بيع الخيل).

(أ) در عهده حسن كتخدا باش اختيار عزبان مشهدى

٦٨١,٦٣٧ بارة

(ب) در عهده .... (لم يذكر) ٦٨١,٦٣٧ بارة

(جـ) در عهده .... (لم يذكر) ٦٨١,٦٣٧ بارة

٨ ـ مقاطعة كيالة أورز بياض در دمياط.

(وردت فقط بدفتر سنة ١١٨٥ رقم ٣٠/٤٤) در عهده مصطفى نام عزبان ٢ط وعلى نام ٢ ط واسماعيل عبد الله تابع كاتب يك ط وبلال أغا عبد الله يك ط وعبد الله جلبى ولدش ٢ط وعلى عبد الله تابع حاج على سقا يك ط وأحمد حسن ٤ط وبشير عبدالله تابع محمد شراقوه أحمد ٢ ط وكورجى سن

ابراهيم عبد الله اباظة ٢ط وسليمن عبد الله شراقوه عزبان تابع على بك مير الحاج سابقا ٣ط وبلال اغا تابع عثمان ٢ط،

١٥٤,٤٩٠ بارة سنويا.

٩ ـ مقاطعة حمام خاصة داراندرون (معسكر) قلعة مصر.

(أ) در عهده عبد الحليم أحمد ط٧ وسيد أحمد ط ٣ وعلى بن عبد الله تابع سليمان جلبى ط ٧ وحسن جلبى يروجه اشتراك ٤ط وثلثاى ط ومحمد محمد جاوشان قافطنجى ٢ط وثلث ط ملتزمين بود

١٢,٦٨٥ بارة سنويا.

(ب) در عهده عبد الحليم احمد ٧ط وسيد أحمد محمد ٣ط وحسن جلبى ٢ط وثلث ط ومحمد محمد جاوشان

قافطنجى ٢ط وثلث ط وعمر ولد ش وأحمد ولدش على بروجه اشتراك ٧ط ومحمد ولد ش وحسين جلبى ٢ ط وثلث ط ١٢,٦٨٥ بارة.

(جـ) در عهده محمد محمد جاوشان قافطنجى وجوهر اغا تابع محمد جوربجى تفنكجيان نجده لى
١٢,٦٥٤ بارة.

١٠ ـ مقاطعة بحيرة سمك دربندر دمياط.

(أ) در عهده محمد أغا أغاء قلعة دمياط ٤٤,٧٨٣ بارة.

(ب) در عهدة عثمان أغا أغاء قلعة دمياط
٤٤,٧٨٣ بارة

(جـ) در عهده .... (لم يذكر)
٤٤,٧٨٣ بارة.

١١ ـ مقاطعة محصول مال احتساب نفس محروسة مصر.

(أ) در عهده محمد أغا امين احتساب
١٩٧,٩٧٣ بارة.

(ب) در عهده اسماعيل اغا أغاء جاوشان امين احتساب ١٩٧,٩٧٣ بارة .

(جـ) در عهده ... (لم يذكر)
١٩٧,٩٧٣ بارة .

١٢ ـ مقاطعة مال حماية اورزميرى عن جانب امين دمياط وملتزمين فارسكور .

(أ) در عهده خليل بك ميراللوا قازدغلى دفتردار مصر حالا ٥٤٠٨٠.بارة .

(ب) در عهده شيخ عبد الله ١٠٤٠ بارة

(جـ) در عهده ..(لم يذكر) ١٠٤٠ بارة.

١٣ ـ مقاطعة مال حماية كتابت كمرك اسكلها بولاق:

(أ) در عهده اسحق ويوسف باشكاتب ملتزمين ١٠٤٠ بارة سنويا.

(ب) در عهده اسحق ويوسف باشكاتب ملتزمين ١٠٤٠ بارة سنويا.

(جـ) در عهده .. (لم يذكر)١٠٤٠ بارة سنويا.

١٤ ـ مقاطعة مباشرت كتابت عشور أصناف بهار

(أ) در عهده قاضى موسى محمد يوسف التزام
٤٠٥,٦٠٢ بارة سنويا.

(ب) در عهده على نام ولد ش ٦ط وحسن موسى ولد ش ٦ط وعبده مصطفى ومصطفى دياب نكدلى ويوسف باقر وحسن محرم بروجه اشتراك
٤٠٥,٦٠٣ بارة سنويا.

(جـ) در عهده ..... (لم يذكر)
٣٠٥,٦٠٣ بارة سنويا.

ومايمكن استخلاصه من هذه السجلات يتناول موضوعات كثيرة. اما ما يخص

الجمارك منها فهو ما يلاحظ من عدم وجود ملتزمين لسنة ١١٨٥، ومعنى ذلك أن على بك أدار الجمارك لحسابه الخاص واستوالى على اموالها فحصل على ما يزيد على ثلاثة وعشرين مليونا من البارات سنويا ابتداء من سنة ١١٨٢ (١٧٦٨). ويدخل فى ذلك ايضا حرمان اوجاقات الحامية من اهم موارد ثروتهم ونفوذهم بمعنهم من التزام الجمارك كما حرم على العناصر غير المرغوب فيها منهم التزام الاراضى من قبل.

هذا ولا تفوتنا ملاحظة هامة وهى ان (مقاطعة مال حماية كتابت كمرك اسكلها بولاق) كانت لليهود حتى نكل بهم على بك واستبدل بهم المسيحيين من السوريين، وبذا جاء حساب سنة ١١٨٥ خلوا منهم كما هو مبين بالثبت السابق.

كما نلاحظ أن على بك كان يدفع باتباعه الى نواحى النشاط الحكومى المختلفة كما حدث عند اشراك تابعه سليمان عبد الله شراقوه عزبان فى التزام مقاطعة كيالة اورزبياض بندر دمياط وباشراكه فى اوجاق عزبان ايضا، وكما فعل فى اول عهده بداود اليهودى وهو من خدامه اذا استصدر فرمانا من الباشا بتعيينه كاتبا بالضربخانة، وذلك قبل طرده اليهود من الجمارك[٢١].

الجيش

والتغير الذى احدثه على بك فى الهيئة الحربية كان تغييرا طفيفا، ولكنه لم يعد يعتمد اعتمادا كبيرا على الأوجاقات العثمانية كهيئة حربية ابتداء من سنة (١٧٦٩ = ١١٨٣هـ).

وقد اشرنا من قبل الى انه فى سبيل تدعيم مركزه أراد أن يقضى على نفوذ الأوجاقات العثمانية، حتى يأمن جانبها ويقبض بذلك على عصب الديوان. واتبع فى سبيل ذلك عدة طرق كان أخصها اهلاك بعضهم فى الحروب الداخلية كما فعل عندما وجه الفرق لقتال كشكش بك قرب سمنود،و منها نفى كبار ضباطها ومصادرة اموال غيرهم أو اعدامهم، ومنها ايضا منع العناصر غير المرغوب فيها من بين ضباطها من التزام الأراضى. ولما كان معظم رجالها من التجار مستغلين انتمائهم لها، ولما كان استقرار الامن وسيادة العدل فى عصر على بك يحولان دون تحقيق تلك الأغراض غير الشرعية فقد انفصل عن الفرق معظم رجالها[٢٢].

ونحن إذا نقرر هنا أن على بك اتبع مختلف الأساليب لإضعاف الحامية العثمانية، لا يمكننا أن نجزم بأنها ألغت أو حلت فى عهده كما

يدعى المؤرخون فان وثائق العصر تدلنا على انه، وان لم تكن الأوجاقات فى عهده هيئات قوية منظمة، فانها كانت موجودة على كل حال. وقد ثبت لنا من دراسة دفاتر الجراية والعليق سنة ١١٧٤» ان اغوات فرق الكوكلويان والتفنكجيان والجراكسة والمستحفظان والعزبان كانوا يتقاضون جراية وعليقا على النحو الآتى[23] :

١ ـ [illegible] ح ١٢ ط ١٤ ـ ش اردب ٢٩ ط ٢١ (أى ١٣ اردب حنطة و ١٤ قيراط ٢٩ اردب شعير و٢١ قيراطا)

٢ ـ أغاء تفنكجيان ح ١٣ ط ١٤ ش اردب ٢٩ ط ٢١

٣ ـ أغاء جراكسة ح٨ ش اردب ١٢

٤ ـ اغاء مستحفظان ح ٨ ش اردب ١٢

٥ ـ اغاء عزبان ح١٠ ش اردب ١٠ـ كل ثلاثة شهور

ثم أن دفاتر «مرتبات دباغ خانة لسنة ١١٨٥ تشير الى وجود فرقة جاوشان ومرتباتها وجرايتها على النحو الآتى[24].

«مسموح مرتب خانة جاوشان»

فى يوم عدد ٦ فية باره ٣٢٠

فى شهر بارة ٩٦٠٠

فى سنة بارة ١١٥٢٠٠

جلود عدد ١٨٠ منها جاموس ١٣٥ عددها ٤٥ عددها ٤٥ اسقاط ١٨٠. كما أن دفاتر الجراية والعليق لسنة ١١٨٦ هـ (١٧٧٢) تشير إلى وجود امراء الجراكسة وفرقة عزبان[25].

هذا وقد عثرنا على دفاتر مرتبات عساكر القلاع كاملة فى العصر السابق لعلى بك وفى أثناد عصره. وبالمقارنة بينهما وجدنا أن على بك ترك كل شيء على مما كان عليه، فلم يغير فى عدد الحراس أو اشخاصهم أو رواتبهم أو نظام دفع تلك الرواتب.

كما انه لم يزد عدد القلاع. وهذا لا يتعارض مع قول الجبرتى بانه حصنها وخاصة قلعتى الاسكندرية ودمياط.

والاختلاف الوحيد الذى لاحظناه يعنى تعديلا هاما مقصودا وهو احلال حامية من المستحفظان محل حامية العزبان التى كانت مختصة بحراسة ترسانة اسكندرية وقد نص فى الدفتر على ذلك التغيير نصا صريحا. وهذا يعنى بلا شك وثوق على بك باوجاق مستحفظان وشكه فى اخلاص العزبان.

وفيما يلى ثبت بهذه القلاع وعدد حراسها

ومرتباتهم في عامى ١١٨١ هـ نقلا عن «دفتر مرتبات مردان القلاع التابعة لمحروسة مصر ١١٧١ رقم ١١٦ /٥٥ مخزن تركى» .. وفى عام ١١٨٥ نقلا عن «دفتر ارقام قلاع در توابع محروسة مصر واجب ١١٨٥ رقم ٥٥/١٣٢ تركى».

١ ـ قلعة اسكندرية

	سنة	العدد	المرتبات اليومى	
(أ)	١١٨١	٤ ٤٥	١٩٩٨	عثمانى
(ب)	١١٨٥	٤٥٥	١٩٩٦	عثمانى

٢ ـ جماعة ترسان عزبان اسكندرية ومتفرقة ترسانة عزبان

	سنة	العدد	المرتب السنوى	
(أ)	١٨ ٨١	٣٣٣	١٦٥٨	عثمانى نقرة

(ب) جماعة ترسانة مستحفظان اسكندرية امد عن عزبان (أى بدلا من عزبان)

	١١٨٥	١٣٨	١٤٨٤	نقرة

العثمانى = ٢/١ بارة، النقرة = ٢/١ عثمانى

٣ ـ جماعة مردان قلعة برج مصطفى باشا.

	السنة	العدد	المرتب السنوى	
(أ)	١١٨١	٩٧	٢٧١	عثمانى
(ب)	١١٨٥	٩٧	٢٧١	عثمانى

٤ ـ جماعة مردان قلعة ركن اسكندرية

(أ)	٢١٦	٧٤٤	عثمانى
(ب)	٢١٧	٧٤٤	عثمانى

٥ ـ جماعة مردان قلعة ابو قير

(أ)	١٤٣	٦٤٩	عثمانى
(ب)	١٤٣	٦٤٩	عثمانى

٦ ـ جماعة مردان قعلة رشيد

(أ)	٢٠٣	٤٤٥	عثمانى
(ب)	٢٠٥	٤٤٥	عثمانى

٧ ـ جماعت مردان قلعة صارى أحمد

(أ)	١٢١	٣٠٣	عثمانى
(ب)	١٢١	٣٠٢	عثمانى

٨ ـ جماعة مردان قلعة البرلس

(أ)	٢٠٠	٤٥٩	عثمانى
(ب)	١٢١	٤٥٩	عثمانى

٩ ـ جماع مردان قلعة دمياط:

(أ)	١١٨١	١٠٩	٤٢٠	عثمانى
(ب)	١١٨٥	١٠٩	٣٢٠	عثمانى

١٠ ـ جماعت مردان قلعة عبد الصمد:

(أ)	٨٢	٣٧٤	عثمانى
(ب)	٨١	٣٨٤	عثمانى

١١ ـ جماع مردان قلعة التينة:

	العدد	المرتب اليومى	
(أ)	١٢٢	٤٥٠	عثمانى
(ب)	١٢٢	٤٥٠	عثمانى

١٢ ـ جماعة مردان قلعة عريش:

(أ)	١٩٥	١١٤٠	عثمانى

(ب) ١٦٣ ١١٤٠ عثمانى

١٣ ـ جماعات مردان خان يونس (فى الطريق إلى الشام)

(أ) ١٤٣ ١٣٨٠ عثمانى

(ب) ١٣٩ ١٢٧٠ عثمانى

١٤ ـ جماعت مردان قلعة قرين:

(أ) ٣٥ ١٤٧ عثمانى

(ب) ٣٥ ١٤٧ عثمانى

١٥ ـ جماعة مردان قلعة عجرود (فى الطريق بين القاهرة والسويس)

(أ) ٥١ ١٣١ عثمانى

(ب) ٥٦ ١٣١ عثمانى

١٦ ـ جماعت مردان قلعة السويس:

(أ) ١١٨١ ٥٣ ١٧٠ عثمانى

(ب) ١١٨٥ ٥٣ ١٧٠ عثمانى

١٧ ـ جماعت مردان قلعة طور مبارك:

(أ) ٢١ ١٤٣ عثمانى

(ب) ٢١ ١٤٣ عثمانى

١٨ ـ جماعت مردان قلعة مويلح:

(أ) ٥٤ ٣٢٨ عثمانى

(ب) ٥٤ ٣٢٩ عثمانى

١٩ ـ جماعت مردان قلعة قصير الشامى:

(أ) ٦٧ ٦٠٢ عثمانى

(ب) ٦٧ ٦٠٢ عثمانى

٢٠ ـ جماعت مردان قلعة اسوان:

(أ) ٨٨ ٧٨٣ عثمانى

(ب) ٨٨ ٧٨٣ عثمانى

٢١ ـ جماعت مردان قلعت ابريم:

(أ) ٥٥ ٣٨٥ عثمانى

(ب) ٥٦ ٣٨٥ عثمانى

٢٢ ـ جماعت مردان قلعة ساى (فى الطريق بين قنا والقصير)

(أ) ٩١ ٦٧٢ عثمانى

(ب) ٩٣ ٦٧٢٣ عثمانى

وفى نفس الوقت كان على بك يكون جيشا كبيرا يعده لحركات الداخل ضد المنافسين والاعراب. ولمشروعات الخارج من فتوح وامدادات.

وقد كون جيشه الجديد من قسمين: الاول قوامه الفرق المملوكية الراكبة، عدتها حوالى ستة آلاف مملوك مدرب عدا تابعيهم من الخدم وغيرهم للتشهيل وخدمة الخيول. اما القسم الثانى فكان من المرتزقة منقسم الى فرق متجانسة: منهم الاتراك والشوام والمغاربة والمتاولة والدروز والعرب الحضارمة والعرب اليمانية والاحباش والدلاة، ولا يقلون فى مجموعهم عن الاثنى عشر الفا.

اما السلاح فكان لا يتعدى السيف، والغدارة «القرابينة» والرماح مع بعض البنادق العتيقة الطراز، ومدافع الحصار الصغيرة الحجم.

واما عن حركة تسيير الجيوش وإدارة دفة المعركة فلم تكن تتسم بشيء كثير من النظام. ولكن نظام التموين الحربي كان وافيا بالغرض منه. ويظهر ان على بك وحد زى مماليكه، فقد كتب الجبرتي يقول ان على بك البس سراجينه قواويق فتلى (بالفاء) من جوخ اصفر تمييزا لهم عن غيرهم من سراجين امرائه.

ورغم ماتقدم فانا نلمس فى عهد على بك اتجاها جديدا فى الفن الحربى المصرى هو الاهتمام بفنون الحصار والمدفعية وخاصة مدافع الحصار، كما تبينت اهمية الاسطول البحرى فى العمليات المشتركة بين البر والبحر. يظهر ذلك فى حصار يافا ، كما يظهر فى رغبة على بك فى التحالف مع روسيا والحاحه فى طلب مدافع الحصار وضباط اكفاء لاستعمالها، مما سيكون له اثر ينمو على طول الزمن فى العصور التالية.

حملة علي بك الكبير علي الحجاز

منذ ان استقر الحكم العثمانى بمصر، وامارة مكة تعانى تنافسا ليس له نظير ولم يكن ذلك راجعا فقط الى ما اشتهر به العرب من حب التنافس على الرياسة، ولكنه يرجع ايضا الى ما صادفه اولئك المتنافسون من تشجيع اصحاب السلطان فى الخارج، اذ كانت امور مكة دوما موضع تدخل حكام مصر والشام واليمن، وفيها كان يتصادم نفوذ اولئك جميعا. فكان لكل منهم منافس يناصره فى توليه الشرافة ، وربما كان من بين الاسباب التى جعلت كلا من الشام واليمن يحقدان على مصر انفرادها بارسال المحمل السنوى.

وفى رأينا ان المنازعات المحلية بين الاشراف بمكة كانت تمثل فى الواقع تنافسا خارجيا بين مصر والشام واليمن. وقد تعودت مصر ان يكون لها الفوز فى تلك الحلبة، ساعدها على ذلك عدة عوامل لا يصح اغفالها جعلت لها مركزا ممتازا لا يضاهيه مركز بلد حتى الآن.

فاذا قدرنا اهمية سعى آلاف الحجاج المصريين الى مكة كل عام مع المحمل المصرى، يبذلون المال والزاد لاهل الحرمين، وجلهم من الفقراء، ومئات الحجيج من بلاد المغرب وغيرها الذين يصطحبون الحجاج المصريين لمكة فى موسم الحج، لتبين لنا اهمية مركز مصر هناك. اذ ان الحجاج ، لمكة خصوصا والحجاز عموما ، كالغيث للأرض المنزرعة وقد غاض عنها الماء فهم حياة أهلها وداعية النشاط والرخاء فيها ومصر بما لها من ثروة، وما بها من خير كانت اقدر من غيرها على التأثير فى حياة

الحجاز الاقتصادية.

ورغم مئات الاميال العديدة التى تفصل القاهرة عن مكة نجد ان الحاجز الوحيد الذى يفصل بين القطر المصرى وبلاد الحجاز لا يتعدى البحر الاحمر الضيق، الذى لم يكن فى ذلك الوقت سوى بحيرة ضيقة المخرج من جهة الجنوب. لذا كانت كل موجه من احداث الحجاز السياسية يتردد صداها فى مصر، ويظهر مداها فى ولاية مكة. ولم يكن يستنكف الشريف منهم ان يفر الى صاحب النفوذ بمصر يسأله العون لاسترجاع الشرافة او اغتصابها من صاحبها.

ولما كانت الدولة العثمانية، وهى صاحبة السيادة الشرعية على البلاد، فى حال لا تسمح لها بالتدخل فى امور شرافة مكة، لكثرة ما بلغ بها التدهور من ضعف والاضمحلال من عجز، فقد كان والى الشام يناصر قضيتها هناك ضد تدخل بكوات مصر، الذين كانوا قد استبدوا بالسلطة، وراحو يتدخلون فى شئون مكة اعتمادا على انهم اقرب اليها من السلطان العثمانى واكثر اتصالا بها منه وتهمهم احوالها لما بين البلدين من علاقات قديمة لا يمكن فصمها.

وما كان السلطان، رغم ما به من وهن، ليحفل بالاحتفاظ بتلك الجها الفقيرة السحيقة لولا انها حافلة باغنى الذكريات الدينية، ولا سيم اشتمالها على الحرمين الشريفين الذين كان يفخر بحمايتهما، ويتخذ من ذلك ذريعة للاحتفاظ بما فى سلطنته من ولايات إسلامية.

كانت النزعات بين اشراف مكة قد انتهت بهروب الشريف عبد الله الى مصر طالبا المساعدة من على بك فاتخذ تلك الحادثة سببا مباشرا للحملة التى كان غرضها الظاهرى مساعدة الشريف عبد الله. بينما كان غرضه الحقيقى منها تعيين شريف لمكة يخلص لمصلحته، ويضمن بطاعته ولاء ذلك الجزء الهام من العالم الاسلامى. إذا ان وجود شريف فى مكة من صنائع الدولة العثمانية كان مثارا لمتاعب جمة قد تؤدى الى فساد امر الحج، وسخط الحجاج من مصر والشرق، وتضعف من مركزه فى مصر اذا اقترن وجوده فى الحكم بتلك المتاعب. فتعيين شريف من صنائعه كان عاملا اساسيا فى مصر أساسيا فى نظره يضمن به هدوء الأحوال ويدخل فى أغراضه ايضا الشهرة التى يحوزها بحمايته للحرمين الشريفين وما كان سيفيده من نفوذ فى مصر، وهيبة فى بلاد المغرب والسودان وبلاد الشام وما يليها بتأمين الحج للمسلمين.

ولم تكن تلك الاطماع السياسية غايته

الوحيدة، بل كان يرمى من وراء ذلك كله الى مشروع اقتصادى خطير شجعه عليه التاجر البندقي «كارلو روستى» ، وهو ان يؤمن الشواطئ الشرقية للبحر الاحمر فيصبح في قبضته ممرا امين لتجارة الشرق فى طريقها الى مصر، ثم يجعل من جدة ، الميناء التجارى ذات الشهرة الواسعة حينئذ، مستودعا وسطا لتجارة الهند والشرق الأقصى يساعد ميناء السويس التى كانت ستقوم فى هذا المشروع بتجارة المرور ويتبع ذلك اضعاف الاقبال على استعمال الطريق الذى استحدثه فاسكو داجاما واحدث انقلابا خطيرا في طرق النقل البحرى بين الشرق والغرب، وأثرا تأثيرا سيئا فى المالية المصرية. ولعل اكبر دليل على صدق ما ذهبنا اليه ان الحملة المصرية بعد ان امنت طريق الحج واقامت االشريف عبد الله الموالى لعلى بك جلت عن الحجاز جميعه، ولم تحتفظ سوى بحكم جدة حيث عينت حسن بك الجداوى صنجقا، وابقت معه حامية صغيرة، كما اهتمت بتنظيم الجمرك كما سنذكر ذلك في موضعه.

ذكر الجبرتى فى معرض الكلام عن حوادث سنة ١١٨٤هـ ١٧٦٩م رواية تحتاج الى تصحيح قال «فيها (أى فى ١١٨٤هـ) ورد على على بك الشريف عبد الله من اشراف مكة وكان من امره انه وقع بينه وبين ابن عمه الشريف احمد اخى الشريف مساعد منازعة في امارة مكة بعد وفاة الشريف مساعد فتغلب عليه الشريف احمد واستقل بالامارة وخرج الشريف عبد الله هاربا وذهب الى ملك الروم واستنجد به فكتب له مكاتبات لعلى بك بالمعونة والوصية والقيام معه وحضر الى مصر بتلك المكاتبات في السنة الماضية...»

وإيراد المسألة على تلك الصورة يحتمل اخطاء تاريخية: أولها انه جعل وفاة الشريف مساعد فى ١١٨٣ والواقع ان الشريف مساعد توفى فى يوم الاربعاء لثلاث بقين من شهر المحرم سنة اربع وثمانية ومائة والف وكانت ولايته تسع عشر سنة الا ثلاثة اشهر»[٢٧].

ثم عاد فذكر انه وقع بين الشريف عبد الله وابن عمه الشريف احمد اخي الشريف مساعد منازعة فى امارة مكة بعد وفاة الشريف مساعد، فاستنجد عبد الله بملك الروم الذى اوصى به على بك.

وهذه الرواية تحتمل غموضا يؤدى الى الخطأ، فقد وقع تنافس حقا على امارة مكة بين الشريفين احمد وعبد الله ولكنه ليس عبدالله الذى يقصده فان هذا تولى الشرافة فعلا ولم يحضر الى مصر، وانما الذى استعان بعلى بك هو ابن عمه عبد الله بن حسن من آل بركات.

ومجمل ما حدث انه بعد عودة المحمل المصرى صحبة ابى الذهب عام ١١٨٣ هـ ثم انتصار الشريف مساعد على عبد الله بن حسن ففر هذا عقب الصلح الى على بك يستنجده للمرة الثانية. وبينما كان على بك يعد الحملة توفى الشريف مساعد قبل وصول الحملة المصرية الى بلاد العرب فى المحرم ١١٨٤هـ (١٧٦٩م). وكان قد عقد البيعة لأخيه الشريف عبد الله بن سعيد. فما كاد عبد الله هذا يتولى الشرافة حتى نازعه اخوه الشرف احمد بن سعيد . فنزل له عن الشرافة وقلده اياها ١١٨٤، وهكذا قدر ان تأتى الحملة المصرية لخلع الشريف مساعد فلا تجده فتضطر فيما بعد الى خلع الشريف احمد.

وقد انفرد الجبرتى بذكره ان الشريف عبد الله استنجد بملك الروم فكتب له مكاتبات لعلى بك بالمعونة والوصية والقيام معه .

تجهيز الحملة المصرية:

اهتم على بك اهتماما خاصا بتجهيز الحملة فاتم استعدادها، ووفر لها ما تحتاجه من ذخيرة وعتاد ومؤن. يقول الجبرتى فى ذلك «واستكتب اصناف العساكر ، اتراكا ومغاربة وشواما ومتاولة ودروزا وحضارمة ويمانية وسودانا وحبوشا ودلاة وغير ذلك: وخرجت التجريدة فى شهر صفر بعد دخول الحجاج فى تجمل زايد ومهيا عظيم صارى عسكرها محمد بك ابو الدهب وصحبته حسن بك ومصطفى بك[٢٨] » وذكر صاحب خلاصة الكلام انه كان بالحملة ثلاثة صناجق وثلاثة آلاف من العسكر وثلاثون مدفعا[٢٩].

وهاتان الروايتان تشيران الى امرين مهمين : أولهما خروج الحملة فى وقت غير اوقات الحج كما كانت العادة، كما ان ذكر اسماء القواد وهم اميز من كان لدى على بك فى ذلك الحين يدلنا على ما كان يعلقه من اهمية على نجاح اولى حملاته الخارجية.

دخل ابو الدهب مكة ونزل بدار الحكم وكانت تسمى «دار السعادة»[٣٠] . ثم تولى الشرافة عبد الله بن حسين بن يحيى بن بركات. ويقال ان الشريف عبد الله تأثر كثيرا لما اظهره نحوه على بك وابو الدهب من عطف ومعونة فأطلق على على بك لقب «سلطان مصر وخاقان «البحرين» اعترافا منه بما له عليه من فضل.

غير ان الشريف السابق لم يرض بما حدث، فجمع بعض العربان وقصد الطائف فدخلها دون قتال واغتصبها من الشريف عبد الكريم بن حسين اخى شريف مكة. ثم تقدم احمد يريد مكة واناخ بعرفة وتحصن هناك. ولكن ابا

الذهب فاجأه بها واضطره الى طلب الصلح بعد قتال شديد فتخلى عن الولاية للمرة الثانية والأخيرة.

وفى اثناء ذلك تقدم حسن بك شبكة الصنجق المصرى على رأس فرقة الى جدة وتملكها باسم على بك، ثم حكمها بدل الباشا الذى كان يتولاها من طرف السلطان(٣١).

ولم اتم القواد ما امرهم به على بك بقى حسن بك بجدة وعاد ابو الذهب على رأس جيشه الظافر وبصحبته اسماعيل بك الى مصر فى عشرين جمادى الاولى وكان وصولهم الى القاهرة فى اوائل رجب من السنة نفسها حيث استقبلوا استقبالا حافلا.

ومما يدعو الى الدهشة ان تلك العمليات الحربية لم تستغرق اكثر من شهر واحد، وان مدة الحملة كلها لم تستغرق اكثر من ستة اشهر بما فيها مدة الذهاب والعودة والاقامة بمكة وغيرها.

ومما لا شك فيه ان كمال المعدات الحربية وتمام استعدادات الحملة من مؤونة وذخيرة وعتاد، ووفرة جند، مع شهرة المماليك الحربية، وذكاء ابى الذهب كلها مجتمعة هى التى كسبت الحرب. كما لا يفوتنا ان نشير الى ان بلاد الحجاز كانت على اتم استعداد لاستقبال أول قادم. فوحدة القبائل العربية كانت منعدمة تماما، والمنازعات الداخلية كانت قد ارهقت القبائل فى تحزبها لشريف ضد آخر. كما انه لحسن حظ الحملة كان الجو السياسى مهيأ لنجاحها، فالشريف احمد لم يكن سوى مغتصب للولاية، ولم تكن قد مضت عليه مدة طويلة تمكنه من تثبيت نفوذه أو تنمية موارده. فلم يكن لديه ما يكفيه لنضال جيش مدرب مثل الجيش المصرى الغنى بجنده وماله وسلاحه. كما ان انقطاع المعونة الخارجية سواء من الشام أو تركيا اوجد الشريف احمد فى مركز العاجز الذى اسقط فى يده.

ولاشك فى ان انضمام فريق كبير من العرب واشرافهم إلى قضية الشريف عبدالله بن الحسين ومساعدتهم لجيش ابى الذهب جعلت النصر فى جانبهم وهكذا اجاد على بك الاستعداد واتقن ابوالذهب التنفيذ.

حملة الشام ومقدماتها

وكانت الدولة العثمانية قد اتخذت الأهبة للقضاء على الخطر المنبعث من فلسطين بسبب النزاعات المستمرة بين زعامات الشهابيين فى بلاد الدروز واخطار حركة ظاهر العمر، فعينت عثمان باشا واليا على دمشق

١٧٦٠ ، ثم ضمت إليه بيت المقدس ١٧٦٥ ، وعهدت إليه اتخاذ ما يروقه من الوسائل للقضاء على ظاهر العمر. ثم عينت ابنه محمد باشا واليا على طرابلس الشام، وابنه الثانى درويش باشا على صيدا حتى تتسق أعمالهم وتتوحد جهودهم. كما صدرت الأوامر الى والى حلب وامير الدروز بأن يكونا عونا لعثمان باشا فى كل اعماله. وحرضت أهل نابلس على مشاكسة المتاولة حلفاء ظاهر. فنشأت من ذلك كله قوة متحدة دائمة يرأسها باشوات أربعة وأمير الدروز، وتشد أزرها حاميات من ايالات حلب ودمشق وطرابلس وبيت المقدس ودروز لبنان الأقوياء.

ولم يكن لظاهر من قوة العدد او العدة ما يوازى به تلك القوة المتحدة الساحقة، ففكر فى طلب المساعدة من على بك الكبير شيخ البلد فى مصر. وكان ظاهر قد آواه ووأكرمه عندما نفى الى فلسطين فى مارس سنة ١٧٦٦م (١١٧٩هـ)، واستشف نياته فى اثناء إقامته عنده فصادف ذلك هوى فى نفس على بك.

وعندما تخلص على بك من الباشا العثمانى ١٧٦٨ فى مصر ارسل يخبر ظاهرا بالأمر، ويعرض عليه الاتحاد ضد مكايد العثمانيين واسرعت الدولة فأمرت عثمان باشا ان يبذل اقصى جهده ليحول دون تلاقى الجيشين: المصرى والفلسطينى، فعول هذا على مباغتة ظاهر فى عقر داره. وسار بجيشه حثيثا، غير ان ظاهر لم يكن بالأبله فيؤخذ على غرة. ورغم عجزة عن مقابلة تلك الجحافل بمثلها فانه ركن الى الحيلة وعزم على ان يحاربهم «بالخمر بدل السلاح» فأسرع وجمع ماينوف على تسعة آلاف فارس عسكر بهم شمال بحرية طبرية، وكلف ابنه عليا أن يشاغل الجيش العثمانى دون ان يدخل معه فى معركة جدية، وأن يتقهقر بانتظام صوب المعسكر. ثم قسم جيشه هو الى ثلاثة أقسام أمر الجناح الأيمن وعلى رأسه ابنه على بالتقهقر وبالاختفاء فى المرتفعات الغربية للبحيرة. وأمر الجناح اليسر وعلى رأسه صهره الشيخ كريم بالتقهقر تجاه لبنان شمالا بغرب. وما وافى المساء حتى كان قلب الجيش وعلى راسه ابن ظاهر يتقهقر الى الجنوب تاركا كل ما يملك من ذخيرة وعتاد، ثم اشعل النيران هنا وهناك تضليلا للعدو، واعتمد فى نجاح هذه الخدعة على الخمر، إذا زود المعسكر بكل ما يكفى الجيش المهاجم من مسكرات.

وفى جنح الليل تقدم عثمان باشا منتصرا أمام جيش على ظاهر المتراجع، ثم اطبق على معسكر ظاهر فرأى آثار التقهقر السريع غير

المنتظم فأيقن بفرار جيش ظاهر وسمح لجيشه بالراحة في معسكر من عدوه بعد هذا النصر المبين... واحتفل بذلك فأتوا على ما احتواه المعسكر من خمر ثم راحوا في سبات عميق، وفي غسق الفجر داهمهم جيش ظاهر وجناحاه فقتلوا واسروا الكثيرين، وغنموا كل ما كان لدى عدوهم من ذخيرة وعتاد. وفر عثمان باشا مذعورا الى دمشق فدخلها محتميا بأسوارها.

واسرع ظاهر فاستخلص صيدا من واليها درويش باشا ابن عثمان باشا. وشجع هذا النصر مدن يافا وغزة والقدس والخليل فطلبت حماية ظاهر ففعل، وارسل يطلب من الدولة ان تقره على ما ملك مقابل خمسمائة كيس تدفع سنويا فوافقت وفي نفس الوقت اعتذر عثمان باشا عن هزيمته للدولة بتأخر الدروز عن نصرته في معركة طبرية السالفة فقبلت اعتذاره وزودته بفرمان يسمح له بطرد ظاهر من يافا.

واذ بلغ ذلك الى ظاهر كتب الى على بك في مصر يخبره ويشكو له من خيانة الدولة، وأنه كلما استرضاها ترسل له تقرير رضاها ثم لا تلبث بأن ترسل الى عثمان باشا تحثه على ان يغزوه ويقاتله ثم طلب من على بك أن ينجده لرد عثمان باشا عن يافا وبلاد القدس والخليل، وكان ذلك في أواخر سنة ١٧٧١.

الحملات التمهيدية :

وفي تلك الأثناء كان على بك قد وجه جيوشه في أواخر سنة ١٧٧٠ الى بلاد الحجاز كما اسلفنا، وعادت في أواخرها مظفرة تحمل أكاليل النصر الأول، فعزم على إرسال حملات استكشافية الى بلاد الشام ليدرس على اساسها طريق الغزو، ومدى قوة ظاهر وعثمان، وكل ما تحتاج اليه الحملة ليتم تجهيزها على أكمل وجه لاسيما وقد بعد العهد بين الجيش المصرى المملوكى وبلاد الشام فمنذ ١٥١٦ لم ترسل مصر حملة باسمها تعمل لحسابها الخاص في تلك الجهات.

ففي منتصف رجب ١١٨٤هـ (١٧٧٠م) عين على بك القائد عبدالرحمن أغا الانكشارية على رأس تجريدة مهمتها «تأمين الطريق» بين مصر وفلسطين. فقامت هذه التجريدة بمهمتها خير قيام، وطهرت الطريق من العربان، وتمكنت من قتل «سليط» شيخ عربان غزة وأخوته وأولاده، إذ كان وجوده خطرا يهدد خط تموين الحملة[٣٢].

.ثم كانت الحملة التمهيدية الثانية في نفس

الشهر، وهى مايمكن ان نسميها «حملة جس النبض» غرضها الظاهرى مساعدة الشيخ ضد عثمان باشا بينما كان القصد منها معرفة قوة كل من ظاهر وعثمان، والعدد التقريبى للجيش الغازى الذى سيخرج من مصر، مع ما يحتاجه من ماء وجنود وذخيره وقد جهز على بك تلك الحملة الثانية تجهيزا حسنا، وأقام على رأسها اسماعيل بك[٣٣] يساعده على بك الطنطاوى وعلى بك الحبشى.

وقد ذكر المؤرخون ان عددها لم يكن يقل عن عشر آلاف مقاتل كاملى العدة ـ كما ذكر لنا الجبرتى ان هذه الحملة سارت عن طريق البـرّ فى أواخر رجب ١١٨٤هـ (١٧٧١م) وان على بك اتبعها بتجريدة اخرى عليها احد الصناجق والكشاف، رحلت من دمياط بحرا فى أواخر رجب ايضا، ثم اتبعها بثالثة برية فى منتصف ذى القعدة.

وكان عثمان باشا في ذلك الوقت يقوم بجولته السنوية بإيالة القدس، فلم يكد الجيش المملوكى يصل يافا حتى اسرع عثمان فارتد الى دمشق، بينما تقدم ظاهر العمر لملاقاة حلفائه المماليك واتجه الجيش المشترك قاصدا دمشق. ثم ارسل ظاهر الى عثمان معتزا بحلفائه يقول «ان غز مصر أتت تساعدنى عليك، فإن شاء الله غدا صباحا يكون القتال فأنزل إلينا برجالك.

وتهيب عثمان، وكان رده ان تهيأ للخروج الى الحج لا للقتال. وارسل يخبر الحليفين بذلك قائلا «اننى قد عولت على السير الى الحج الشريف فلا يمكننى ان أتأخر. وان كنتم تريدون قتال زائرى بيت الله الحرام فنحن استعنا بالله عليكم.

ولم يقبل اسماعيل بك قائد الجيش المملوكى ان يتحمل وزر ذلك الأثم فعاد الى يافا ينتظر عودة عثمان باشا، وعاد ظاهر الى عكا، وخرج عثمان باشا الى بلاد الحجاز.

«فى سنة ٢٧٧٢ تقوى ظاهر العمر وشاع اسمه، ونهب جبخانة عثمان باشا والى الشام[٣٤]. ولما طلع للمزيريب ركب عليه ظاهر العمر وأراد أن ينهب الحجاج ويأخذ المحمل ويقتل الوزراء فما سمح البارى تعالى بذلك[٣٥].

ولم تشأ السلطنة فى ذلك الوقت الحرج ان تترك ولاية دمشق تحت رحمة ظاهر وحليفه فارسلت حملة بقيادة اربعة باشوات لحفظها حتى يعود واليها. لذلك ارسل ظاهر الى على بك يطلب قائدا اطوع ومددا أوفر.

وفي هدى الحملات السالفة تبين على بك عدة أمور: أولها صلاحية امبلاك حليفة ظاهر كقاعدة حربية للجيش المملوكي . وثانيها حاجة الحملة الى المدافع لعمليات الحصار. وثالثهما ضرورة حصول الحملة على مساعدة بحرية فعاله.

وكانت الحرب الروسية التركية قد دخلت في دورها الثانى ١٧٠٠م ، فحجزت جيوش الدولة على ضفاف الدانوب، وتمكن الاسطول الروسي من ان يقوم بدور هام في البحر المتوسط، ولما كانت روسيا قد اعتمدت في حربها ضد السلطنة على اثارة ولاياتها لم يجد على بك غضاضة في ان يحصل على حاجته عن طريق روسيا والاسطول الروسي.

وكتب على بك الى قائد الاسطول الروسي في البحر المتوسط وهو الكونت الكسيس ارلوف Count Alexis Orlow مبديا رغبته في عقد معاهدة تحالف وصداقة مع روسيا «ووعده بكل ما يحتاج اليه جيشه واسطولة من مئونة ومال إذا لزم، وطلب منه مدافع للحصار ومهندسين. فرد عليه امير البحر الروسي مهنئا اياه ومشجعا له على حركته، ووعده بارسال طلبه في الحال لعرضه على جلالة القيصره، ثم شكره على ما عرض عليه من مساعدة ووعده بألا يتأخر في طلبها متى وجد نفسه في حاجة إليها.

تجهيز الحملة المصرية

وأيقن على بك بأهمية المعارك المقبلة ولذلك وجه عناية فائقة الى تجهيز الحملة فاختار رجالها بنفسه. وبلغت عدتهم اربعين آلف مقاتل، وزودهم بكل ما تحتاج اليه حملة مهاجمة من سلاح وذخيرة وعتاد ثم عين على قيادتهم محمدا بك أبا الذهب بطل حملة الحجاز. وفي ذلك يقول الجبرتي «وفيها (أى ١١٨٥ هـ ١٧٧١م) اخرج على بك تجريدة عظيمة وسر عسكرها واميرها محمد بك ابو الذهب ورضوان بك وايوب بك وغيرهم كشاف وارباب مناصب، ومماليكهم واتباعهم، وعساكر كثيرة من المغاربة والترك والهنود واليمانية والمتاولة وخرجوا في تجمل زائد واستعداد عظيم ومهيا كبير، ومعهم الطبول والزمور والذخائر والأحمال والمطابخ والكرارات والمدافع والجبخانات ومدافع الزنبلك على الجمال وأجناس العالم ألوفا مؤلفة. وكذلك أنزلوا الاحتياجات والأثقال وشحنوا بها السفن، وسافرت عن طريق دمياط في البحر».

وتكلفت تلك الحملة كثيرا من الجهد والمال حتى اضطر على بك الى فرض مبالغ تدفعها كل مدينة بمصر. كما فرد اموالا على اليهود والاقباط «قبضت جميعها فى اسرع وقت».

وبدأت الحملة سيرها برا فى ديسمبر سنة ١٧٧١. وعندما وصلت غزة اتجهت إلى الرملة وصادفت طلائع حملة إسماعيل بك فانضموا إليها. وأخذوا الرملة ونابلس بعد حصار طويل. وعزم أبو الدهب على حصار بيت المقدس فخرج إليه حاكمها وكبير قضاتها وممثلو بطريركها فقدموا هدية قيمة، وعرضوا عليه دخول المدينة دون قتال احتراما لقدسيتها فأجابهم إلى طلبهم.

ثم حاصر يافا فسلمت بعد شهرين، ولم يبق أمامه سوى احتلال دمشق حتى يصبح سيد سوريا الوسطى. وكان أبو الذهب كلما احتل مدينة يولى عليها حاكما من قبله يحكمها باسم على بك، ويترك بها حامية تشرف على الأمن والنظام، هكذا أمره سيده قبل الرحيل.

وفى تلك الأثناء كان عثمان باشا قد عاد من بلاد الحجاز وجهز حملة جرارة قدرها بعضهم بمائة ألف مقاتل، على رأسها أربع باشوات من دمشق وحلب وطرابلس وصيدا ثم تقدم يريد القضاء على الجيش المشترك. وتقاتل الفريقان فى السهول الفسيحة الممتدة إلى الجنوب من دمشق. ولقى عثمان باشا من مرارة الهزيمة ما جعله يفر إلى دمشق ومنها شمالا إلى حمص.

أما أبو الدهب فتقدم لحصار دمشق دون أن يعلم بمغادرة عثمان لها. عند ذلك اسقط فى يد أهلها وطلبوا من كبار العلماء التوسط لدى أبى الدهب فاظهر لهم عزمه الأكيد على دخولها، وعرض عليهم الكتاب الذى زوده به على بك وهذا نصه:

«صدر هذا الفرمان الجليل الشأن من ديوان مصر المحروسة العالى، دامت له المفاخر والعالى، بأمر من منّ به الكريم المنان على أهل هذا الزمان، فاظهر العدل والآمان، وعم بالفضل والإحسان جميع أهل القرى والبلدان، وأرغم أنوف أهل الجور والطغيان؛ أمير الأمراء الكرام، كبير الكبراء العظام المختص بمزيد عناية الملك العلام أمير اللواى الشريف السلطانى، والعلم المنيف الخاقانى، الأمير على بك أمير الحاج سابقا [٣٦] وقايمقام بمصر المحروسة حالا[٣٧] دام عزه وبقاه آمين.

مضمونه حمد لبارئ النسم ومحيى الرم، الذى قدس وعظم قدر الحرم وبارك حوله بجزيل النعم، وأمر بالعدل فى ساير الأمم، وأوعد الظالم بالهلاك والنقم، القايل فى كتابه المبين، والله لا يحب الظالمين، إن الله لا يصلح عمل المفسدين، فلا تأس على القوم الفاسقين: والصلاة والسلام على رسوله الأمين سيد الخلق أجمعين، القايل وهو أصدق من قال الضرر يزال. وعلى آله وأصحابه الذين سادوا وشادوا الدين صلاة وسلاما دايمين إلى يوم الدين.

وبعد مزيد السلام والتحيات، ونوامى الأمن والبركات، وجزيل النعم والخيرات فى سائر الأوقات والساعات إلى حضرات العلماء العاملين، والفقهاء المحدثين المفتين بشريعة سيد الانام، وقضاة الأسلام، وأرباب المناصب والحكام. والأكابر والأعيان الكرام، والخواص والعوام من أهل مدينة دمشق الشام، أعزهم الله بنور العدل وأحكامه، وأجارهم من الظلم وظلامه، وعاملهم بالطافة وأكرامه، وأفاض عليهم جزيل انعامه أمين.

الذى يحيط به كريم علمكم وسليم فهمكم أن الأمة لا تجتمع على الضلالة. وقد علمتم مافعله عثمان باشا فى أرضكم، وفى غيرها من الظلم والجهالة. وأنه قد تعرض للحجاج والزوار وسلط عليهم الأشرار والفجار[٣٨] بالأذية والأضرار وظلم المسافرين والتجار. وأذى أهل الأماكن الشريفة، وبدل أمن الحرمين الشريفين بالخيفة[٣٩]، وتعدى حدود الدين وصنع مالا يليق بالمسلمين. وقد قال من لاتراه العيون «من يتعد حدود الله فؤلئك هم الظالمون» ولما بلغنا عنه مابلغ وأنه فى إيذاء الأرض المقدسة قد ولغ، فبادرنا لسوء فعله بالنقض كما أزلنا فى العام الماضى من ظلمه البعض[٤٠]، وأردنا أن نطهر منه تلك الأرض نصرة للدين وغيرة على المسلمين. وأعظم القصد والأحتياج دفع ضرره عن الأرض المقدسة والحجاج تبعاً للحديث الشريف: ماحل يحرمكم حل بكم.

وبلغنا أيضا مافعل بالعلماء فى غزة، وقد أذاقهم الذلة بعد العزة، ودفنهم في الأرض بالحياة والحديث المقدس عن الإله، «من أذى وليا فقد أذيته بالحرب» والعلماء لاشك أولياء الله لقوله فى كتابه الأسمى«إنما يخشى الله من عباده العلماء» ، وإذا كنتم بذلك راضين، وعلى رفع ضرره غير قادرين فنحن انشاء (أن شاء) الله قادرين على إزالة ماهنا لك وقد أفتتنا المذاهب الأربعة بذلك فاستخرنا الله، وهو نعم الولى وسألناه أن ينصر دين محمد بعلى. [يقصد هنا على بلك] وصرفنا الهمة

والأموال فى رضى الملك المتعال، ووجهنا العساكر والأبطال ليرفعوا يد الظالم ويستردوا المظالم ويحموا الديار والمعالم ويميزوا العاطب من السالم.

والمقصود منكم ترك الظالمين والبعد عنهم، ومن يتولهم منكم فانه منهم. وأن تجتهدوا فيما يدفع الشرور ويوجب لكم الفرح والسرور والغبطة والحبور وأمير الحاج الشامى من طرفنا يتولاه، حفظا وصيانه لحجاج بيت الله فتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان، والنصر من الكريم الفتاح لمن طلب العدل والصلاح.

وها نحن قد أخبرناكم، وللمعاونة على الخير قد اخترناكم، ومن قبول هذا الظالم فى أرضكم حذرناكم. فالعساكر قاصدة اليه وجميع ماليديه، وقد سلط غضب الله وسخطه عليه، فاحفظوا منه سائرا أموالكم وأحوالكم ولا تدعوه يقيم فى أرضكم وبين عيالكم ورأى العلماء والأكابر أعلى. وأنتم بالمعاونة على الخير أولى.

وعلى القريب منكم والبعد، والطارف والتليد، والأحرار والعبيد أمان الله ورسوله وأماننا السعيد، والله يفعل مايشاء ويحكم بما يريد. والخير يكون والصعب يهون بعون الله والسلام.

وكان الرد على ذلك أن استصدر السلطان فتوى باعتبار على بك وحلفائه وأنصاره بغاة يجب قتلهم أو أعدامهم.

وأحدثت رسالة على بك الغرض لمقصود منها. ودخل أبو الدهب دمشق فى صبح يوم ٦ يونية ١٧٧١ دون أن تسيل قطرة واحد من الدماء، وأرتدت حاميه المدينة إلى القلعة وتحصنت بها، فحاصرها جيش أبى الدهب وأضطرها الى التسليم بعد ثلاثة أيام تحت تأثير القنابل المتساقطة. ودخل ممثل على بك الكبير دار الوزارة فى دمشق وجلس حيث كان يجلس ممثل السلطان العثمانى. وأتت الوفود من سائر الأنحاء تزف التهانى وبدأ الناس يشعرون بنعمة الأمن والسلام.

وأرسل الأمير منصور الشهابى من جيل الدروز هدية وخطابا يتقرب بهما الى أبى الدهب وكان ظاهر قد أوصاه خيرا بأمير لبنان[٤١].

وتردد صدى النصر فى القاهرة فى ربيع الأول من ١١٨٥ (١٧٧١) وأحتفل به على بك احتفالا عظيما. وفى ذلك يقول الجبرتى «ووردت البشائر بذلك فنودى بالزينة، فزينت مصر وبولاق ومصر العتيقة زينة عظيمة ثلاثة أيام بلياليها. وتفاخروا فى ذلك الى الغاية وعملت وقدات وأحمال قناديل بشموع

بالأسواق وسائر الجهات، وعملوا ولائم ومغنى وآلات وطبولا وشنكا وحراقات وغير ذلك...» الى أن قال «وتعاظم على بك فى نفسه، ولم يكتف بذلك فارسل الى محمد بك يأمر يتقليد الأمراء المناصب والولايات على البلاد التى فتحوها وملكوها».

ولا غرابة فى ذلك فقد أصبح ابوالدهب سيد سورية الوسطى والجنوبية يحكمها باسم استاذه على بك ولم يبق أمامه سوى الأستيلاء على حلب حتى يحتل سورية باجمعها. بل أن على بك فى يونية ١٧٧١ كان فى مركز يسمح له بأن يعلن نفسه «سلطانا على مصر وسورية» كما قرر ذلك قنصل فرنسا فى صيدا.

ونشير إلا أن قناصل فرنسا فى سورية الوسطى نقلوا محور نشاطهم السياسي من الآستانة الى القاهرة واصبح قنصل فرنسا فى القاهرة يقوم لدى على بك بنفس الدور الذى كان يقوم به سفير فرنسا فى الآستانة لدى السلطان العثمانى.

ويعتبر هذا الحدث منتهى ما وصلت اليه قوة ونفوذ على بك، كما يمكن اعتبار ليلة ١٠ يونية ١٧٧١ بدء أفول نجمه، ذلك لأن محمدا أبا الدهب لم يلبث ان عاد سريعا الى مصر وسحب فى طريق عودته جميع الحاميات التى كان قد أقامها فى البلاد المفتوحة، وبدأ يحارب سيده وولى نعمته.

جمهرة المؤرخين تنسب هذا الانسحاب الى ابى الدهب نفسه. فمنهم من يرى ان أبا الدهب كان يدير من زمن طويل وسيلة للقضاء على على بك، وأنه فى جميع خدماته السابقة لمولاه، سواء فى القضاء على منافسيه أو فى حملتى الحجاز والشام انما كان يعبد لنفسه طريق الحكم والسلطان عندما تنضج الثمرة وتسقط راس سيده. فلما دخل دمشق وأمره مولاه فى نشوة السرور بالمضى فى الفتح خشى فوات الفرصة فعاد لقطف الثمرة دون أى اكتراث لما يجب عليه نحو رب نعمته من اخلاص وولاء.

والمؤرخون الترك يرون أن ابا الدهب تبين له صدق نصيحة اسماعيل بك وتصادف قدوم «أمين الصرة» لبلاد الشام فى ذلك الوقت، فاتصل به ورجاه كسب عفو الدولة بعد تقديم الاعتذار الكافى ، وبذا حصل ابوالدهب على وعد سلطانى بالعفو وشياخة البلد.

اما غيرهم فيقول بأن الباب العالى هو الذى نصح لعثمان باشا والى دمشق بالاتصال سرا بأبى الدهب، وبأن يستثمر مهارته السياسة فى كسبه الى جانب العثمانيين. وفوض إليه ان

يعده باسم السلطان بالعفو وبمركز صهره علي بك.
فكان أن عقد مجلس سرى بين الطرفين فى الليلة السابقة للرحيل انتهى بخروج العدوين صديقين بل حليفين.

هذا ويعتقد المؤرخ لكروى Lockroy أن عثمان باشا كان يحتفظ دائما ببعض الكتاب الماهرين فى تقليد الفرمانات السلطانية، وأنه بهذه المناسبة حاول بمهارته السياسية ان يعوض خسارته الحربية فقابل أبا الذهب سرا وأغراه بمحاربة علي بك، ووعده بمركزه، وقدم إليه فرامانا سلطانيا مزورا.
والرأى الذى نأخذ به هو مزيج من تلك الآراء كلها، إذ يتضح لنا من وقائع الحال وآراء من سبق من المؤرخين ان عثمان باشا أرسل يطلب مددا من الدولة حتى لا يضطر الى التسليم. ولما كانت الدولة عاجزة تماما عن مساعدته بالجند والسلاح فى ذلك الحين، لانشغالها فى الميدان الأوربى الروسى، فقد أمدته بسلاحها السرى الذى برعت فى استخدامه ونجح فى كثير من الأحيان فنصحت له عن طريق «أمير الصرة» أن يتصل سرا باسماعيل بك ليستثمر ميله الى العثمانيين فى كسب عطف ابى الذهب، واثارة شكوكه من جهة علي بك، وتحذيره من انتقام الدولة عندما تتفرغ لتأديب العصاة.
كما أننا نرجح أن الاشاعة التى راحت قبيل الانسحاب بوفاة علي بك، إنما ابتكرها أبوالدهب نفسه وروجها انصاره بقصد أغراء الجند على سرعة العودة الى مصر.

ولم يكن جند ظاهر العمر أو حلفاؤه المتاولة باقل دهشة من غيرهم لانسحاب ابى الدهب المفاجئ، وعندما ارسل اليه ظاهر وشيخ المتاولة ناصيف النصار يستفسران عن سر ذلك رد عليهما مهددا متوعدا.

وكان ان ارتد أبوالدهب قاصدا مصر فى سرعة فائقة حتى كان يخيل الى من رآه أن انسحابه فرارا وليس تقهقرا، إذ كان القائد يتخلى عن كل مايعوق سرعة تقدمه. وبذلك تمكن من دخول مصر بعد بضع ساعات فقط من وصول الخبر الى علي بك.
ولم يدهش علي بك من قبل دهشته فى ذلك اليوم ولكنه احتبس دهشته وكظم غيظه. وما أن دخل أبوالدهب عاصمة مصر حتى أفضى الى أستاذه بسر عودته، ونسبها إلى أن الجيش المملوكى لاقى من سوء معاملة ظاهر العمر وجيشه وحلفائه ما هدد كيانه.

والظاهر أن غرض أبى الدهب من ذلك كان مزدوجا ففيه تبرير لعودته من ناحية، ومن ناحية اخرى كان محاولة خبيثة لخلق العدواة والبغضاء بين على بك وحليفه الوحيد ظاهر العمر.

نفى أبى الدهب إلى الصعيد:

أما على بك فلم يأخذ الأمر على علاته بل أرسل يستفسر من ظاهر فبعث له هذا بابنه عثمان ليوقفه بنفسه على ماحدث، وأمره أن يبقى بمصر برهانا على صدق الرساله التى كلفه بها وأراد على بك أن يختبر صدق أبى الدهب وطاعته له فالح عليه فى العودة الى الشام واصر ابوالدهب على الرفض. عند ذلك تبين على بك خيانة ابى الدهب وسوء نيته، ولكن «بقى الأمر على السكوت» كما يقول الجبرتى، ذلك لآن على بك فضل ان يبقى ذلك الأمر سرا مكتوما حتى لا ينضم الى ابى الدهب انصاره الذين كسبهم الى جانبه فى خلال حملاته فى الحجاز والشام، وحتى يستطيع على بك متى حانت الفرصة ان يقضى عليه قضاء مبرما، واخيرا قرر نفيه الى الصعيد.

فلما كان رابع ايام عيد الاضحى سنة ١١٨٥ (أوائل ١٧٧٢) أمر على بك تابعة على بك الطنطاوى ان يذهب فى خاصة اتباعه الى ابى الدهب فيبلغه أمر مولاه بنفيه الى الصعيد. وأمره ان يشرف بنفسه على خروجه من القاهرة فصدع طنطاوى بالآمر، وامتثل ابوالدهب وفى ذلك يقول الجبرتى «وانقضى شهر شعبان ورمضان وعلى بك مصمم على رجوع محمد بك الى جهة الشام وذلك مصمم على خلاف ذلك. وبدت بينهما الوحشة الباطنية. فلما كان رابع شهر شوال (١١٨٥هـ ـ ١٧٧٢م) بيت على بك مع على بك طنطاوى وخلافه واتفق معهم على غدر محمد بك. فركبوا عليه ليلا وأحاطوا بداره ووقفت له العساكر بالأسلحة فى الرواق فركب فى خاصته وخرج من بينهم وذهب الى ناحية البساتين وارتحل الى الصعيد.

وكان على بك قد أخذ الحيطة لنفسه فعين ايوب بك حاكما على جرجا، وكلفه سرا ان يحتال على أبى الدهب ويقتله عقب وصوله. ويخيل إلينا أن أيوب بك لشدة إخلاصه لعلى بك أسر إليه بما اتفق عليه البكوات مع ابى الدهب فى الشام وهذا السر فى ان على بك عينه بالذات حاكما لجرجا وكلفه بتلك المهمة الخطيرة.

نجدة على بك لظاهر العمر:

وعز على بك ان يفك من يده نصر تكلف في سبيله كثيرا من الجهد والمال، فبادر بتجهيز حملة يتراوح عددها بين ٥٠٠ و ٦٠٠ مقاتل بقيادة عبدالرحمن بك وسليمان كاشف ومصطفى جاوش أرسلها لمساعدة ظاهر وحلفائه بقصد استعادة سلطانهم على أملاكهم السابقة. أما صغر عدد الحملة فيعزى الى اضطرار على بك للاحتفاظ بمعظم جيشه في مصر بعد تغير موقف ابى الذهب نحوه. وقد وصلت تلك الحملة في الوقت الذى كان عثمان باشا يستعد للهجوم بالجيش الجرار الذى كونه من جنود دمشق وحلب وطرابلس وصيدا والقدس والدروز. وتلاقى الفريقان على ضفاف الأردن في اول سبتمبر ١٧٧٢ حيث منى الجيش العثمانى بهزيمة ساحقة تقهقر عثمان باشا على أثرها قاصدا دمشق، بينما هزم المتاولة جيشا من الدروز بقيادة الأمير يوسف شهاب تحت اسوار صيدا كان يسرع لنجدة العثمانيين. وأخيرا سقطت صيدا في يد الحلفاء تحت الحكم المشترك.

وعاد الآمل الى نفس على بك ولكن افسد عليه تدبيره وصول الأخبار من الصعيد باستعداد ابى الذهب لدخول القاهرة.

نهاية على بك الكبير:

لم يكن من الهين على على بك ان يشاهد انهيار صرح أحلامه، فعزم على تأديب العاصى ورده إلى الطاعة الواجبة عليه نحو استاذه، فجهز تجريدة عظيمة أرسلها برا بقيادة إسماعيل بك واعقبها بالامدادات في النيل، ولم يدر على بك أن إسماعيل كان الورقة الرابحة الباقية في يد أبى الذهب ليستخدمها في الفرصة المناسبة. وكان أن فوجىء على بك بانضمام اسماعيل بك إلى أبى الذهب . وتقدم الجميع نحو العاصمة.

واتخذت الحركة شكلا جديدا، فلم تعد حركة مملوك انشق على سيده، وإنما أصبحت ثورة جامحة كغيرها من ثورات المماليك التى سبقتها والتى تلتها. انضم المماليك فيها إلى حزبين أحدهما في الصعيد على رأسه محمد بك والآخر في القاهرة وعلى رأسه على بك.

يقول الجبرتى «ومنذ ذلك اشتد الأمر بعلى بك ولاحت على دولته لوائح الزوال، وكاد يموت من الغيظ والقهر».

واضطر على بك فى آخر الأمر أن يلجأ إلى موضع ثقته على بك الطنطاوى فعينه على رأس حملة ثالثة أفرغ فى تجهيزها كل جهده. وأمره بوقف سيل العصاة الجارف. ثم خرج بنفسه إلى البساتين، وعسكر هناك للأشراف

على تحصين الضفة الشرقية للنيل وانتظار النتيجة وإصدار التوجيهات اللازمة.

وتقدم الطنطاوى حتى لاقى طلائع أبى الذهب شمالى بنى سويف تجاه بياضة ومنى بهزيمة ارتد على أثرها فاشلا إلى مولاه. وتأكد على بك من عبث المقاومة فارتد إلى القاهرة وتحصن بالقلعة مع غروب الشمس. أما أبو الذهب فقد عسكر على الضفة الغربية للنيل تجاه بياضة. وعزم على بك أن يقاوم مستعصما بالقلعة ولكن عثمان بن ظاهر أقنعه بضرورة الالتجاء إلى عكا حيث يجد ظاهرا على أتم استعداد لامداده بالمال والرجال لاستعادة ملكه المسلوب، وبين له أن البقاء فى القلعة يسمح لعدوه بحصارها وقطع الامدادات عنها فيسقط فى يده حيا أو ميتا.

فرار على بك إلى الشام:

اقتنع على بك بصدق نصيحة عثمان وحكمتها وعزم على تنفيذها، فأمر رجاله بتجهيز ماله ومتاعه الخاص والاستعداد للرحيل. ثم ارسل أمرا إلى المعلم رزق وهو المتصرف فى شئون المالية المصرية باحضار ما بالخزينة من مال. ولكن رزق كان قد اختفى.

ولم ينس على بك أن يرسل سفيره يعقوب الأرمنى إلى اميـر الاسطول الروسى الكونت أرلوف Count Alexis Orlow يخبره بما حدث، وبعزمه على التوجه إلى سورية، ويرجوه أن يرسل إليه هناك مددا من الجنود والمدافع والخبراء يستعين بهم على العودة إلى مصر. وكانت هذه هى الرسالة الثانية من على بك إلى أمير البحر الروسى.

وفى ليلة ١٢ أبريل ١٧٧٢ (٢٥ المحرم ١١٨٦) غادر على بك مدينة القاهرة وكان ضمن بطانته عثمان بن ظاهر، والتاجر اليونانى سوفير لوزنيان كرزموبوليتس وقد كتب هذا الأخير يصف خروج على بك فقال: «أما عدد من تبعه من المقاتلة فلم يكن يتجاوز سبعة آلاف رجل من الخيالة والمشاة. وقد لزم ست وعشرون بعيرا لنقل ماله وثيابه. أما ثروته الخاصة فكانت تقدر بثمانمائة ألف محبوب نقدا، والباقى مجوهرات تقدر قيمتها بثمانية ملايين من الدوقات. وغادر مصر فى مساء ١٢ أبريل ١٧٧٢ وجد فى السير حتى لا يلحق به أبو الذهب... وفى اليوم الثالث والعشرين من الشهر وصل قرب مدينة حيفا وعسكر فى السهول التى يشرف عليها جبل الكرمل[٤٢].

أما أبو الذهب فقد دخل القاهرة فى صباح الخميس ١٣ أبريل ١٧٧٢ (٢٦ المحرم ١١٨٦) بعد أن غاب عن القاهرة سبعين يوما. وكان أول أعماله أن أمر بالقبض على من عرف

بميله إلى على بك، واعدم عبد الله كتخدا الباشا. وأمر بإبطال النقود التى عليها اسم على بك ثم ارسل يبشر الباب العالي بما وفق إليه. وكان ذلك موجبا لزيادة الممنونية.

كفاح على بك فى الشام:

وفى تلك الأثناء كان عثمان باشا قد عاد إلى دمشق، وتقدم بجحافله لحصار صيدا يحاول استردادها من يد الحليفين، على بك وظاهر العمر. وكان الأمير منصور الشهابى صديق ظاهر قد تنازل عن ولاية الدروز إلى ابن أخيه الأمير يوسف الشهابى وهو الموالى للعثمانين.

وكان على بك قد عزم على البقاء فى انتظار وصول النجدة الروسية. ولكن عندما علم بتهديد العثمانيين لصيدا بادر هو وحليفه إلى ارسال جيش مشترك من المماليك، وعلى رأسهم على بك الطنطاوى، والصفديين والمتاولة وعلى رأسهم على بن ظاهر والشيخ كريم صهره، ورغم تفوق الجيش المحاصر للمدينة على الحامية المصرية فقد تمكن المماليك وحلفاؤهم من هزيمة العثمانيين الذين ارتدوا سريعا إلى دمشق. وعاد الجيش المصرى إلى معسكر على بك انقاذ صيدا.

ولم يشأ على بك ـ وقد شجعه هذا النصر، وأعاد إلى نفسه بصيصا من الأمل المفقود ـ أن ينتظر حتى تصله النجدة الروسية، فعول على تطهير الطريق إلى مصر حتى إذا ما وصل المدد الروسى تقدم مباشرة فدخل القاهرة.

ورحب ظاهر بتلك الفكرة وانضم إلى على بك بكامل قوته ومعه أولاده وحلفاؤه المتاولة.

وتقدم الجيش المشترك، وبدأ بحصار يافا فى منتصف أغسطس ١٧٧٢، وزود ظاهر الجيش المحاصر بما يحتاجه من ذخيرة ومئونة وعتاد عن طريق البحر بسفن افرغت حمولتها شمالى يافا ثم أوصلتها الجمال إلى معسكر على بك.

وكان حسن باشا حاكم صيدا السابق ـ شقيق مصطفى باشا حاكم نابلس المعادى للمصريين ـ قد اختزن فى يافا قدرا وافرا من الزاد والعتاد فرفض التسليم وركن إلى الدفاع واحباط خطط المحاصرين.

وأخذ على بك يضيق الحصار على يافا شيئا فشيئا فى نظام محكم، فاحاط بالبلدة فى شكل دائرى تعسكر على محيطه جماعات من المقاتلة، بين كل جماعتين منها مائتا يارده تقريبا،اما كل جماعة فكان قوامها مائتين من الجند وعلى رأسهم أحد البكوات[٤٣]. ثم نصب على بك بطارية للمدافع تجاه باب

المدينة الشرقى، تتألف من مدفعين جديدين زنة قنبلتهما إثنا عشر رطلا، عهد بقيادتها إلى عبد الرحمن أغا[٤٤]. وعززها ببطارية أخرى تتألف من مدفع نحاس من عيار ١٦ بوصة تزن قنبلته ١٦ رطلا.

ورغم وطأة الحصار فإن المدينة صمدت للمهاجمين، ذلك لأنها كانت تمون من البحر. وطال الحصار فارسل على بك تجريدة فتحت غزة ودخلت الرملة واللد بغير قتال ثم عادت إلى حصار يافا. واحكم الحلفاء الحصار، وبدأ المدافعون يشعرون بوطأة الجوع والحاجة الماسة إلى الوقود. لذلك استعاضوا عن القمح بالأرز وأخذوا يتسللون فى ظلام الليل، يقطعون أشجار الفاكهة التى تحيط بالبلدة لاستخدامها كوقود، ولم يجد على بك بدا من اتخاذ الحزم، فأمر رجاله بقطع تلك الأشجار ليحرم أهل يافا من بعض مصادر تموينهم.

وأخيراً وصل ذو الفقار بك فى منتصف سبتمبر على سفينة روسية ترفع العلم الانجليزى يقودها الكابتن براون Captain Browne ومعه يعقوب الأرمنى سفير على بك الذى كان قد أرسله إلى أمير البحر الروسى قبل قيامه من مصر. وجاءت السفينة تحمل النجدة الروسية التى كانت تتألف من ضابطين روسيين، ومعهما بعض الهدايا، وخطاب من الكونت أرلوف إلى على بك ـ «ولما قدمها ذو الفقار إلى على بك نالا شرف تقبيل يده: أولهما الكابتن كلنجلينوف Cap. Clinglin-off من الفرسان والثانى اللفتنانت سيرجى بلستشوف S. Pleschoff وكانت الهدية تتكون من ثمان قطع من الحرير المطرز بورود صيغت بالذهب وأسلاك الفضة ، وثلاثة مدافع للميدان من النحاس زنة قنبلتها أربعة أرطال، وسبعة بنادق جيدة المعدن مع خمسمائة طلقة وثلاث جرارات للمدافع حديثة الصنع.

وأما الرسالة فكانت من الكونت أرلوف إلى على بك مكتوبة باللغة الروسية فى إحدى وجهيها، وبالايطالية فى الوجه الآخر. وقد ترجمت إلى على بك بالتركية فكانت تتضمن وعودا بالنجدة السريعة.

ولاقى الضابطان الروسيان من كرم على بك ما جعلهما يقبلان على العمل بهمة فائقة، وهكذا أقيمت بطارية ثالثة جنوب يافا، على بعد مائة ياردة من أسوارها، تتألف من ثلاثة مدافع زنة قنبلتها أثنا عشر رطلا قادها الكابتن كلنجلينوف وأصلى الأسوار نارا حامية صدعتها على الأثر.

ولكن سوء حظ هذا الضابط جعله يوقف

الضرب، ويطل برأسه من شق فى السور ليرى مبلغ ما سببته قنابله للسور من تلف، فاطلقوا عليه النار من الداخل واردته رصاصة استقرت فى صدره.

واغتم على بك لوفاته، وانتهز الفرصة للثأر فطلب من الكابتن براون أن يعيره ثلاثة من مدافع السفينة الروسية ـ زنة قنبلتها ٦ أرطال ـ فاجيب إلى طلبه وعززت تلك المدافع البطارية الشمالية الشرقية التى يقودها خليل بك ولطيف بك. ورغم تصدع الأسوار لاقى المهاجمون فى هجمتهم الثالثة دفاعا مجيدا جعلهم يرتدون بعد خسارة كبيرة فى الأرواح.

وطالت مدة الحصار فآثر الضابط الروسى أن يرتحل عائدا بسفينته. وزوده على بك برسالة شكر للكونت أرلوف، وأخرى للقيصرة يرجوها العون والمدد وكانت تلك هى الرسالة الرابعة من على بك للقائد البحرى الروسى[٤٥].

وفى منتصف ديسمبر جاءت بعض قطع الأسطول الروسى إلى بيروت لتسلم الجزية المفروضة. ومرت فى عودتها بيافا، وجاء قائدها الشفالييه بنايوتى الكسيانو Chev. Panagioti Alexian يحمل رسالة من الكونت أرلوف إلى على بك وأخرى من الشفالييه ريزو Ch. Rizo إلى ذى الفقار بك واقتصرت رسالة الكونت كالعادة عن التحيات والتمنيات والوعود الخلابة بالمساعدة العاجلة.

وساهمت قطع الأسطول فى ضرب يافا من البحر. ولكن الظروف الجوية اضطرتها إلى مغادرة يافا والعودة إلى قواعدها.

وسلح ظاهر بعض السفن وأرسلها لقطع خط التموين البحرى من مصر. فاضطر حسن باشا حاكم يافا أن يفر ليلا إلى أخيه حاكم نابلس.

وتمكن الحلفاء من دخول يافا فى أول فبراير ١٧٧٣، بعد انسلاخ ثمانية أشهر على حصارها. وبسقوط يافا اختتم على بك أعماله الحربية بفلسطين ونشط يستعد للعودة إلى مصر.

اوعز أبو الدهب إلى بعض البكوات الموالين له، وبعض ضباط الفرق، من غير فرقة اليكيجرى أن يكتبوا إلى على بك يستنجدونه ويستغيثون به من ظلم أبى الدهب وقسوته ويدعونه إلى دخول مصر[٤٦]. أشار إلى ذلك الجبرتى بقوله «وتحرك على بك للرجوع إلى مصر، وجيش الجيوش فلم يهتم المترجم ـ أبو الدهب ـ لذلك وكاد له كيدا بان جمع القراصنة والذين يظن فيهم النفاق وأسر إليهم أن يراسلوا على بك، ويستعجلوه

في الحضــور وينمقــوا لــه مســاوىء المترجــم ومنفـراته، ويعـدوه بالمخامـرة مـعه والقيام بنصرته متى حضر وأرسلوها إليه بالشريطة السـرية[٤٧] فراج عليه ذلك واعتقد صحته، وأرسل اليهم بالجوابات وأعـادوا لـه الرسالـة كـذلك باطـلا ع مخدومهم وأشارته».

واغـتـر على بك بتلك الرسـائل، والح على ظاهر في العـودة. وطلب منه مـالا لتـجـهـيـز الحملة، وادعى أنه ليس فى حاجة إلى عـدد كبـير من الجند «لأنه حـضـر لى مكاتيب من سناجق مـصـر، وكلهم معى يدا واحـدة على محمد بك، وعرفونى أنه حالما تظهر اعلامى لهم حيث هم فى الصـالحـيـة ينضـمـون إلينا متحدين معنا».

وعـاد على بك إلى مكاتبـة البكوات فـردوا يؤكدون ويقسمون. وأخيرا عاد سليمان كـخيا من ســفــارته إلى الكونت أورلوف دون أن يصحب مددا، وكان المعلم رزق قد ظهر بعد غيبـة طويلة واعـاده سيـده إلى خدمته وراح يؤكد لعلى بك أن ساعة الرحيل قد دنت.

وبدأ تحـرك الجـيش من يافـا فى أوائل مـارس ١٧٧٣ . وكـان الجيش مكونا من مماليك على بك وجند الشـيـخ ظاهر من الصـفـديين وعلى رأسهم على ابنه وكريم صهره، ثم ثلاثة آلاف من المغاربة المرتزقة، وكان عدد الجند جميعا لا يتعدى ثمانية آلاف رجل بين راكب وراجل.

ومر الجيش فى طريقه بغزة فى أواخر مـارس، ثم خان يونس فى مسـاء ٤ أبريل (١١ المحرم ١١٨٧) ثم تقـدم إلى الصـالحـيـة بعـد أن استـراح يومين فوصلها فى ١٩ ابريل. وهناك التقـى جيش علـى بك بطلائـع جيـش أبى الدهـب، ورغم تفـوقـه فى العـدد على جـيش على بك فإن المعـركـة لم تستـمـر سوى أربع ساعـات انسـحب الجـيش المدافع على أثرها بعـد أن منـى بهزيمـة كـبيـرة وخسـارة فى الأرواح وتمكــن علـى بك الطنطـاوى مـن الاستيـلاء علـى الصالحية.

وأسـقـط فى يد أبى الدهب ولكنه لجـأ إلى الحيلة والخديعة، فجمع ذوى الحيثية من رجال القـاهرة وأثار فـيـهم روح الجـهـاد دفـاعـا عن الدين مـتظاهرا أمـامـهم بمظهـر المدافع عن الحريات والعقـيدة الدينية قـائلا «لقد احطت علمـا بالدعوة التى وجهها بعضكم إلى على بك. أما أنا فإنى (بيك) مثله وحيثما ذهبت فيمكننى أن أحتفظ بهذا الشرف: ولكنى أرى لزامـا على قبل مـغادرة هذه البـلاد بصـفـتى مسلما قوى الإيمان، أن أخبركم بأن على بك الذى تحسبونه سيحكمكم خيرا منى إنما هو حليف الروس الملحـدين وسيـسـتـقـدم جيـشـا أوربيا كـبيـرا يحله بينكم. ومما يزيد الطين بله

أنه فى قلبه يميل إلى المسيحية أكثر من الإسلام، ولكم أن تثقوا بقولى أنه بمجرد أن يتمكن هؤلاء النصارى من أرضكم سيغتصبون أموالكم ويستحيون نساءكم وبناتكم، وأخيرا سيجبرونكم على تغيير دينكم. وإنى لأرجو مخلصا أن تثقوا فى قولى حتى لا نقع فيما وقع فيه اخواننا مسلموا الهند. فعندما ظهر الأوربيون لأول مرة على ساحل مليبار سالمتهم طوائف السكان وعاملوهم معاملة كريمة. إذ كانت دعواهم أنهم جاؤا بقصد التجارة، ولما سمحوا لهم بمزاولة تلك الحرفة الشريفة، بدأوا يستقرون ويقيمون المنشآت باسم المصانع، وتدرجوا حتى اصبحوا حكاما للهند وراحوا يغتصبون الأموال وينتهكون الأعراض، بل أنهم فعلوا ما هو افظع من ذلك... أنهم بشروا بالدين المسيحى بين فريق المؤمنين من اتباع الرسول الأمين.

ويمكنكم الآن أن تتصوروا ما سيفعله أولئك الأوربيون متى قدموا إليكم وعلى رأسهم رجل كعلى بك، أيها المسلمون الموحدون... اعينونى على طرد عدو بلادكم وعدو شريعتكم، والا فتحملوا كل الشرور التى يعانيها أخوانكم فى الهند، والآن اعتقد أنى أديت واجبى كمسلم ولكم الخيرة بينى وبينه.

ونهض أبو الذهب متظاهرا بالانصراف فمنعه الجميع معلنين فى وقت واحد عزمهم الأكيد على الاستشهاد فى ساحة الجهاد، واستغل أبو الذهب فترة ذلك الحماس فأعلن فى المدينة أن كل «من أحب دينه ووطنه فليتقدم إلى حمل السلاح».

معركة الصالحية وأسر على بك:

وبذلك تمكن أبو الذهب من جمع جيش كبير سيره للقاء على بك بالصالحية، وبقى هو بالعادلية. وكتب القنصل الفرنسى بالقاهرة المسيو دامیرات يقول فى ابريل ۱۷۷۳ «أن زعماء البلد يثيرون الآن حربا دفاعية، والجميع يتطلعون إلى نتيجة ذلك الكفاح.

ولما سمع على بك تلك الأخبار السيئة أثرت فى نفسه تأثيراً سيئاً، زاده سوءا شدة تعبه وقسوة حرارة الجو فوقع تحت براثن الحمى. ورغم وطأة المرض كان على بك يصمم على أن يشرف بنفسه وهو جالس عند باب فسطاطه على تدريب جنوده اليومى .

وصف التاجر لوزنيان التقاء الجيشين فقال «وبدت طلائع جيش أبى الذهب فى اليوم الثالث عشر من شهر ابريل. ورغم قلة عدد

جيشنا (جيش على بك) إلى حد كبير فانه كان قد نظم تنظيما محكما لملاقاة العدو.. فعهد بقيادة جناحنا الأيسر إلى الشيخين على وكريم، وبقيادة الجناح الأيمن إلى الطنطاوى والبكوات الآخرين، بينما جعل المشاة فى القلب، وبدأت المعركة فى الساعة الحادية عشرة صباحا على وجه التقريب. وصادف طنطاوى توفيقا فى الهجمة الأولى، ولكن على وكريم لم يكونا كذلك. ورغم هذا فقد لاحت تباشير النصر إلى جانبنا. ولكن انضم مشاتنا الخوتة المغاربة إلى جيش العدو، وعم الفزع. أما طنطاوى فقد أحيط به واستشهد، ولاقى على نفس المصير، ولما رأى الشيخ كريم مقتل أخيه ومعظم جنده فزع نحوى مع الشيخ حسن، ووصل ثلاثتنا إلى فسطاط على بك بصعوبة كبيرة.

وما أن رآنا حتى قال فى لهفة: ما الخبر؟ فأجاب كريم، والدموع تنهمر من مآقيه، إننا قد فقدنا كل شيء، وأنه ينبغى ألا تضيع الفرصة. ثم عرض عليه أن يمتطى صهوة جواده حتى نفر إلى غزة.

ولكن على بك ظل جامدا صامدا، وقال بلهجة اليقين أنه يفضل الاستشهاد على العودة، وبينما نحن كذلك أقبل رضوان بك.. وعندئذ سمح على بك بالفرار لكل من أراد النجاة قبل أن يقترب العدو. فصدعنا بالأمر واستأذناه في الرحيل... وكانت الساعة حوالى الرابعة مساء» ولما وصل لوزنيان إلى غزة تبعه بعض من فروا فى مساء يوم الموقعة ووصفوا له خاتمة على بك فكتب يقول «وبعد رحيلنا بقليل هجم كخيا أبو الدهب ومعه حوالى الثلاثين رجلا على فسطاط على بك، واقتحموا بابه رغم مقاومة عشرة من مماليكه قتل وجرح فى أثنائها بعض المهاجمين، ولما أحاطوا بعلى بك فزع رغم مرضه إلى سيفه فشهره الدفاع عن نفسه وصرع أول قادم بضربة واحدة وجرح اثنين آخرين. وعندما تبين المهاجمون جرأة المدافع عن نفسه أطلقوا عليه النار فأصيب ذراعه الأيمن وابهامه بطلقتين، ولكنه لم ينفك يقاوم وأطلق النار عليهم بيده اليسرى فجرح الكخيا، ولكنه خر على الأرض طريحا بعد أن أصابت يده اليسرى طعنة سيف فحملوه جريحا أسيراً إلى فسطاط أبى الدهب.

واتفقت روايات المؤرخين على أن خيانة المرتزقة من مشاة المغاربة كانت العامل الأساسى فى هزيمة الصالحية، وهى أهم المواقع الثلاثة الحاسمة فى تاريخ على بك. وقد أكد المؤرخون دور الخيانة الذى قام به مراد بك فانه قاد جيش استاذه أبى الدهب

بعد أن وعده بمستولدة على بك الفائقة الجمال واسمها نفيسه وتلقب بأم المماليك، وكان مراد مولعا بحبها فاجتهد حتى كتب النصر لابى الدهب.

وبإنتهاء سلطة على بك الكبير، توقف مشروعه وعادت مصر إلي حالتها السابقة وسادت البلاد الفوضى والاضطراب واستبدت السلطنة العثمانية والمماليك بالمصريين مرة أخرى، ولم تحقق السلطنة العثمانية من عودة نفوذها إلا الخراب وعودة تلاعب الأمراء المماليك بالسلطة والنفوذ، وهذا هو موضوع الجبرتى فى الجزء الثالث*.



* اعتمدت هذه المقدمة على كتاب «على بك الكبير» تأليف: محمد رفعت رمضان دار الفكر العربى . القاهرة ١٩٥٠.

(١) ولعل هذا هو مشروع كل القبائل الرعوية فى الشرق الى هاجرت من أراضيها الاولى الفقيرة إلى الاقطار الزراعية المستقرة المجاورة لها، منذ الهكسوس والعبرانيين وبدو غرب آسيا (العرب) حتى التتار والمغول والسلاجقة والمماليك والترك والتى ذابت فى البلدان المجاورة لها ولم تتمكن من تأسيس أى دولة مستقرة بسبب تخلف عقيدتها الرعوية التى أتت معها وعدم قدرتها على تأسيس نظام اقتصادى سياسى يستوعب حضارات البلدان التى احتلتها.

(٢) فى التاريخ القديم للقبائل التركية كان الحكام الذين يقودون البطون القبلية منتخبين، ولم تكن مناصبهم تورث لابنائهم، غير ان هذا الوضع تغير شيئا فشيئا، وحل محله أن يصبح رئيسا من استطاع ان يقود مجموعة من العشائر أو البطون فى غارات منتصرة جلبت الغنائم. وصارت أسرة هذا القائد ترث امتيازاته ومركزه واحاطت نفسها بنوع من الحرس الشرفى الخاص وامتلكوا الاراضى القابلة للزراعة ، فاطلق على الفرد منهم اسم «طره خان» ، اى سيد الحرث (حرف هذا اللفظ فيما بعد الى طرخان).

(٣) صارت العائلات الارثوذكسية فيما بعد تدفع بابنائها طواعية إلى الخدمة السلطانية بسبب الفقر الشديد الذى كان تعانيه، ورغبة منها فى وصول اولادها الى المراكز العليا فى سلك الخدمة السلطانية، بل ان الرعايا المسلمين الفقراء دفعوا باولادهم الى نفس المصير طمعا فى هذه المزايا.

وقد أثرى من ذلك تجار العبيد بشكل اساسى فقد باتوا فى مرحلة تالية ولمواجهة الطلب المتزايد للسلطنة على هؤلاء الفتيان، يقومون بجمعهم وتوريدهم من مختلف البلدان الواقعة تحت يد السلطنة العثمانية.

(٤) الدوشرمة: وتعنى ضريبة الدم. كان هؤلاء العبيد بعد أخذهم صغارا يفرض عليه تدريب صارم من الناحيتين العقلية والجسدية، فكان أكثرهم استعدادا فى اللياقة العقلية والجسدية يختارون بمثابة «ايج او غلانات» ـ جمع ايج أوغلان أى غلمان البلاط ـ ثم يفرض عليهم تدريب خاص فى أحد قصور السلطان القديمة فى بروسه وأدرنه أو فى مدارس خاصة فى «غلطة» واستانبول ذاتها. والى جانب الايج او غلانات كان هناك جزء آخر من هؤلاء العبيد يطلق عليه اسم «عجمى اوغلان» ومعناها الحر فى «الغلمان الاجانب» ، وكانوا يدربون تدريبا قاسيا حتى يعوّدوا على قوة الاحتمال، وكان الذين لا يستطيعون منهم تكلم اللغة التركية يوضعون أولا فى خدمة عسكر السباهية الاقطاعيين فى الاناضول، ثم ينقلون بعد ذلك الى استانبول حيث يعاد اختبارهم بدقة، ثم يعينون لمهام مختلفة طبقا لقدراتهم ويصبحون بشكل مؤقت من هيئة القصر الامبراطورى، ثم يؤخذ عدد منهم إلى اوجاق «الجبه چيه» اى صانعى الاسلحة وصيانتها، وبذلك يدخلون الي الجندية، كما يعين آخرون من العجمى او غلان فى أوجاق البحرية فى كل من العاصمة

وغاليبولى، وهذا ما انتهى إليه أحمد البوشناقى ـ أحمد باشا الجزار والى عكا فيما بعد ـ فى فترة حياته الاولى بعد بيعه على يد تاجر العبيد. ومع ذلك فإنه يبدو ان آخرين منهم كان يؤجر لبعض القادرين من اصحاب المناصب بمثابة فعله وخدم خاص ـ كما حدث لأحمد البوشناقى عندما ألحق بخدمة على باشا حكيم أوغلى وانتقل معه إلى مصر ـ ولكن مصير معظمهم كان الانخراط فى سلك المشاة الثابتين، أى فى فرقة الانكشارية المشهورة.

(٥) يقول هاملتون جب وهارولد بوين فى كتابيهما «المجتمع الاسلامى» والغرب ص ٦٤» من سوء الحظ ان نضطر الى استعمال كلمة «عبيد» للاشارة الى اشخاص بهذا الوضع ـ فقد وصل بعضهم الى رتبه الباشا وحكم بعض الولايات ـ إذ هى كلمة غير مناسبة فى كل الأحوال. فالعبيد فى الاسلام متاع ـ أو كانوا متاعا ـ لساداتهم الذين كانت لهم عليهم حقوقا مطلقة، ولكن من النادر ان عبوديتهم تضمنت اية صرخة اجتماعية ، إذ لم تكن ثمة تفرقة بين أبناءالجوارى المولدين لسيد حر وبين أبناء الامهات الاحرار. ومعظم الخلفاء العباسيين فى بغداد ، وكذلك الاسر الحاكمة الاخرى التى تقل عنهم شأنا، كانوا من ابناء الجوارى، وهذا هو ايضا شأن كل السلاطين العثمانيين منذ أواسط القرن الخامس عشر ـ فيما عدا مراد الثانى ومحمد الثانى فقد تزوجا اميرات. زد على ذلك ان التاريخ الاسلامى قدم أمثلة عديدة لأسرات حاكمة من العبيد اشهرهم اسرات السلاطين المماليك فى مصر والعراق والشام. والمصيبة الكبرى ان هذا النظام قد تمخض عن ابعاد كل رعايا السلطنة الاحرار المسلمين عن هذه المناصب العليا وسقطت فى ايدى عبيد السلطان والمرتزقة منهم الذين مثلوا فيما بعد احد اسباب انهيار السلطنة بسبب تمرداتهم عليها ورفضهم لأى إصلاحات على المستوى العسكرى أو الإدارى.

(٦) فى الوقت الذى استقل فيه على بيك الكبير بمصر (١٧٦٨ -١٧٧٢) ، واستبد «ظاهر العمر» بفلسطين، واحتكر «ال العظم» السلطة فى ولاية الشام منذ أوائل الثامن عشر حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر، وكون «ال الجليلى» أسرة حاكمة فى الموصل (١٧٢٦ - ١٨٣٤)، وشابههم «حسن باشا» فى بغداد والبصرة فى النصف الاول من القرن الثامن عشر، ثم استولى المماليك على الحكم فى الولايتين حتى ١٨٣١ وأخيرا أسرة «القرمانلى» فى طرابلس الغرب (١٧١١ - ١٨٣٥). فى هذه الظروف استبد الجزار كذلك بحكم ساحل الشام وفلسطين لمدة تزيد على الثلاثين عاما.

(٧) فى هذه الظروف المتهالكة للسلطنة العثمانية وعدم قدرتها على مواجهة الاطماع الاوروبية واطماع الفئات العسكرية والدينية . كان حكام الولايات ينهبون إيرادات ولاياتهم دون ان يرسلوا أى منها للخزانة السلطانية حتى أنه

فى مصر التى كان يتبارى باشاتها فى زيادة الارسالية المالية للخزانة السلطانية، والتى حددها قانونامه مصر بـ ١٦ مليون بارة عام ١٥٣٤م، وزادها خسرو وباشا (حكم مصر بين ١٥٣٥ - ١٥٣٦)، إلى ٢٠ مليون بارة ثم بلغت ٣٠ مليون بارة فى عهد ابراهيم باشا (حكم مصر بين ١٦٦٠ - ١٦٦٣) ، عادت وانكمشت إلى ١٩ مليون بار، ولم يعد الامر يقتصر على انقاصها فقط، بل تعداها إلى عدم ارسالها كلها نقدا، بل كان جزء منها يرسل على شكل إيصالات «تمسكات» على أمراء المماليك كان من النادر سدادها. وتطور الامر بعد ذلك إلى تأخر إرسالها ، فخزينة عام ١٧٤٠ لم ترسل إلى فى عام ١٧٤٤ ، وكان المبلغ الواجب إرساله هو ١٨,٥١٢,٩٩٩ بارة فأرسل منه ٣,١٩٥,٦١٢ بارة فقط، أما الباقى فأرسل بدلا منه ايصالات على الامراء المماليك، ناهيك عن التلاعب والمبالغة فى رصد المصروفات من هذه الاموال السلطانية، ويكفى أن نذكر هنا أن متوسط مصروفات الحج الذى كان فى القرن السابع عشر حوالى ٥٤٠ ألف باره سنويا ارتفع إلى حوالى عشرة ملايين باره سنويا فى القرن الثامن عشر، كما يكفى أن نذكر هنا أن مراد بيك وابراهيم بيك تأخر عليهما من مال السلطان حوالى ١٠٣ مليون بارة، بالإضافة إلى تصرفهما فى مال «الحلوان» وكان من أهم موارد الخزانة السلطانية التى تأتيها من مصر حتى أنها كانت تفوق فى الكمية والانتظام ما كانت السلطنة العثمانية تحصل عليه من الايرادات الرسمية المقررة وكان ذلك يمثل خللا خطيرا فى ايرادات السلطنة.

(٨) الاباظة أو الابازة أو أباسيه. جنوب جبال القوقاز. اعتنق اهلها المسيحية فى القرن الرابع الميلادى ثم اسلموا. خضعوا للدولة البيزنطية [illegible] ثم العثمانيين ثم لروسيا سنة ١٨٢٤م.

(٩) لوسا الغيط: مركز أجا/دقهلية.

(١٠) وقلفه تحريف العربية خليفة وهو الوكيل أو معلم الصنعة أو الكاتب ذو مرتبة رئيسية. وباش قلفة معناها هنا ضابط حسابات أفندية الروزنامة، يقيد جميع إيراد مصر ومصروفاتها، ويحتفظ بسجل مال الكشوفية ، ويعطى سندا إلى الملتزمين عندما يدفعون الميرى - والزعيم أى والى القاهرة وهو رئيس شرطتها، ولكنه تحت رياسة أغا اليكيجرية.

(١١) فرض على الأقباط ١٠٠,٠٠٠ ريال، وعلى اليهود ٤٠,٠٠٠ قبضت بسرعة.

(١٢) ينبغى أن نفرق بين مال الكشوفية وهى نفقات الإدارة المحلية، وميرى مال الكشوفية وهو ما يدفعه الكشاف للحكومة.

(١٣) شاع فى عهد على بك تسمية الميدى بالبارة.

(١٤) كانت المبالغ الكبيرة تقدر بالاكياس، و الكيس المصرى قدره ٢٥,٠٠٠ ميدى أو نصف فضة أو بارة ولم تكن النقود الذهبية شائع الاستعمال إلا للتهادى.

(١٥) كانت القيمة الاسمية لسيكوانى البندقية ودوقات المجر وهولندا فى مصر أزيد بخمس بارات من قيمتها الحقيقية.

(١٦) كان يدير دار الضرب أغا يعينه ديوان الاستانة فيسك العملة بأمر الباشا كلما تولى سلطان جديد أو احتاجت مصر إلى عملة جديدة ـ وكان يدفع عن ذلك ميرى للدولة وعوائد للباشا والكتخدا ومرتبات لعمال الدار ـ ولكن بتقوى المماليك، وعدم تسديدهم مال الميرى كاملا والعوائد المقررة للباشا تنازلت الدولة للباشا عن الاشراف على دار الضرب ليستعين بالربح الناتج من ذلك على تغطية مصروفاته ـ ثم باع الباشوات الربح مقدما لمشايخ البلد، حتى قام على بك بحركته فاستأثر بأرباحها.

(١٧) فى سنة ١٧٦٨ (١١٨١) أرسل على بك آخر خزنة إلى الاستانة عن سنة ١١٨٠ وكان أمير الخزنة عثمان بك أبو سيف وقد توفى بالأناضول قبل عودته (٢٨ شعبان ١١٨١).

(١٨) الخزنة أو الخزينة فى الاصطلاح العثمانى مقدار ما يبقى مما يجئ بمصر بعد اتفاق كل ما قرر السلطان انفاقه وبعد النفقات المستجدة ـ وكانت تتكون من مال الأراضى الزراعية وميرى الوظائف ورسوم الجمارك والجوالى. ولم يكن مقدارها ثابتا بل تعرض كثيرا للزيادة والنقص فمثلا كانت فى سنة ١٠٤٩ (١٦٨٣) أى ضعف العدد الذى ذكرناه أى حوالى ٩٤١ كيسا، فى سنة ١٠٩١ (١٦٨٠) كانت حوالى ١٤٧,٥٨٨ جنيها مريا تقريبا إلخ انظر الامير عمر طوسون . مالية مصر ١٠٨ ـ ١١٥.

(١٩) جمرك البهار للبضائع الواردة الى السويس وهى فى الطريق بين القاهرة والسويس، وأمين البحرين هو المشرف على ساحلى بولاق ومصر القديمة، وأمين الخردة هو المشرف على جميع الرسوم المفروضة على الملاهى.. الخ.

(٢٠) الريال = ٩٠ فضة أو بارة تقريبا وقد بلغ ١٦٠ فضة قبل الاحتلال الفرنسى.

(٢١)فرمان باشوى بتاريخ ١٤ رمضان ١١٧٥ ـ دفتر قيد الفرمانات الصادرةمن الباب العالى لمحروسة مصر. رقم ١ ص ١٤٢ مخزن تركى.

(٢٢) ذكر الرحالة بيرى Perry Part عدد الأوجاقات حوالى سنة ١٧٤٠: من ٦ ـ ٧ آلاف يكيجريان ، ٣ ـ ٤ آلاف عزبان، ألف متفرقة ، ألف جاوشان، ٥٠٠ لكل من الفرق الثلاثة الأخرى .

(٢٣) دفتر جراية وعليق خدمة الديوان سنة ١١٧٤ رقم ٥٥/٦٢ مخزن تركى ص٤

(٢٤) دفتر مسموح مذكورين مع مرتبات بدل مسموح عن محلول مقاطعة دباغ خانة سنة ١١٨٥ رقم ٥٥/١٣٣ مخزن تركى.

(٢٥) دفتر جراية اسبان جماعت كشيدة ديوان واجب ماه جمادين ١١٨٦ رقم ١٢٦ / ٥٥ مخزن تركى ، دفتر جراية جماعت واجب ماه محرم وصفر سنة ١١٨٦ رقم ١٣٤ /٥٥.

(٢٦) ابن دحلان ص٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٢٧) يقصد بالقصور البرانية الموجودة فى ضواحى القاهرة، وبيوت المنافى أى الذين نفاهم على بك وصادر أملاكهم ـ أما المتاولة فهم حلفاء ظاهر العمر من بلاد فلسطين على غاية من الشجاعة.

(٢٨) يظهر من رواية فولنى وسافارى ولوزنيان أن المقصود به اسماعيل بك لا مصطفى بك .

(٢٩) ابن دحلان ص٢٠٠ .

(٣٠) يقال ان موضع دار السعادة هو مكان التكية المصرية التى ازالتها الحكومة السعودية منذ عدة سنوات.

(٣١) هذا هو السبب فى تسمية حسن بك شبكة بالجداوى نسبة إلى جدة.

(٣٢) رغم أهمية هذه التجريدة فقد تجاهلها المؤرخون عن غير قصد. وانفرد الجبرتى بذكرها . وقد ترجم الجبرتى لعبد الرحمن أغا وقال عن تلك الحادثة أن على بك (أرسل المترجم إلى غزة حاكما وأمره أن يتحيل على سليط ويقتله. وكان رجلا ذا سطوة عظيمة وفجور. فلم يزل يعمل الحيلة حتى قتله فى داره، وأرسل رأسه إلى على بك بمصر، وهى أول نكتة تمت لعلى بك وبها طمع فى استخلاص الشام» .

(٣٣) ترجم له الجبرتى من اشهر مواقفه القضاء على سويلم بن حبيب،و انتصاراته فى الحجاز، وتأثيره على أبى الدهب فى حملة الشام ثم توليه الشياخة فيما بعد.

(٣٤) اشارة إلى معركة طبرية

(٣٥) ميخائيل بريك الدمشقى.تاريخ الدمشقيين وجه ١٣٦. والمزيريب أو المزيرب حصن قديم قرب نابلس.

(٣٦) فصلنا ذكر هذاالكتاب كاملا لأهميته التاريخية .

(٣٧) هكذا كان على بك يلقب نفسه إشارة إلى تولية الحج (١١٧٧هـ ـ ١٧٦٣م) وفى ذلك دلالة على أنه لم يتخذ لنفسه لقب سلطان.

(٣٨) ربما كان يشير بذلك إلى حادثة وقعت فى ليلة ١٩ صفر ١١٨٤ (١٧٧١) ملخصها أن عثمان باشا لم يرض العرب فى أثناء عودته من الحج، اعتمادا على قوته فنهبوه ونهبوا الحجاج فسارع ظاهر إلى تعويضهم واشترى المنهوبات وأرسل العلم النبوى وعليه العقاب إلى الدولة ـ الصباغ ص ٧٥.

(٣٩) يشير إلى تدخل عثمان باشا فى أمور شرافة مكة، ومما ترتب على ذلك من اضطراب ومنافسات.

(٤٠) يشير بذلك إلى أمرين: أولهما حملة الحجاز وقد اعتبرها إصلاحا لما أفسده عثمان باشا وثانيهما التجريدة التى أرسلها على غزة فخلصت أهلها من إفساد العريان وظلم عثمان.

(٤١) ذكر الأمير حيدر فى تاريخه جـ ص ٨٠٥ ـ ٨٠٦ أن الأمير منصور الشهابى كان يحقد على عثمان باشا نصرته لشقيقه ومنافسه الأمير يوسف، فلما علم بدخول أبى الدهب إلى دمشق أرسل إليه ثلاثة أفراس

من جياد الخيل بالملابس لفاخرة، وكتب له جوابا يستعطف خاطره، وجهه إلى «الجناب العالى صاحب الفخر والجلال.. صدر صدارة الدولة المصرية أمير لواء عالى الشأن..» جاء فيه «أما بعد فإنه فى أبرك الأوقات وأشرفها وأيمن الساعات وألطفها قد ورد علينا كتاب الجناب الشريف وفهمنا فحواه السامى المنيف واتضح لنا حلولكم السعيد بدمشق الشام على حسن تأييد وأكمل نظام، فقد حصل [illegible] حة لا تحد وسرور ليس [illegible] الأقطار [illegible] خواطر العباد.

إلخ»

(٤٢) يرى بعض المؤرخين أن عدد الحملة مبالغ فيه. وأن جيشه لم يكن يتعد ثمانمائة مملوك وألف من المغاربة المرتزقة ـ وقد صاحب على بك اثنى عشر بيكا وهم على بك الطنطاوى ورضوان بك ابن أخته، حسن بك، خليل بك، مراد بك ، إبراهيم بك (وهما غير مماليك أبى الدهب) وعبد الرحمن بك، ذو الفقار بك، عاكف بك وسليم أغا الانكشارية وسليمان كخيا.

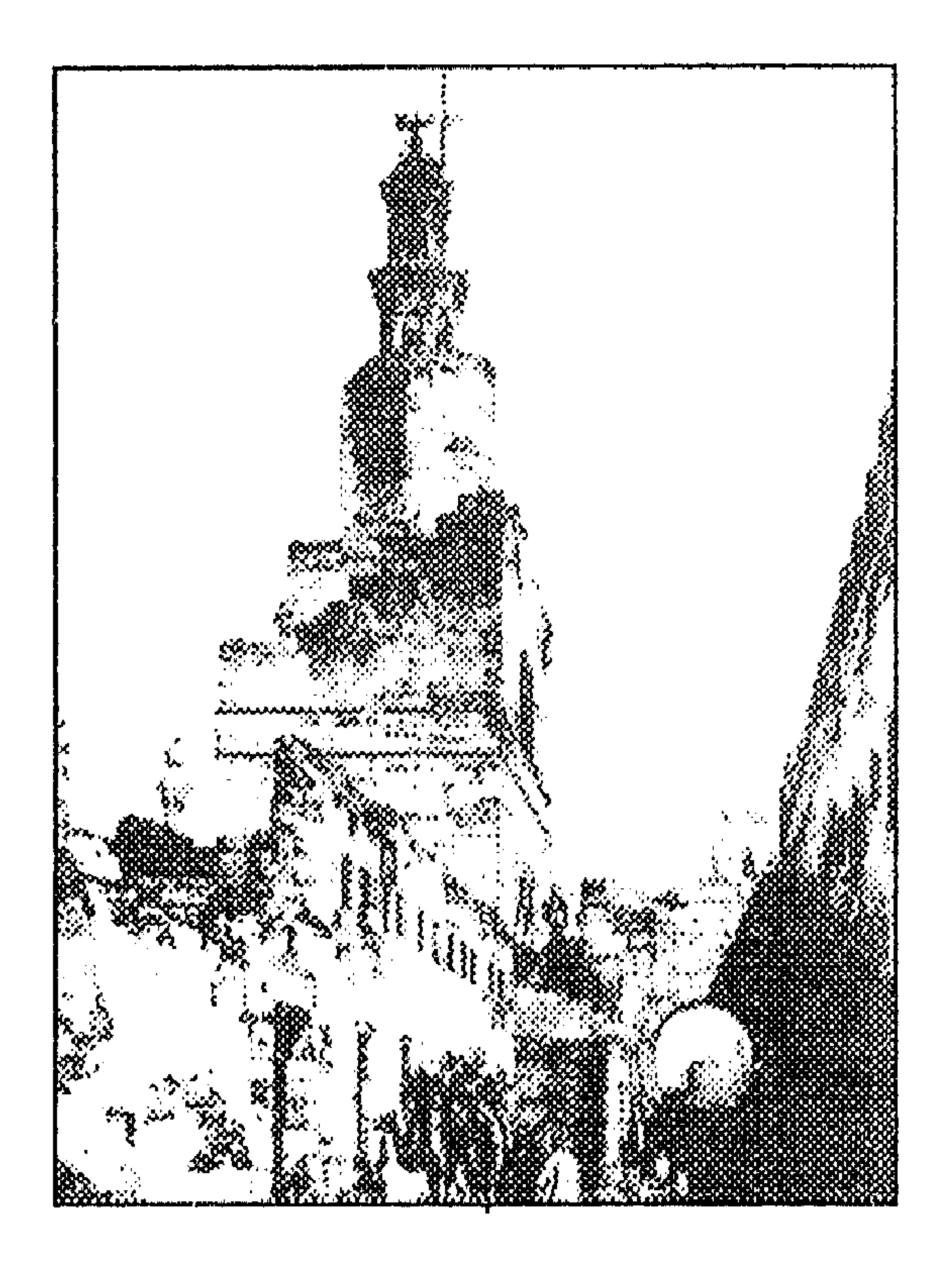
(٤٣) كان خليل بك ولطيف بك فى الشمال الشرقى للمدينة وبينهما ماثتا ياردة ثم عبد الرحمن بك ومراد بك فى الشرق، ومصطفى بك وعاكف بك فى الجنوب.

(٤٤) عبد الرحمن أغا من أهالى طرابيرون له خبرة بالمدفعية.

(٤٥) كان بين القتلى فى أثناء ذلك الحصار ابراهيم بك وهو ثانى البكوات الذين فقدهم على بك فى تلك الحملة ، بعد قتل أحمد بك فى تجريدة انقاذ صيدا. وقد حمل رسالة على بك الرابعة إلى القائد الروسى سليمان كخيا وذلك لان ذا الفقار كان مريضا مرضا أودى بحياته بعد قليل وهو ثالث من فقد على بك من البكوات.

(٤٦) فى كل المحاولات التى اتخذت لخيانة على بك أو القضاء عليه لم تشترك فرقة اليكيجرى فى واحدة منها، وبقيت على الحياد محتفظة بجميل على بك وحسن معاملته.

(٤٧) الشريطة السرية يقصد بها اصطلاح بين الطرفين. وتسمى فى عصرنا الحاضر «الشفرة».



فصل عود وانعطاف

فى ذكر حوادث مصر وتراجم أعيانها وولاتها من ابتداء سنة اثنتين وستين وماية وألف [١٧٤٧م] إلى أواخر سنة ثلاث وسبعين ومايةوألف [١٧٥٩م]

وذلك بحسب التيسير والإمكان،ومالا يدرك كله لا يترك كله، فنقول: لما عزل الجناب المكرم حضرة محمد باشا راغب في الواقعة التي خرج فيها حسين بك الخشاب ومحمد بك أباظة ونزل من القلعة إلى بيت ذى عرْجَان[١] تجاه المظفر[٢] كما تقدم، ثم سافر فى أواخر سنة إحدى وستين وماية وألف كما تقدم إلى ثغر رشيد، ووصل حضرة الجناب الأفخم أحمد باشا المعروف بكور وزير، وسبب تلقبه بذلك أنه كان بعينه بعض حول، فطلع إلى ثغر سكندرية ووصلت السعاة ببشاير قدومه فنزلت إليه الملاقاة وأرباب العكاكيز وأصحاب(ص٤٧٠) الخدم مثل كتخدا الجاويشية وأغات المتفرقة والترجمان وكاتب الحوالة وغيرهم وكان الكاشف بالبحيرة إذ ذاك حسن أغا كتخدا بك تابع عمر بك وتوفى هناك فأرسل عمر بك لكتخداه حسن أغا المذكور بأن يستمر فى المنصب عوضا عن مخدومه المتوفى حتى تتم السنة، وخرج عمر بك من مصر واستمر المذكور بالبحيرة إلى أن حضر أحمد باشا المذكور إلى سكندرية، فحضر إليه وتقيد بخدمته وجمع الخيول لركوب أغواته وأتباعه والجمال لحمل أثقاله، وقدم له تقادم وعمل له السماط بالمعدية حكم المعتاد، وعرفه بحاله ووفاة أستاذه وخروج سيدهم من مصر فخلع عليه الباشا صنجقية أستاذه

١١٦٣هـ.
١٤٦٦ق.
١٧٤٩م.
غاية الفيضان: ١ قيراط / ٢٣ ذراع

- ١ يناير ١٧٥٠ = ٢٥ كيهك ١٤٦٦= الخميس ٢٢ محرم سنة ١١٦٣.
- فى صفر / يناير ١٧٥٠، كانت سلطنة يوسف الأول على البورتغال.
- عزل أحمد باشا، المعروف بكور وزير، بعد أن حكم مصر سنتين، وتولى بعده شريف عبد الله باشا.
- فى جماد أول/ ابريل. كانت زلازل عظيمة فى انجلترة.
- فى جماد ثانى / مايو. كانت ترتيب الجندرمة فى فرانسا.
- ١ توت سنة ١٤٦٧ = ٩ سبتمبر ١٧٥٠ = الأربع ٧ شوال ١١٦٣.

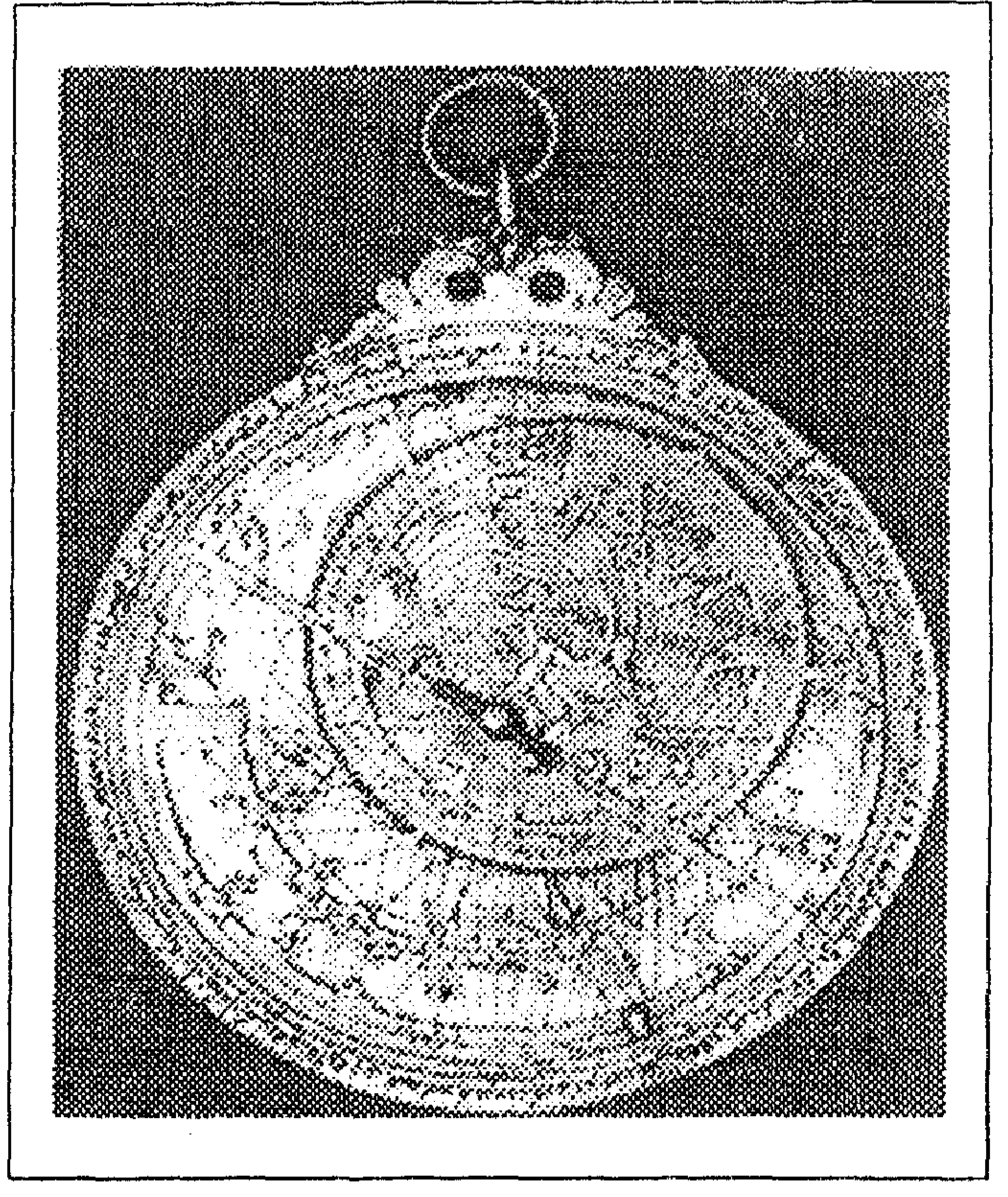
| ١٠٢ | أحمد باشا كور

١١٦٤هـ.
١٤٦٧ق.
١٧٥٠م.
غاية الفيضان: ٠٠ قيراط / ٢٤ ذراع

- فى محرم/ نوفمبر وصل مصر واليها الجديد شريف عبد الله باشا.
- ١ يناير ١٧٥١ = ٢٥ كيهك ١٤٦٧ = الجمعة ٣ صفر سنة ١١٦٤.
- فى ربيع أول / يناير ١٧٥١م كان ايجاد مهندسى القناطر والجسور فى فرانسا.
- فى ربيع ثان / فبراير، كان تأسيس المدرسة الحربية الفرنساوية فى سان دوماس.
- فى جماد أول / مارس كان بمصر سعر الأردب القمح ١٢٠ فضة، وطاقة الشاش ١١٠ فضة، ومقطع القماش ٦٠ فضة، والزر محبوب ١١٠ انصاف فضة.
- ١ توت سنة ١٤٦٨ = ١٠ سبتمبر ١٧٥١ = الجمعة ١٩ شوال ١١٦٤.

١١٦٥هـ.
١٤٦٨ق.
١٧٥١م.
غاية الفيضان: ١٣ قيراط / ٢٠ ذراع
- في محرم / نوفمبر، كان بمصر ثمن القنطار المسلى ٨٠ فضة، وثمن رأس الغنم كذلك.
- ١ يناير ١٧٥٢ = ٢٤ كيهك ١٤٦٨ = السبت ١٣ صفر ١١٦٥.
- في ربيع أول / يناير ١٧٥٢م أنشا الأمير عبد الرحمن كتخدا جامع رحبة عابدين برحبة عابدين.
- فيها ابتدأت الانجليز باستعمال التقويم الجريجورياني.
- في جماد أول / مارس، اكتشف فرنكلين مانعة الصواعق.
- ١ توت ١٤٦٩ = ٩ سبتمبر ١٧٥٢ = السبت ٢٩ شوال ١١٦٥.
- في ذو القعدة، سبتمبر، كان مايير أول من افتكر وتصور تكرار الزوايا.

وأعطاه بلاده من غير حلوان، وقال له «أنت صرت إشراقى» وذلك قبل وصول الملاقاة. ووصل خبر ذلك إلى مصر فأرسل المتكلمون إلى كتخدا الجاويشية يقولون له إن المذكور رجل ضعيف ولا يليق بالصنجقية، فقالوا للباشا ذلك فقال «قبل أن أطلع إلى بلدكم تعارضونى فى أحكامى وأنا مثل ما نصبته أكفيه» واغتاظ وقال «أنا أرجع من محل ما أتيت» فسكتوا ووصل إلى رشيد واجتمع هناك براغب باشا وسافر فى المركب التى حضر فيها أحمد باشا وحضر إلى مصر وطلع بالموكب المعتاد إلى القلعة فى غرة المحرم سنة اثنتين وستين ومائة وألف [١٧٤٨م]، وضربوا له المدافع والشنك من أبراج الينكجرية، وعمل الديوان وخلع الخلع على الأمرا والأعيان والمشايخ، وخلصت رياسة مصر وإمارتها إلى إبراهيم جاويش ورضوان كتخدا، وقلد إبراهيم جاويش مملوكه على أغا، وهو الذى عرف بالغزاوى، صنجقا، وكذلك حسين أغا وهو الذى عرف (ص ٤٧١) بكشكش، وكذلك قلد رضوان كتخدا أحمد أغا خازنداره صنجقا، فصار لكل واحد منهما ثلاثة صناجق وهم: عثمان وعلى وحسين الإبراهيمية، وإسماعيل وأحمد ومحمد الرضوانية. ثم إن إبراهيم جاويش عمل كتخدا الوقت ثلاثة أشهر وانفصل عنها، وحضر عبد الرحمن كتخدا القازدغلى من الحجاز وعمل كتخدا الوقت بباب مستحفظان سنتين، وشرع فى عمل الخيرات وبناء المساجد وأبطل الخمامير، وسيأتى تتمة ذلك فى ترجمته سنة وفاته، وأقام أحمد باشا فى ولاية مصر إلى عاشر شوال سنة ثلاث وستين ومائة وألف [١٧٤٩م]، وكان من أرباب الفضائل وله رغبة فى العلوم الرياضية، ولما وصل إلى مصر واستقر بالقلعة وقابله



الاسطرلاب المسطح، الذى كـان من اهـم الاجهزة التى استخدمها الفلكيون فى العصر الوسيط.

صدور العلماء فى ذلك الوقت وهم الشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الجامع الأزهر والشيخ سالم النفراوى والشيخ سليمان المنصورى، فتكلم معهم وناقشهم وباحثهم، ثم تكلم معهم فى الرياضيات فأحجموا «وقالوا لا نعرف هذه العلوم، فتعجب وسكت، وكان الشيخ عبد الله الشبراوى له وظيفة الخطابة بجامع السراية، ويطلع فى كل يوم جمعة ويدخل عند الباشا ويتحدث معه ساعة وربما تغدى معه، ثم يخرج إلى المسجد ويأتى إلى الباشا فى خواصه فيخطب الشيخ ويدعو للسلطان وللباشا ويصلى بهم ويرجع الباشا إلى مجلسه وينزل الشيخ إلى داره، فطلع الشيخ على عادته فى يوم الجمعة واستأذن ودخل عند الباشا يحادثه، فقال له الباشا «المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضايل والعلوم، وكنت فى غاية الشوق إلى المجى إليها

فلما جيتها وجدتها كما قيل (تسمع بالمعيدى خير من أن تراه) (ص٤٧٢)» فقال له الشيخ «هى يا مولانا كما سمعتم معدن العلوم والمعارف» فقال «وأين هى وأنتم أعظم علمائها؟ وقد سألتكم عن مطلوبى من العلوم فلم أجد عندكم منها شيئاً، وغاية تحصيلكم الفقه المنقول والوسائل، ونبذتم المقاصد» فقال له «نحن لسنا أعظم علمائها وإنما نحن المتصدرون لخدمتهم وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام، وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشىء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرايض والمواريث كعلم الحساب والعيار[٣] » فقال له «وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية بل هو من شروط صحة العبادة كالعلم بدخول الوقت واستقبال القبلة وأوقات الصوم والأهلّة وغير ذلك» فقال «نعم معرفة ذلك من فروض الكفاية، إذ قام به البعض سقط عن الباقين، وهذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية كرقة الطبيعة وحسن الوضع والخط والرسم والتشكيل والأمور العُطارِدية، وأهل الأزهر بخلاف ذلك غالبهم فقراء وأخلاط مجتمعة من القرى والآفاق فيندر فيهم القابلية لذلك» فقال «وأين البعض؟» فقال «موجودون فى بيوتهم يُسعى إليهم» ثم أخبره عن الشيخ الوالد وعرفه عنه وأطنب فى ذكره، فقال «ألتمس منكم إرساله عندى» فقال يا مولانا «إنه عظيم القدر وليس هو تحت أمرى» فقال «وكيف الطريق إلى حضوره؟» قال «تكتبون له إرسالية مع بعض خواصكم فلا يسعه الامتناع» ففعل ذلك وطلع إليه ولبى دعوته وسر برؤياه واغتبط به كثيراً، وكان يتردد إليه يومين (ص٤٧٣) فى الجمعة وهما السبت والأربعا، وأدرك منه مأموله وواصله

* أحمد باشا يهاجم علماء الأزهر بسبب تخلفهم العلمى.
والسؤال هنا.. لما لم يحاول هذا الباشا بعد أن عرف حالة المشايخ أن يساعد على رفع مستواهم العلمى بصفته المسؤل عن مصر؟.

١١٦٦هـ.
١٤٦٩ق.
١٧٥٢م.
غاية الفيضان: ١٧ قيراط / ٢٠ ذراع
- ١ يناير سنة ١٧٥٣ = ٢٥ كيهك سنة ١٤٦٩ = الاثنين ٢٥ صفر ١١٦٦.
- فى ربيع أول/ يناير ١٧٥٣م، كانت الأسعار بمصر رخية والأحوال مرضية.
- فيها عزل شريف عبد الله باشا. والى مصر، بعد أن حكمها ثلاث سنين. وتولى بعده محمد أمين باشا.
- كان إنشاء المتحف (أى دار الانتيكات) البريطانى.
- فى شوال/ أغسطس توفى والى مصر محمد أمين باشا، ولم يحكم إلا شهرين، فتولى عليها بعده مصطفى باشا.
- ١ توت ١٤٧٠ = ٩ سبتمبر ١٧٥٣ = الأحد ١١ ذو القعدة سنة ١١٦٦.

بالبر والإكرام الزائد الكثير، ولازم المطالعة عليه مدة ولايته، وكان يقول «لو لم أغنم من مصر إلا اجتماعى بهذا الأستاذ لكفانى» ومما اتفق له لما طالع (ربع الدستور) وأتقنه طالع بعده (وسيلة الطلاب فى استخراج الأعمال بالحساب) وهو مؤلّف دقيق للعلامة الماردينى، فكان الباشا يختلى بنفسه ويستخرج منه ما يستخرجه بالطرق الحسابية، ثم يستخرجه من التجييب فيجده مطابقا، فاتفق له عدم المطابقة فى مسألة من المسائل، فاشتغل ذهنه وتحير فكره إلى أن حضر إليه الأستاذ فى الميعاد فأطلعه على ذلك وعن السبب فى عدم المطابقة فكشف له علة ذلك بديها، فلما انجلى وجهها على مرآة عقلة، كاد يطير فرحاً وحلف أن يقبل يده ثم أحضر له فروة من ملبوسه السمور، باعها المرحوم بثمانمائة دينار، ثم اشتغل عليه برسم المزاول والمنحرفات حتى أتقنها، ورسم على اسمه عدة منحرفات على ألواح كبيرة من الرخام صناعة وحفراً بالأزمير [الأزميل] كتابة ورسماً، وعمل له تاريخاً منظوما نقشه عليها وهو هذا.

مـــــزولة مـــــتـــــقنة
نـظيـــــرها لا يـوجـــــد
راســمـهـا حـــاســبــهـا
هـذا الـوزير الأمـــجـــد
تـاريخـــهـــا أتقنهـــا
وزير مــــصــــر أحـــمـــد

ونصب واحدة بالجامع الأزهر فى ركن الصحن على يسار الداخل بالركن فوق رواق معمّر، وهى لفضل داير العصر والغروب، وأخرى بسطح جامع الإمام الشافعى وفيها خيط

١١٦٧ هـ.
١٤٧٠ ق.
١٧٥٣م.
غاية الفيضان: ١٧ قيراط / ٢٢ ذراع
- ١ يناير ١٧٥٤ = ٢٥ كيهك ١٤٧٠ = الثلاث ٦ ربيع أول ١١٦٧.
- فيها وقعت حروب بين الفرنساوية والانجليز فى كندا.
- فيها كانت معاهدة مادراس بين الفرنساوية والانكليز.
- فيها عصت اهالى قورسقة على الجنويزين.
- فيها اعيد ترتيب البرلمان فى باريس.
- ١ توت سنة ١٤٧١ = ٩ سبتمبر ١٧٥٤ = الاثنين ٢١ ذو القعدة ١١٦٧.
- فى ١٣ القعدة حصلت زلازل عظيمة فى الأستانة ومصر.



* مخطوط قبطي: صفحة ناقصة من انجيل مصرى قبطى، تمثل العماد في نهر الأردن. يرقى تاريخ الكتاب الى ١١٧٨ - ١١٨٠ وقد ترجمه من اليونانية ميخايل اسقف دمياط. المكتبة الوطنية باريس.

(ص٤٧٤) مساترة، وفضل داير، وقسى عصر، وفضل داير الغروب، وأخرى بمشهد السادات الوفائية وهى بشخص واحد للظهر والعصر وغير ذلك، وكان المرحوم الشيخ عبد الله الشبراوى كلما تلاقى مع المرحوم الوافد يقول له «سترك الله كما سترتنا عند هذا الباشا، فإنه لولا وجودك كنا جميعاً عنده حميراً» فرحم الله الجميع.

١٠٣ عبد الله باشا.

ووصل الخبر بولاية الشريف عبد الله باشا ووصل إلى سكندرية ونزل أحمد باشا إلى بيت البير قدار وسافرت الملاقاة للباشا الجديد ثم وصل إلى مصر في شهر رمضان سنة أربع وستين ومائة وألف [١٧٥٠م] وطلع إلى القلعة، فأقام في ولاية مصر إلى سنة ست وستين ومائة وألف، ثم عزل عن مصر وولى حلب فنزل إلى القصر بقبة العزب وهاداه الأمراء ثم سافر إلى منصبه، ووصل محمد باشا أمين

١٠٤ محمد باشا الأمين.

فطلع إلى القلعة وهو منحرف المزاج، فأقام فى الولاية نحو شهرين وتوفى فى خامس شهر شوال سنة ست وستين ومائة وألف، [١٧٥٢م] ودفن بجوار قبة الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه.

وفى هذا التاريخ أحضر بترك الأروام مرسوما سلطانياً يمنع طائفة النصارى الشوام من دخولهم كنائس الإفرنج، وإن دخلوا فإنهم يدفعون للدولة ألف كيس، فأرسل إبراهيم كتخدا فأخذ أربعة قسوس من دير الإفرنج وحبسهم وأخذ منهم مبلغاً عظيما من المال واستمر نصارى الشوام يدخلون كنائس الإفرنج ولعلها من تحيلات إبراهيم كتخدا.

ومن الحوادث أيضا فى نحو هذا التاريخ أن نصارى الأقباط قصدوا الحج إلى بيت المقدس، وكان كبيرهم إذ ذاك نوروز كاتب (ص٤٧٥) رضوان كتخدا، فكلم الشيخ عبد الله الشبراوى فى ذلك وقدم له هدية وألف دينار، فكتب له فتوى وجوابا ملخصه أن أهل الذمة لا يمنعون من دياناتهم وزياراتهم، فلما تم لهم ما أرادوا شرعوا في قضاء أشغالهم وتشهيل أغراضهم وخرجوا فى هيئة وأبهة وأحمال ومواهى، وتختروانات فيها نساؤهم وأولادهم ومعهم طبول وزمور ونصبوا لهم عرضيا(*) عند قبة العزب، وأحضروا العربان ليسيروا في خفارتهم وأعطوهم أموالا وخلعا وكساوى وإنعامات، وشاع أمر هذه القضية فى البلد واستنكرها الناس، فحضر الشيخ عبد الله الشبراوى إلى بيت الشيخ البكرى كعادته، وكان على أفندى أخو سيدى بكرى متمرضا، فدخل إليه يعوده فقال له «أى شيء هذا الحال يا شيخ الإسلام؟» على سبيل التبكيت «كيف ترضى وتفتى النصارى وتأذن لهم بهذه الأفعال لكونهم أرشوك وهادوك؟» فقال «لم يكن ذلك»

* الأقباط يجهزون لقافلة حاج إلى القدس فيعتدى عليهم المتعصبون.

* عرضيا: المقصود به هنا معسكر به عدة خيام للجند.

قال «بل أرشوك بألف دينار وهدية، وعلى هذا تصير لهم سُنّه، ويخرجون في العام القابل بأزيد من ذلك، ويصنعون لهم محملاً ويقال حج النصارى وحج المسلمين وتصير سُنّة عليك وزرها إلى يوم القيامة» فقام الشيخ وخرج من عنده مغتاظاً وأذن للعامة في الخروج عليهم ونهب ما معهم، وخرج كذلك معهم طايفة من مجاورى الأزهر فاجتمعوا عليهم ورجموهم وضربوهم بالعصى والمساوق ونهبوا ما معهم وجرسوهم ونهبوا أيضا الكنيسة القريبة من دمرداش وانعكس النصارى في هذه الحادثة عكسة بليغة وراحت عليهم وذهب ما صرفوه وأنفقوه في الهباء. (ص٤٧٦)

(وحضر مصطفى باشا) وطلع إلى القلعة ثالث عشر ربيع الأول سنة سبع وستين ومائة وألف [١٧٥٣م] واستمر واليا على مصر إلى أن ورد الخبر بعزله في أوائل شهر ربيع الأول سنة تسع وستين ومائة وألف، وولاية حضرة الوزير المكرم على باشا حكيم أوغلى[٤] وهى ولايته الثانية، وطلع إلى سكندرية ونزلت إليه الملاقاة وأرباب المناصب والعكاكيز، ثم حضر إلى مصر وطلع إلى القلعة يوم الاثنين غرة شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة وسار في مصر سيرته المعهودة وسلك طريقته المشكورة المحمودة، فأحيا مكارم الأخلاق، وأدرّ على رعيته الأرزاق، بحلم وبشر رُبى عليهما فكانا له طبعا وصدر رحب لا يضيق بنازلة ذرعا كما قيل.

خلق كماء المزن طيبٌ مذاقه
والروضة الغناء طيب نسيم
كالغيث إلا أن جود يمينه
أبدا * وجود الغيث غير مقيم

١٠٥ مصطفى باشا بلطجي.

١٠٦ على باشا حكيم (مدةثانية).
كانت نيابته الأولى عام ١١٥٣ = ١٧٤٠م والثانية عام ١١٦٩ = ١٧٥٥م.
وحضر في صحبته هذه أحمد البوشناقيذى عرف بعد ذلك باسم أحمد باشا الجزار والذى عمل بعد ذلك ى بلك الكبير. وكانزميلاً لمحمد بك أبو الدهب

* أبدا: المقصود أن جوده دائم للأبد.

كــالدهر لكن فـيــه حلم واسع
عــمن جنى والدهرُ غــيــرُ حليم
كــالســيف إلا أنه ذو رحــمــة
والسـيف قـاسي القلب غـيـر رحـيـم

واستمر في ولاية مصر إلى شهر رجب سنة إحدى وسبعين ومائة وألف [١٧٥٧م].

(ذكر من مات في هذه الأعوام من العلما والأعيان)

٢٣٢ محمد القليني.
ت / ١١٦٤ هـ = ١٧٥١م.

[مات] الإمام العلامة شيخ المشايخ شمس الدين الشيخ/ محمد القليني الأزهري، وكان له كرامات مشهورة ومآثر مذكورة منها أنه كان ينفق من الغيب لأنه لم يكن له إيراد ولا ملك ولا وظيفة ولا (ص٤٧٧) يتناول من أحد شيئا وينفق إنفاق من لا يخشى الفقر، وإذا مشى في السوق تعلق به الفقراء فيعطيهم الذهب والفضة، وإذا دخل الحمام دفع الأجرة عن كل من فيه. توفي سنة أربع وستين ومائة وألف.

٢٣٣ محمد بن أحمد العشماوي.
ت ١١٦٧ هـ = ١٧٥٤م.

[ومات] الشيخ الإمام الفقيه المحدث المسند/ محمد بن أحمد بن يحيى بن حجازي العشماوي الشافعي الأزهري، تفقه على الشيخ عبده الديوي والشهاب أحمد بن عمر الديربي، وسمع الحديث على الزرقاني، وبعد وفاته أخذ الكتب الستة عن تلميذه الشهاب أحمد بن عبد اللطيف المنزلي وانفرد بعلو الإسناد. وأخذ عنه غالب فضلاء العصر. توفي يوم الأربعاء ثاني عشرين جمادى الأولى سنة سبع وستين ومائة وألف ودفن بتربة المجاورين، وقال بعض شعراء الوقت وهو السيد حسين الإدكوي قصيدة فأنشدت وقت

١١٦٨ هـ.
١٤٧١ ق.
١٧٥٤ م.
غاية الفيضان: ٧ قيراط / ٢٣ ذراع
□ في ٢١ صفر كانت وفاة السلطان محمود الأول ابن السلطان مصطفى الثاني، وله من العمر ٦٠ سنة، حكم منها ٢٥ سنة، وفي ٢٨ منه تسلطن بعده السلطان عثمان خان الثالث ابن السلطان مصطفى الثاني.
□ ١ يناير سنة ١٧٥٥ = ٢٥ كيهك ١٤٧١ = الأربع ١٧ ربيع أول ١١٦٨.

□ فيها استولت الانكليز على ٣٠٠ سفينة تجارية فرنساوية.
* فيها كانت زلازل في كيتو وفي لسيون.
□ فيها كان اكتشاف اثار بوبمبيه
□ ١ توت ١٤٧٢ = ١٠ سبتمبر ١٧٥٥ = الأربع ٣ ذو الحجة ١١٦٨.

الصلاة عليه على الدكة مطلعها:

مـــا بين حـــرقـــة أدمـــعى وتولهى
نارٌ يؤجـــجـــهـــا لهـــيب تولهى
وحُـــشـــاشـــة ذابت وقلب كلمـــا
وجـــهـــتـــه للصـــبـــر لم يتـــوجـــه
يا حـــســـرتى والبين صـــال ومـــقلتى
في حَنْدس الغـــفـــلات لم تنتـــبـــه
حـــتى أباد القطب شـــمس الدين مَن
من بعـــده العلمـــاء لم تتـــفـــوه
يا أمـــة الاســـلام يا أهل الهـــدى
علمـــاءه من مـــبـــتـــدى أو منتـــهى
قد مات عشماويكم تباً لمن (ص٤٧٨)
بالمجـــد عن ثوب التـــأسف ينتـــهى
يا حـــزنُ دم يا دهرُ سم رتب التـــقى
من بعـــده وافـــعل بهـــا مـــا تشـــتـــهى
يا أرضُ مـــدى يا ســـمـــاء تشـــقـــقى
يا شـــمـــس نـوحى يا نجـــوم تأوهى
يا أعين الفـــضـــلاء في روض له
من بعـــــــــده بالله لا تـــتـــنزهـى
مَنْ بعـــدَه للتـــرمـــذىّ ومـــسـلم
أو للبـــخـــارىّ الصـــحـــاح الأوجـــه
مـات التُـقى والزهد معـّه قـد انطوى
في قـــبـــره من رامـــه لم يشـــبـــه
يارب عـــوض فـــيـــه ملة أحـــمـــد
خـــيـــراً به يا من إليـــه توجـــهى

١١٦٩ هـ.
١٤٧٢ ق.
١٧٥٥م.
غاية الفيضان: ١٧ قيراط/ ٢٢ ذراع
□ ١ يناير سنة ١٧٥٦ = ٢٤ كيهك ١٤٧٢ = الخميس ٢٨ ربيع أول ١١٦٩.
□ فيها كان ابتداء حروب السبع سنين.
□ فيها كان اتحاد الانكليز والبروسيا.
□ فيها عزل مصطفى باشا، بعد ان حكم مصر ثلاث سنين، وتولى بعده على باشا حكيم أوغلى، وهذه هى ثانية ولاية له على مصر.
□ فيها كان انهزام النمساويين في لو. أمام البروسيانين.
□ فيها كانت معاهدة فرساليه بين النمسا وفرانسا.
□ ١ توت ١٤٧٣ = ٩ سبتمبر ١٧٥٦ = الخميس ١٤ ذو الحجة سنة ١١٦٩

فـالشـافـعى نادى ليـوم مـصـابه
أواه ضـاع مـذهبى وتفـقـهى
ياروحـه فى جنة الفـردوس من
نعـم الإله تنعـمـى وتفكـهى
فى روضـة أرخـتـه بجـواره
لحـمـد مـهـمـا أحب ويشـتـهى

ولما بلغت هذه المرثية الشيخ أحمد الجوهرى، أنكر هذا الإطراء البالغ، وشدد على قوله (من بعده العلماء لم تتفوه) وقال «هو رفيقنا ونعرف ما عنده من البضاعة» وكأنه حصل له في نفسه مثل ما يحصل للمعاصر في معاصره، والله تعالى يعفو عن الجميع بإحسانه.

٢٣٤ سالم ابن محمد النفراوى.
ت / ١١٦٨ هـ = ١٧٥٥م.

[ومات] الشيخ الإمام العلامة/ سالم بن محمد النفراوى المالكى الأزهرى المفتى الضرير، أخذ عن الشيخ العمدة أحمد النفراوى الفقه، وأخذ الحديث عن الشيخ محمد الزرقانى والشيخ محمد (ص٤٧٩) بن علاء الدين البابلى ببيته بالأزبكية والشبراملسى وغيرهم، وكان مشهورا بمعرفة فروع المذهب واستحضار الفروع الفقهية، وكانت حلقة درسه أعظم الحلَق وعليه مهابة وجلالة. توفى يوم الخميس سادس عشرين شهر صفر سنة ثمان وستين وماية وألف.

٢٣٥ سليمان ابن مصطفى بن عمر المنير.
ت / ١١٦٩ هـ = ١٧٥٦م.

[ومات] الشيخ الفقيه المفتى العلامة/ سليمان بن مصطفى بن عمر ابن الولى العارف الشيخ محمد المنير المنصورى الحنفى أحد الصدور المشار إليهم، ولد سنة سبع وثمانين وألف بالنقيطة إحدى قرى المنصورة، وقدم الأزهر فأخذ عن

شيوخ المذهب كشاهين الأرمناوى وعبد الحى بن عبد الحق الشرنبلالى وأبى الحسن على ابن محمد العقدى وعمر الزهرى وعثمان النحريرى وفايد الإبيارى شارح الكنز، فأتقن الأصول ومهر فى الفروع ودارت عليه مشيخة الحنفية ورغب الناس فى فتاويه، وكان جليل القدر عالى الذكر مسموع الكلمة مقبول الشفاعة، توفى سنة تسع وستين ومائة وألف.

٢٣٦ عمر بن محمد ابن عبد الله الشنوانى
ت / ١١٦٧ هـ = ١٧٥٤م.

[ومات] الشيخ الإمام الفاضل الصالح الشاعر الأديب/ عمر بن محمد بن عبد الله الحسينى الشنوانى من ولد القطب شهاب الدين العراقى دفين شنوان، قرأ على أفاضل عصره وتكمل فى الفنون وألقى دروساً بالأزهر، توفى فى رجب سنة سبع وستين ومائة وألف.

٢٣٧ صالح الفلاح أو جلبى مؤسس بيت الفلاح.

[ومات] الأجل المكرم الحاج/ صالح الفلاح، وهو أستاذ الأمراء المعروفين بمصر المشهورين بجماعة الفلاح وينسبون إلى القازغلية، وكان متمولا ذا ثروة عظيمة وشح، وأصله غلام يتيم فلاح من قرية من قرى المنوفية (ص٤٨٠) يقال لها الراهب، وكان والده خادماً لبعض أولاد شيخ البلد فانكسر عليه المال فرهن ولده عند الملتزم وهو على كتخدا الجلفى ومعه صالح هذا وهما غلامان صغيران فأقاما ببيت على كتخدا حتى غلّق أبوه ما عليه من المال واستلم ابنه ليرجع به إلى بلده فامتنع صالح وقال «أنا لا أرجع إلى البلد» وألف المقام بيت الملتزم واستمر به يخدم مع صبيان الحريم، وكان نبيها خفيف الروح والحركة، ولم يزل يتنقل فى الأطوار حتى صار من أرباب الأموال، واشترى المماليك والعبيد والجوارى ويزوجهم من بعضهم ويشترى لهم الدور

١١٧٠ هـ.
١٤٧٣ ق.
١٧٥٦ م.
غاية الفيضان: ١٢ قيراط/ ٢٤ ذراع
- ١ يناير ١٧٥٧ = ٢٥ كيهك ١٤٧٣ = السبت ٩ ربيع الثانى ١١٧٠.
- فيها مات ابراهيم كيخيا فانتقلت الكلمة العتقائه.
- فيها انشأ الأمير عبد الرحمن كتخدا جامع الكردى بالحسينية.
- فيها كانت سيادة الانكليز فى الهند بعد حرب بلاسى.
- ١ توت ١٤٧٤ = ٩ سبتمبر سنة ١٧٥٧ = الجمعة ٢٤ ذو الحجة ١١٧٠.



والإيراد ويدخلهم في الوجاقات والبلكات بالمصانعات والرشوات لأرباب الحل والعقد والمتكلمين، وتنقلوا حتى تلبسوا بالمناصب الجليلة كتخدايات واختيارية وأمراء طبلخانات وجاويشية وأوده باشية وغير ذلك، حتى صار من مماليكه ومماليكهم من يركب في العذرات(٤) فقط نحو المائة، وصار لهم بيوت وأتباع ومماليك وشهرة عظيمة بمصر وكلمة نافذة وعزوة كبيرة، وكان يركب حمارا ويعتم عمة لطيفة على طربوش وخلفه خادمه، ومات في سن السبعين ولم يبق في فمه سن، وكان يقال له صالح جلبي والحاج صالح، وبالجملة فكان من نوادر الزمن، وكان يقرض إبراهيم كتخدا وأمراء بالمائة كيس وأكثر وكذلك غيرهم ويخرج الأموال بالربا والزيادة، وبذلك انمحقت دولتهم وزالت نعمهم في أقرب وقت، وآل أمرهم إلى البوار هم

بعض التحولات في النظام المملوكي في ظل الإحتلال العثماني

إن واحدة من أهم الفروق بين المجتمع المملوكي في ظل السلطنة المملوكية، والمجتمع المملوكي في ظل الإحتلال العثماني كان يتمثل في الأسماء التي حملوها. ففي ظل السلطنة المملوكية كانوا يحملون أسماءً تركيةً أو أسماءً أخرى غير عربية، بينما نجد أنهم في ظل الإحتلال العثماني يحملون أسماءً عربيةً وذلك فيما عدا بعض الأستثناءات القليلة.

إن هذا التحول في الأسماء كان أمراً لا مفر منه تحت الإحتلال العثماني وذلك لأن الطبقة الحاكمة العثمانية كانت تحمل أسماءً عربية بصفتها سلطة إسلامية، ومن ثم فإنه كان سيبدو أمراً شاذاً أن تسمح السلطة العثمانية بوجود طائفة مشاركة لها في الحكم تحمل أسماءً مثل «بيبرس»، «قلاوون»، «إينال» «قنصوه» «طومان باى»، وغير ذلك. ذلك أن هذه الاسماء بالإضافة إلى عمقها التاريخي وتمثيلها لعدو (في السابق) تم قهره، يشكل خروج عن النظام الإسلامي العام الذى تدعيه السلطنة العثمانية، وتمييزاً عن بقية رعايا السلطنة في مصر، بل أكثر من ذلك تميزاً عن رموز السلطنة العثمانية. ومن ثم وجد المماليك أنفسهم مضطرين لنبذ أسمائهم القديمة والتسمي بالأسماء العربية الإسلامية.

إن هذا التحول إلى الأسماء العربية يبدو أنه قد تم بسرعة كبيرة حتى أننا عندما نقرأ الجبرتي نجد أنه يخبرنا في بداية تاريخه بقائمة أسماء أهم خمسة عشر سنجق في مصر في بداية القرن الثاني عشر الهجري، لا نجد منهم سوى شخصاً واحداً يحمل اسم تركي هو «قنصوه» كما أنه عندما يذكر أسماء الأمراء الأربعون الذين قتلهم محمد علي في مذبحة القلعة المشهورة لا نجد منهم سوى اثنين يحملون أسماءً تركية هم شاهين ورستم. ومن الممكن أن نجد لدى الجبرتي أسماءً تركية أخرى «ايواظ»، «لاجين»، ولكنها في النهاية استثناءات لا قاعدة.

النتائج العملية للتحول نحو الأسماء العربية الإسلامية

إن التحول إلى الأسماء العربية فى ظل الحكم العثمانى ينم عن نتائج بعيدة المدى وذلك انه فى ظل السلطنة المملوكية كان ابناء المماليك «على عكس آبائهم» يتسمون بأسماء عربية.

وهكذا فإن الإسم العربى لإبن المملوك كان يستخدم كتعبير عن عزل الإبن وإبعاده عن الطبقة الحاكمة العليا، ومن جانب آخر بوصفه خطوة نحو التمصير واستيعابه فى إطار السكان المحليون.

وهكذا نجد أن حاجز الإسم قد انهار عن الطبقة المملوكية، مما شكل إلى جانب عامل آخر أكثر أهمية ـ وهو إنهيار منظومة الرق عبر السلطنة العثمانية فى أواخر عهدها ـ فى توطد نظام وراثة الابناء لمناصب الآباء فى ظل الاحتلال العثمانى.

يظهر ذلك واضحاً فى الامثلة الآتية:
عندما مات درويش بك نجد أن ايوب كاشف قد اصبح صنجقا بدلاً منه «لان ابن المتوفى كان لايزال صغيرا» تبعاً لما يقول الدمرداشى.

وعندما قتل أحمد بك فى أحد المعارك خلفه مملوكه على كتخدا الهندى لأن أحمد بك «ماله أولاد» كما يذكر الدمرداشى. وعندما مات كل من إيواظ بك وإبراهيم بك أبو شنب، أعتبر أنه من الطبيعى أن يخلفهم أولادهم، اسماعيل، ومحمد ابو شنب. بينما نجد أن أكبر مماليك إيواظ بك وإبراهيم بك بالرغم من كونهم قد وصلوا إلى رتبة صنجق قد اصبحا رسميا مجرد مؤيدين وحماة لأبناء سادتهم المتوفين كما ذكر الدمرداشى.

كما أن بعض المماليك تولى عددا من اولادهم منصب الصنجقية. ونظراً لأن الأمراء المماليك كانوا يموتون فى سن مبكرة فإننا نجد اولادهم يصلون عادة إلى منصب الصنجقية فى سن صغيرة ومن أمثلة ذلك

(١) اسماعيل بن ايواظ، الذى تولى منصب والده وهو فى سن الثالثة عشرة، ومات فى



وأولادهم وبواقيهم لذهاب ما فى أيديهم، وصاروا أتباعا وأعواناً للأمراء المتأخرين. (ص٤٨١)

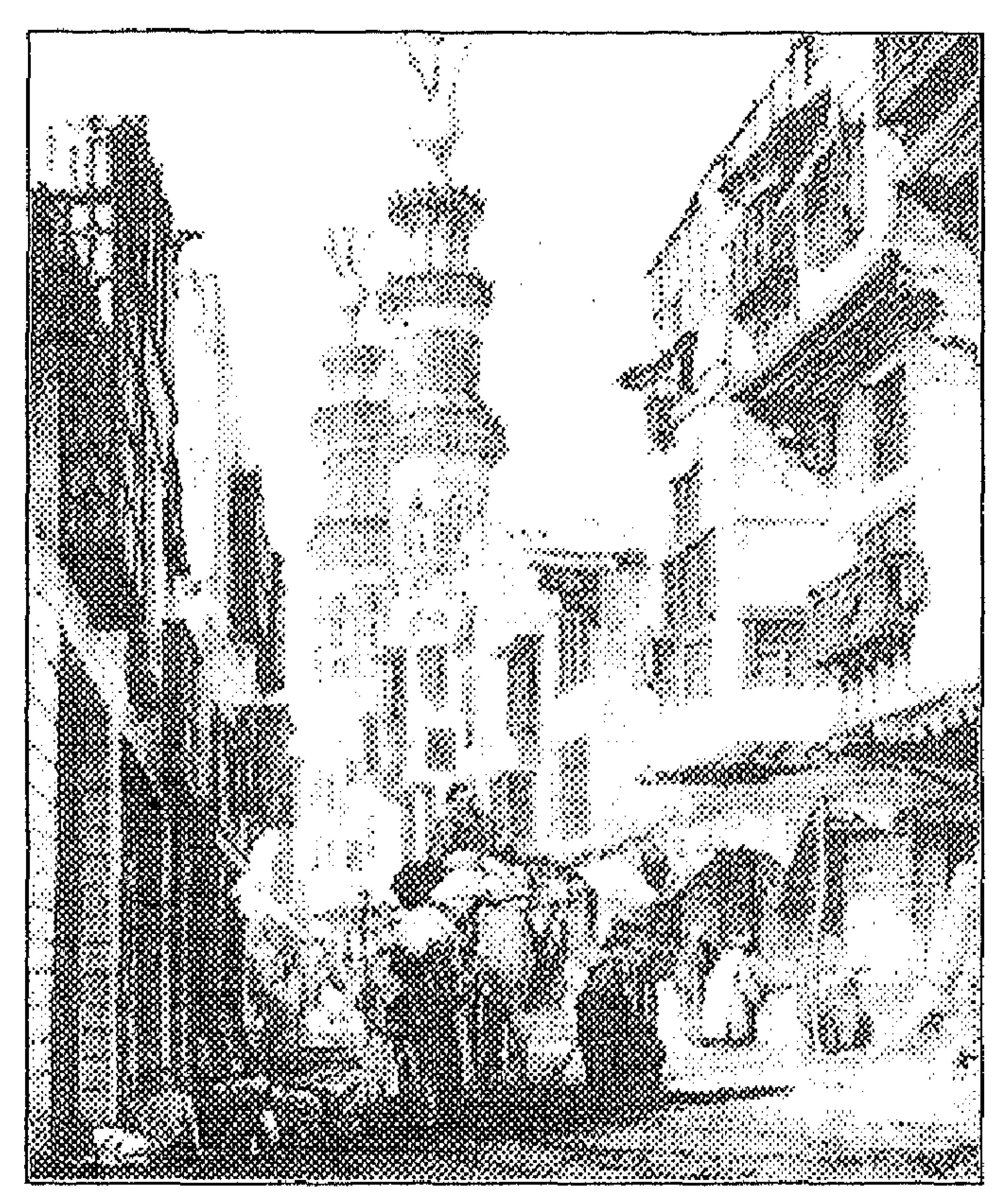
٢٣٨ ابراهيم كتخدا والد عبد الرحمن كتخدا الكبير.

[ومات] الأمير إبراهيم كتخدا تابع سليمان كتخدا القازغلى، وسليمان هذا تابع مصطفى كتخدا الكبير القازغلى، وخشداش حسن جاويش أستاذ عثمان كتخدا والد عبد الرحمن كتخدا المشهور، لبس الضلمة فى سنة ثمان وأربعين ومائة وألف وعمل جاويشا وطلع سردار قطار فى الحج فى إمارة عثمان بك ذى الفقار سنة إحدى وخمسين ومائة وألف، وفى تلك السنة استوحش منه عثمان بك باطنا لأنه كان شديد المراس قوى الشكيمة، وبعد رجوعه من الحج فى سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف نما

ذكره وانتشر صيته، ولم يزل من حينئذ ينمو أمره وتزيد صولته وتنفذ كلمته، وكان ذا دهاء ومكر وتحيل ولين وقسوة وسماحة وسعة صدر وتؤدة وحزم وإقدام ونظر في العواقب، ولم يزل يدبر على عثمان بك، وضم إليه كتخداه أحمد السكرى ورضوان كتخدا الجلفى وخليل بك قطامش وعمر بك بسبب منافسة معه على بلاد هوارة كما تقدم حتى أوقع به على حين غفلة، وخرج عثمان بك من مصر على الصورة المتقدمة، فعند ذلك عظم شأنه وزادت سطوته واستكثر من شراء المماليك وقلد عثمان مملوكه الذى كان أغات متفرقة صنجقا وهو أول صناجقه، وهو الذى عرف بالجرجاوى، ولما قتل خليل بك قطامش وعمر بك بلاط وعلى بك الدمياطي ومحمد بك في أيام راغب باشا بمخامرة حسين بك الخشاب، ثم حصلت أيضا كاينة الخشاب وخروجه ومن معه من مصر وزالت دولة القطامشة والدمايطة والخشابية، وعزلوا راغب باشا في أثناء ذلك كما تقدم، فعند ذلك انتهت رياسة مصر وسيادتها للمترجم وقسيمه رضوان كتخدا الجلفى، (ص٤٨٢) ونفذت كلمتهما وعلت سطوتهما على باقى الأمراء والاختيارية الموجودين بمصر، وتقلد المترجم كتخدائية باب مستحفظان ثلاثة أشهر ثم انفصل عنها، وذلك كما يقال لأجل حرمة الوجاق، وقلد مملوكيه عليا وحسينا صنجقين وكذلك رضون كتخدا كما سبق، وصار لكل واحد منهما ثلاثة صناجق واشتغل المترجم بالأحكام وقبض الأموال الميرية وصرفها في جهاتها، وكذلك العقوبات وغلال الأنبار ومهمات الحج والخزينة ولوازم الدولة والولاة، وقسيمه رضوان كتخدا مشتغل بلذاته ومنهمك على خلاعاته، ولا يتداخل في شيء

سن العشرين. (٢) مرزوق بك ابن ابراهيم بك، أصبح صنجقا في حياة أبيه، بينما كان لايزال طفلاً «طفل صغير ومعه الدادة والمرضعة» وقد قتل في مذبحة القلعة.

وهكذا تم ضم أبناء المماليك إلى الطبقة الحاكمة العليا مما جعلها ذات طبيعة مختلفة عن الطبقة المملوكية في ظل سلطنة المماليك، ودعم مبدأ الوراثة الذى انسحب حتى على نظام الملكية بدلاً من ملكيات الألتزام للبيت المملوكى في أواخر القرن الثامن عشر مما شكل النواة الأولى لبداية ظهور الملكية الخاصة التى سرعان ما عصف بها نظام محمد على والحملة الفرنسية من قبله.

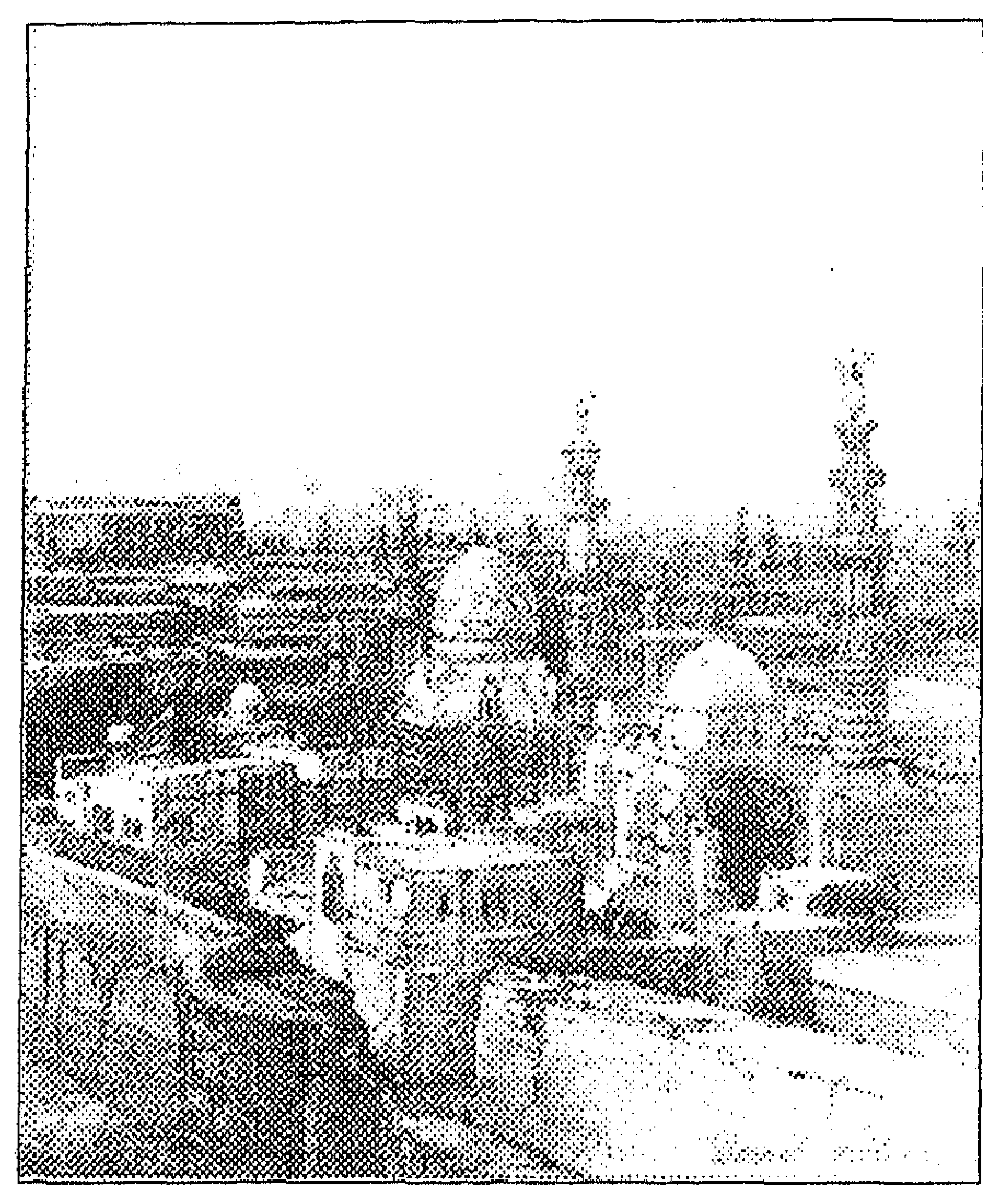


جامع المؤيد

مما ذكر، والمترجم يرسل له الأموال ويوالى بر الجميع، ويراعى خواطرهم وينفذ أغراضهم، وعبد الرحمن كتخدا مشتغل بالعمائر وفعل الخيرات وبناء المساجد، واستكثر المترجم من شراء المماليك وقلدهم الإمريات والمناصب، وقلد إمارة الحج لمملوكه على بك [الكبير] وطلع بالحج ورجع سنة سبع وستين ومائة وألف، وفى تلك السنة نزل على الحجاج سيل عظيم بمنزلة ظهر حمار (*) فأخذ معظم الحجاج بجمالهم وأحمالهم إلى االبحر ولم يرجع من الحجاج إلا القليل.

* ظهر حمار: اسم موضع بالحجاز على طريق الحج.

ومما يحكى عنه أنه رأى فى منامه أن يديه مملوءتان عقارب، فقصها على الشيخ الشبراوى فقال «هؤلاء مماليك يكونون مثل العقارب، ويسرى شرهم وفسادهم لجميع الناس فإن



* منظر عام للقاهرة.

العقرب لدغت النبى صلى الله عليه وسلم فى الصلاة فقال صلى الله عليه وسلم (لعن الله العقرب لا تدع نبيا ولا غيره إلا لدغته) وكذا يكون مماليكك» وكان الأمر كذلك، وليس للمترجم مآثر أخروية ولا أفعل خيرية (ص٤٨٣) يدخرها فى ميعاده، ويخفف عنه بها ظلم خلقه وعباده، بل كان معظم اجتهاده الحرص على الرياسة والإمارة، وعمر داره التى بخط قوصون بجوار دار رضوان كتخدا، والدار التى بباب الخرق وهى دار زوجته بنت البارودى والقصر المنسوب إليها أيضا بمصر القديمة والقصر الذى عند سبيل قيماز بالعادلية، وزوج الكثير من مماليكه نساء الأمراء الذين ماتوا وقتلوا وأسكنهم فى بيوتهم، وعمل وليمة لمصطفى باشا وعزمه فى بيته بحارة قوصون فى سنة ست وستين ومائة وألف وقدم له تقادم وهدايا، وأدرك المترجم من العز

والعظمة ونفاذ الكلمة حسن السياسة واستقرار الأمور ما لم يدركه غيره بمصر، ولم يزل فى سيادته حتى مات على فراشه في شهر صفر سنة ثمان وستين ومائة وألف.

٢٣٩ رضوان كتخدا الجلفى صاحب رسالة قاهر وجوة العاسة فى ذكر نسب الجراكسة

[ومات] بعده رضوان كتخدا الجلفى وهو مملوك على كتخدا الجلفى تلقد كتخدائية باب عزبان بعد قتل أستاذه بعناية عثمان بك ذى الفقار كما تقدم، ولم يزل يراعى لعثمان بك حقه وجميلته حتى أوقع بينهما إبراهيم كتخدا كما تقدم، ولما استقرت الأمور له ولقسيمه ترك له الرياسة فى الأحكام واعتكف المترجم على لذاته وفسوقه وخلاعاته ونزهاته، وأنشأ عدة قصور وأماكن بالغ فى زخرفتها وتأنيقها وخصوصاً داره التى أنشأها على بركة الأزبكية، وأصلها بيت الدادة الشرايبى وهى التى على بابها العامودان الملتفان المعروفة عند أولاد البلد (بثلاثة وليه). وعقد على مجالسها العالية قباباً عجيبة الصنعة منقوشة بالذهب المحلول واللازورد والزجاج الملون والألوان (ص٤٨٤) المفرحة والصنايع الدقيقة، ووسع قطعة الخليج بظاهر قنطرة الدكة بحيث جعلها بركة عظيمة وبنى عليها قصراً مطلا عليها وعلى الخليج الناصرى من الجهة الأخرى. وكذلك أنشأ فى صدر البركة مجلساً خارجاً بعضه على عدة قناطر لطيفة وبعضه داخل الغيط المعروف بغيط المعدية، بوسطه بحيرة تمتلئ بالماء من أعلى وينصب منها إلى حوض من أسفل ويجرى إلى البستان لسقى الأشجار، وبنى قصراً آخر بداخل البستان مطلا على الخليج وعلى الأملاق(*) من ظاهره، فكان يتنقل فى تلك القصور وخصوصا فى أيام النيل ويتجاهر بالمعاصى والراح والوجوه الملاح وتبرج النساء ومخاليع أولاد البلد. وخرجوا عن الحد

* الأملاق: يقصد هنا الفضاء الممتد فيما يلى الخليج.

فى تلك الأيام، ومنع أصحاب الشرطة من التعرض للناس فى أفاعيلهم فكانت مصر فى تلك الأيام مراتع غزلان ومواطن حور وولدان، كأنما أهلها خلصوا من الحساب، ورُفع عنهم التكليف والخطاب، وهو الذى عمر باب القلعة الذى بالرميلة المعروف بباب العزب، وعمل حوله هاتين البدنتين العظيمتين والزلاقة على هذه الصورة الموجودة الآن، وقصدته الشعراء ومدحوه بالقصايد والمقامات والتواشيح، وأعطاهم الجوايز السنية وداعب بعضهم بعضا، فكان يغرى هذا ويضحك منهم ويباسطهم، واتخذ له جلساء وندماء منهم الشيخ على جبريل والسيد سليمان والسيد حمودة السديدى والشيخ معروف والشيخ مصطفى اللقيمى الدمياطى صاحب «المدامة الأرجوانية فى المدايح الرضوانية»* ومحمد أفندى المدنى، وامتدحه العلامة الشيخ يوسف الحفنى بقصائد طنانة، وللشيخ عمار القروى (ص٤٨٥) فيه مقامة مدحا فى المترجم ومداعبة للسيد حمودة السديدى المحلاوى، وأجابه بأبلغَ منها مقامة وقصيدة من رويّها أديبُ العصر الشيخ قاسم بن عطاء الله الأديب المصرى، والأديب الفاضل الشيخ عبد الله الإدكاوى والعلامة السيد قاسم التونسى، وألف فيه الشيخ عبد الله المذكور كتابا سماه الفوايح الجنانية فى المدايح الرضوانية، جمع فيه ما مدح به الأمير رضوان كتخدا من قصايد ولطايف وتواشيح (فمن ذلك) مزدوجة الأديب قاسم* ولنُدرتها ورقتها أوردتها فى هذا المجموع وهى:

* انظر نص «المدامه الارجوانية فى المدايح الرضوانية» فى ترجمة مصطفى اللقيمى رقم «٢٦١». وهو يسميها «المدامه الارجوانية فى المقامة الرضوانية».

* هو قاسم بن عطا الله: انظر ترجمته فى الجزء الثالث.

أحـمـد مـولى مـسـتـحق الحـمـد
مـفـتـتـحـا كـتـابه بالحـمـد
وحـيـا على تكرار مـيم الحـمـد
فـهـو الذى حـاز لواء الحـمـد
وسيلتى مدحى له وحمدى
بكرت يومـا والهـوى مطيـعى
أرض الـربـا فـى زمـن الـربـيـع
أذابهـا فى زخـرف بديع
تزهـو بثـوب سندس وسـيـع
فى حسن وصفهما استمع ما أبدى
بـكـت بِـدمـع الـطـل عينُ الـنـرجس
فـأضـحكت ثغـر الأقـاح*الألـعـس*
والورد يزهـو باحـمـرار الملبس
مـفـتَّـحـا أطواقـه بالمجلس
قد أرِجَ* الروضُ بنشر الند
روض به مـاء الحـيـاة جـارى
خُـضْـر النبـات منه بالجـوار
فـيـه خـيـال الورد باحـمـرار
يُـرى لـه فـى المـاء زنـدوارى
وعجب فى الماء قَدْح الزند
حـديقـة بهـا السـرور محـدق
جـدولهـا مـسلسل منطلق
فى جـوه نجم الزهور مـشـرق
والبـان ظله غـدا يسـتـرق
من وجنه الماء احمرارَ الورد (ص٤٨٦)

* أقاح: جمع (اقحوان) وهو نبت طيب الريح و(الألعس) الكثيف الكثير من النبات.

* الألعس: يقال نبات ألعسّ أى كثير كثيف (القاموس المحيط).

* أرج: أى فاحَتْ منه رائحة طيبة والنشر بمعنى الريح الطيبة والند بفتح النون (الطيب) فيكون المعنى أن الروض قد فاحت منه رائحة الطيب.

ظل لطاف قُضبها يا قارى
كأنه الأقلامُ جلّ البارى
كتب فى طرس* الغدير السارى
ما حفظته من غنا الأطيار
نقطها الطل بدرّ العقد
أما ترى الدُرّ بدا للحدَقِ*
كللَ تيجانَ رءوس الورق
وقد حَكى النهرُ بظل الزَنْبق*
خد السما مورداً بالشفقِ
كلاهما بالورد زاهى الخدّ
لما حكى الغدير للسماء
لاح به السماك فى ضياءِ
من فوقه صارت يد الهواء
تنصب للصيد شباكَ الماء
برقة لم تستطعها الأيدى
شباكُ در ولُجين تُنسجُ
لجوهر الألباب فيها فرجْ
بها شعاع الشمس حين يهج
بعسجد ترى اللجين يمزج
ليخطف الأبصار عند النقد
تجائبُ السحب بجند الودْق*
أرسلها الغرب لحرب الشرْق
لنحوه تراسلت بالسبق
وكلما سُلت سيوفَ البرق
يصهل فى الملك جواد الرعد
يجول فى الملك بأمر المَلك
وكأنه الفُلك ببحر الفلكِ

* الطرس: بكسر الطاء الصحيفة.

* الحدَقُ بفتح الدال جمع (حدَقة) وهى السواد الأعظم للعين.

* الزنبق (بفتح الزاى والباء) نبات له زهر جميل طيب الرائحة.

* الودْق: المطر.

قَــــسْطل* الشَـبـور للمـعــتـرك
مــحــتــبك من تحت ذات الحـبْكْ
والقطر موصول المدى بالمد
وحـوصـرت شـمـس الضـحى بالأفق
بعـسـكر سـد جـمـيع الطرق
وبالدمـا غُط قـمـيصُ الشـفق
وانـفـلـقـت هـام الـدجـى بـالـفـلـق
ومنه حل عقدها ببند
وابتـهج الشـرق على الظلمـاء
بالصـبح صـاحب اليـد البـيـضـاء
أخـرجـهـا من حلة الدجـاء
من غـيـر سـوء قـد بدت للرائى
لسحر آية الدجى المسودّ
وقـد بدا الصـبح وللجـوّ صـعَـدْ
وأصبحت قضب الرياض فى مَيد (ص٤٨٧)
ممتطيـات الُبـرد من در البَـردْ
وكل يابس غـدا رطب الجـسـد
وفتحتْ عينُ الزهور الرمدْ
بـاكـر صـبـوح روضـة الزَهور
فـأبرك الأشـيـاء فى البـكور
ورد عـلـى اللـذات والسـرور
واتـرك هـوى وسـاوس الصـدور
فمِنهل اللذات عذب الورْد
مـا حـسن الصَـبـوح فى الصـبـاح
والسـكرَ فـى روض الربـا يا صـاح
عـلـى خـدود الورد والتـفـاح
والـريـح تدنى مـبـسـم الاقـاح
للثم هاتيك الخدود الوُرْد*

* القسطل:غبار الحرب.

* الوُرْد بضم الواو وسكون الراء مفردها (ورد).

والـــــورق مـــذغنت على العيـــدان
بلينِ قَـــدِ مـــاسَ غـــصنُ البـــانِ
والآسُ فـــوق وجنة النعـــمـــان*
من ذا رأى الجنـاتَ فى النيـــــران
عجبت للتأليف بين الضدِّ
وانظر إلى تلهب الشـــقـــيـــقى
غـــيظا على لينوفــــر غـــريق
يُومى لبنت الكرم بالتـــعنيق
وبل إلى الرمـــان بالتـــحـــقـــيق
تراه في صدر الربا كالنهدِ
أكـــــــرمْ ببنتَ الكرم والدوالى
من الهـــمـــوم غـــرســـهـــا دوا لى
بهـــا يطوف مـــخـــجَل الغـــزال
كـــالشـــمس تُجلى فى يد الهـــلال
تَقارنا فى أفْقِ خان السعدِ
يرى من الســـاقى ومنهـــا عـــجبُ
إذا بدت فى كـــاســـهـــا تلتـــهب
كـــأنهـــا من خـــده تنسكبُ
وإن يكن لكل خـــمـــر حَـــببُ
فَعرَق الجبين دراً يبدى
للـه مـــا أبـهى ومـــا أسناهـا
فى كـاسـهـا كـالشـمس فى مـرآها
يســعى بهـــا البـــدر وقـــد أدناها
من شـــفـــتـــيـــه اللعس مـــا أحـــلاها
إذا مزجت من ريقه بالشهدِ
شـــعـــاعـــهـــا سطا على الندمـــان
ســاوى شـجــاع العـقل بالجـبـان

* الورْقاءُ هى الحمامة وجمعها (وُرْق) بضم الواو وسكون الراء.
* النعمان: يريد (شقائق النعمان) وهى زهر أحمر أضِيف إلى النعمان بن المنذر لأنه نزل شقائق رمْلٍ قد أنبتت هذا الزهر فاستحسنه فامر أن يحمى له فاضيفت إليه وسميت شقائق النعمان.

* اللَيْنُوفر (أو النيلُوفَر): نوع من النبات ينبت في المياه الراكدة، له أصله كالجذر وساق أملس يطول حسب عمق الماء، فإذا ساوى سطحه أورق وأزهر.

* بنت الكرم شجرة العنب والدوالى نوع من العنب، أما دوالى الثانية ففيها جناس لفظى أصلها (دواءٌ لى).



وجـــالت الحـــمـــراء فى الميـــدان

بين صـــفـــوف صـــحـــبـــة القنانى

(ص ٤٨٨) كأنها من الدما فى بُردِ

مليكة لطيـــــفـــــة المزاج

تـخـــتـــال فى بردٍ من الديبـــاج

على جـــوادَ أشـــهب الزجـــاج

ببـــهـــجـــة احـــمـــرارها الوهاج

تحكى خدود قاتلى بالصد

غـــصـين بان خـــده نـزيهُ

فـــريدُ حـــسن مـــاله شـــبـيـــهُ

يميس فى روض البَـــهـــا يتـيـــهُ

ظبى النـقـــا* مـــستـيـقظ نبيـه

بالمقلة النعسا لصيد الأُسد

* النقا: كثيب الرمل.



من دعجة الحور سباها الحورُ

في مهجتي بها أصابَ القدرُ

طلبت حين لم يُفدني الحذرُ

منهم أمانا في الهوى لي غدروا

مع أنني عن غيرهم في زُهد

لا تنكروا بعد الحجا جنوني

تهتكي في ذلك المصون

وحدثوا أن تصفوا شجوني

به عن البحر وعن عيوني

بدمعها لم تُطف نارَ وجدي

نقيطة خاله* سحيقَ المسك

من فوق خد للهيب يحكي

* خاله: الخال شامةٌ في البدن أي بثرة سوداء ويغلب على شامة الخد وجمعها خيلان.

للقلب حتماً يدعى بالمُلْك

واستعبدتنى عين ذاك التركى

لما غزانى جَفْنُها بهندى

أبحته قلبى وجفنى سكنا

لما أرانى منه وجهاً حسنا

وطرفه الساحرُ لما أن رنا

بسحره كليمَ قلبى فَتنا

ولم يجد عن طوعه من بُد

كوكب حسن مشرق لم يأفلِ

ألحاظه قد جردت سيفَ على

مهفهف من غيره القلب خلى

والسر فى السكان لا فى المنزلِ

فأينما كنتُ حبيبى عندى

مَطَلبُ خده بعيد الطلب

فى كتب الحسن أتى بالعجب

مصباحه يتلو شذور الذهب

والعقد فى حلية ثغرٍ أشنب

عقيانُه لاحت كنجم السعد (ص٤٨٩)

أنعم بلون خده المنير

مشرّب عنه روى الحريرى

وباهتزاز عِطفه النضير

يسكرنى النسيمُ بالعبير

لذاك أعشَق الصبًا والنجدى

البارق النجدى الذى تبسمْ

من ثغر قدِ ذكر المتيم

من كحل الجفن له من نظم

لو تم سعدى فى الهوى واستحكم

كان الزمان ما قضى ببعد

بخـــــــده وقـــــــده المران
عـــرّفنى ظبىَ النقـــا والبـــان
قـــاني البـهـــا ربٌّ الخـــديد القـــانى
ليس لعطْفـــــه الفـــــريد ثانى
يميل ميلات الغصون المُلد
روضُ زهـا بمشـــــــرق الأزهـار
واســـتـبـــدل الدرهم بالدينار
ســقـتـــه مـاءُ المزن فى الأسـحـار
مـن دَرّهـا فـــــــأنبت الدرارى
تبارك الله المعيدُ المبدى
جـــاء الربيعُ والزمـــان اعـــتـــدلا
وألبس الغـــصن من الزهر حُـــلا
والطيـــرُ ضـمنت غناها مـشـــلا
إنشـادها مــولى لقـــد حـاز عـــلا
للكتخدا رضوان ربٌّ المجد
أمـــيـــر مـــجـــد أوحـــدُ الزمـــان
يفـــوق مـــعنى كـــامل المعـــانى
لو شـــام برقٌ ســيـــفَـــه اليـــمـــانى
عنتـــر فى ألف من الشـــجـــعـــان
قال اللقا فى الحشر يا ابن وُدّى
بحـــــر الندى قـــــد ألفَ المزيدا
أضـــحى ســريع جـــوده مـــديدا
خليـــفـــة الوقت غـــدا فـــريدا
ولم يزل مـــوفـــقـــا ورشـــيـــدا
فى كل رأى للصواب مهدى
صـــاعـــد أهل المجـــد رفـــقـــا فـــرقـــا
والأســـدُولّت من سطاه فـــرَقـــا

مــجــمــعــا من دهره مــا فــرَقــا
أصــبح شــملُ حــاســديه فِــرقَــا
والناس بين رفقه والرفد
تراه للأحــــبـــاب فـــاق الوالدا
وللعــدا مـجـادلا مـجـالدا (ص٤٩٠)
أرجــوه يحــيــا فى الســرور خــالدا
فى الجـــود أعنى طارفــــاً وتالدا
وكل منسوب له فى الوُدّ
رَوْع العـــدى للأصــدقــا يراعى
يراعُـــه للعَـــضْب* واليـــــراع
همـــتـــه للســـبع فى ارتفـــاع
دع عنك ســبع القـــاع بالبــقـــاع

العضْب: السيف القاطع.

عـــالى الذرى أعـــداؤه فى الدرك
إذا سطا فـــمـــا الحـــيـــاة دركى
ليث الشرى فى الحــرب مـثل الشـرك
يرى الملا فى اللطف لطف الملك
لحسن وجهه بروحى أفدى
دع علـة التـــعليـل بالأمـــانى
واقـــصــد حــمى الموصــوف بالأمـان
وانف لبـــاس البــؤس والأحــــزان
واســأل عن النعــيم من رضـــوان
قل ما تريد لا تخفْ من رَدّ
لُذْ بأبى الفـــوز من المخــــاف
ومن بجـــوده يعـــانى العـــافى
تفـــوز بالأمن وبالإســـعـــاف
عـــزيز مـــصـــر كـــامل الأوصـــا
بيت القصيد بالغاً للقصد

حليكنا جلت لنا أوصــــافُــــه

لم يَبْــد فى غــيــر العطا إســرافــه

ضـــيـــاؤه قـــرت به أضـــيـــافُـــه

تفــعل فى جـيش العــدا أسـيــافـه

ما يفعل الصرصريوم الحصْد

همــامِ عــصــر غــيث جــود هامى

نـامـى الـعـطـا لــســـــائـر الأنـام

مـــواصل الـنـعـــيم بالإنـعـــام

بقـــيـــــة الـدهـر من الكَـرام

أحيا وجود الجود بعد الفقد

ســاد الورى عـــدلاً له روحى الفـــدا

فكم به من شـــاهدٍ للكتـــخُـــدا

روحى الفــدا للكتــخــدا بحــر الندا

ومن غـــدا على الكرام ســـيـــداً

فى عصره وماله من ضدّ

عـفـيفُ أخــلاق عن الجـانى عــفــا

تخـافـه الأســدُ ومــا فــيــه خــفــا

خــفـيفُ روح كــالنســيم مــا هفــا

ألذ للعـــشـــاق من ترك الجــفـــا

(ص٤٩١) ومن وفاء الوعد بعد البعد

كــوكبُ مــجــدِ نوراً مــشــرقــا

يزهـو بأفق العـــز فى طول البــقـــا

روضُ النقـــا فـــلا يزال مُـــورقـــا

لا بالقـــلا تراه فى يوم اللقـــا

طلق المحُيا والحمى والأيدى

أدامه الله برغم الشانى
عزيزَ جاه وعلىّ الشان
جمعاً بمن يحبُّ فى أمان
متابعاً للحسن بالإحسان
رضوانه مؤيدٌ بالخلد
يا جنة الفنون والأفنان
محفوظة من طارق وجانى
نسيمها بالروح والريحان
يهدى الشذا للملك الرضوان
بهجة نَدْ مالها من نِدّ
مجلس أنس دام فى إشراقه
تبدو شموس الحسن فى آفاقه
روض تروض الورقُ فى أوراقه
قد حفظ الحفظ على طباقه
وقد حوى كلّ مجيد مجدى
معروفه عمّ جميع الخلق
والجبرُ لى منه قبول صدق
كأنها يا مالكا للرقّ
شمس ولكن لم تزل بالشرق
برهانها قال النجوم جندى
خريدة فريدة فى الآن
شبابها يهزأ بالشيبان
فهاكها فى ملبس التهانى
واذكر بها هرون وابن هانى
واعجب لها من ازدواج الفرد
شاهدة للمقّرى بالفضل
والطل منسوب لجود الوبل

قــد تفــعل العــصــاة فــعل النصل

واجـــــزء أدنى من فـــــوات الكـل

كم حسنُ سبك أذهب التعدّى

حـــديقـــة الســـرور والأســـرار

نـضـــيـــرة الزهـور كـــالنُضــــار

جــاءت وليس الشـعـر من شـعـارى

تـقــــول للزّجـــــاج لا تمـارى

ماذا تقول يا بعيد بَعدى (ص٤٩٢)

تمت مـعــانيــهـا بحـسـن أكـمـل

مـــــثل الزهـور فى الرياض تـنجلى

قـد بشـرت بـصـفـو عـيشٍ مـقبل

مــــذأرخت زاكى حـــــفظ لعلى

أحمدُ مول مستحقٌ الحمد

وله فيه توشيح عارض به لسان الدين بن الخطيب الأندلسى رحمه الله ومطلعه:

ترك الهـــجـــر ووافـى كــــرمـــا

بعــدمــا كــان لعــهــدى قــد نسى

أهيـفُ القـــد كـــغــصـنٍ عَلِـمــا

مـن نـســـيــم الـروض فـى الميَس

مـفـرد فى الحـسـن ثنّى مـعــجــبـا

ألـف الـقـــــد بشـكـل حـــــسـن

غـــصـن بان هزّه ريح صـــبــــاَ

خـــــدُّه يـزهـو عـلـى الـورد الجنـى

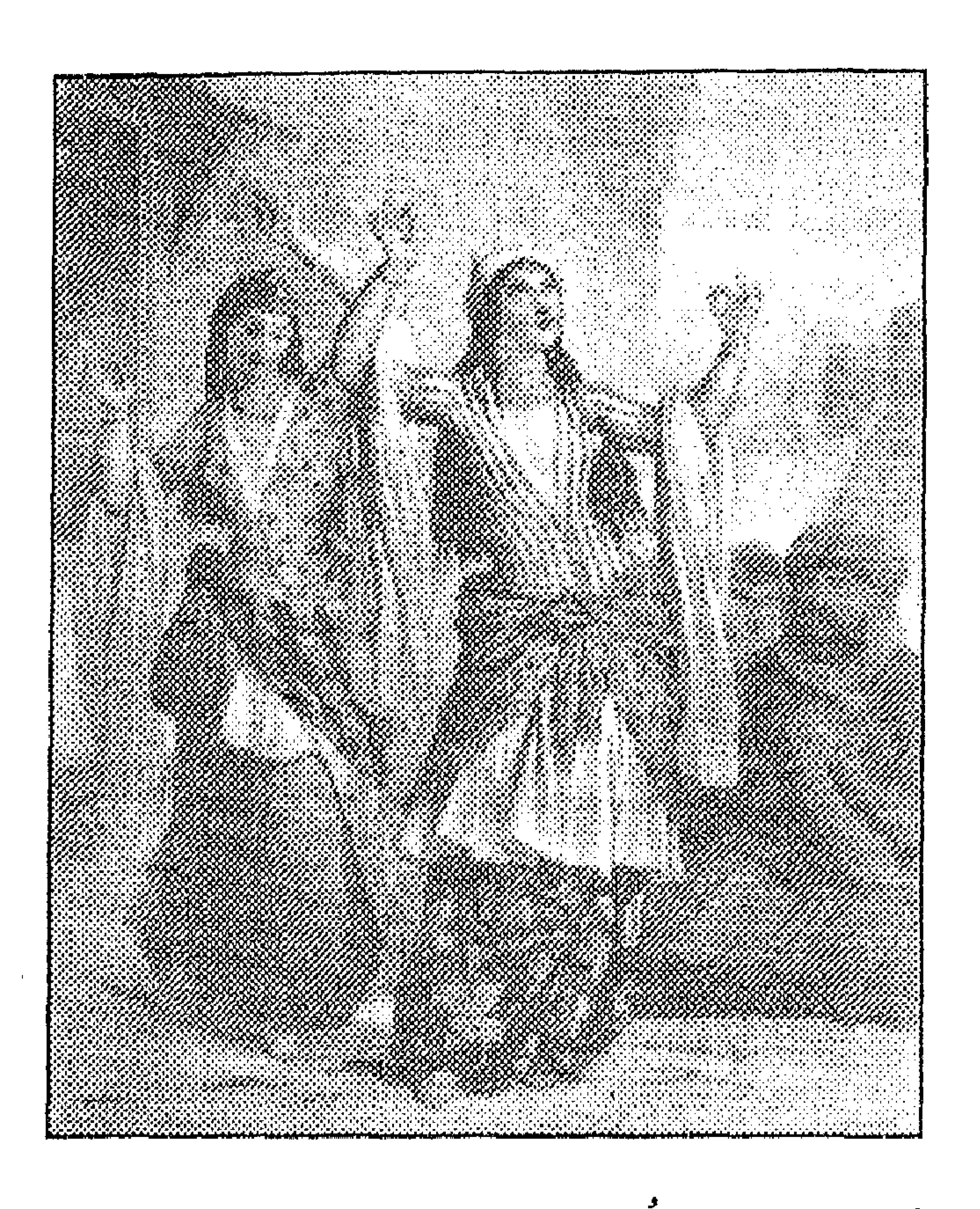
ســاحــرُ الجــفن أرانا عـــجـــبـا

أســـره للأســـد حـــالَ الوَسن



قمر في أفق الحسن سما
لاح من أطواق أسنى الملبس
بدرُ تِم زاد حسنا ونما
بهجة من فوق قطب الأطلس
جعل الوصل على الحب جزا
وجلا بالأمن قلبا وجِلا
لحظهُ الغزّال بالسحر غزا
كم سبا قلبا وعقلاً عقَلا
واهتزازُ العِطف بالغصن هَزا*
ومن الغيرة أسلى الأسلا*
وجهه فاق على بدر السما
وبنارٍ نورُه لم يمسس

* هزا: أى هزأ بمعنى سخر.
* سلى الأسل: أى كشف الشوك، والمقصود أن الغصن أظهر شوكه من شدة غيرته من العطف.



أطلق الحسنُ عليه علما

وزهت وجنته بالقبس

حرس الورد بخال سُبْجٍ*

وعليه الآسُ حَرْساً نبتا

وسطت مقلته بالدُعْجِ

مقبلا يجرحُ أو ملتفتا

عابثَ القد بحبِّ المهَج

شفتاه لفؤادى شفتا

رَفع القطعَ ووصلا جَزما

بانشراح ما بنا من عبس

وتعاهدنا على رَشْفِ اللمَّا

إنْ ودى عنده لا ينتسى

* سبج: أى أسود اللون.

نصَب الهُدب لصيدى شركا
لحظهُ المرسلُ فى فترته
وبسيف الجفن لما فتكا
فَطَر القلب على فِطرته
علَّم العشاق ترك الشُركا
وحذر النار من وجنته
معجز الواصف أبدى حكما
مُذْ بَدَا بالحسن جمعاً مكتسى
فتح الورد بخديه كما
ليَّن الصَلد* من القلب القسى
شرف المنزِل والوقت صفا
أهيفٌ حار له من وصفا
تستعير الغيد منه وطفا*
عادنى من حار نارى وَطفا
جاء طبا لجراحى وشِفا
حين قبلت خدودا وشِفا
كعبة الحسن لكاسى زمزما
وازدرى عقد ثغور الأكؤس
قلت لبيك حبيبى عندما
طاف يسعى بحياة الأنفس
لبست حلة ضوْء الشهب
أرجوانية لون وضحا
وبدت فى در تاج الحبَب
تتهادى فى مقامى فرَحا
ليلة الوصل لها واعجبى
جمعت لى البدر مع شمس الضحى

* الصَلد بفتح الصاد وكسرها الصُلب الأملس.

* الوطف: بفتح الواو والطاء كثرة شعر العينين والحاجبين.

وحــــلالى ثغــــرُه ملتَّـــثـــمـــا
فى عـــفـــافٍ عِـــرْضُنا لم يدنس
واتخـــذنا جنة الروض حـــمى
وهو بالرضـــوان فـــيــهـــا مـؤنسى
كـــتـــخـــدا رضـــوان كنز الفـــقـــرا
بهـــجـــة العـــمـــر وشـــمس الزمن
عنده حُطَّت رحـــال الشـــعـــرا
وصـــفـــوه كل وصف حـــســن
فـــهـــو مـــولاهم ومـــولى الأُمـــرا
وفـــريد ليس بالمقـــتـــرن (ص٤٩٣)
كـــفـــه الغـــيثُ على الناس هَمَى
أفـــأعـــاد الخـــصب بعـــد اليـــبس
صـــبح الدهر به مـــبـــتـــســـمـــا
وهوفى فِـــيـــه مـــحل اللَّعَس*

* اللعس: بفتحتين لون الشفة المائل إلى السمرة.

ومنه:

فى رقـــاع الحـــرب للأعـــدا رمى
سطوة الرخ وفـــرز الحـــرس
ضـــحك الســـيف وأبكاهم دمـــا
وتـخطى شـــاههم بـالفـــرس

ومن موشحاته أيضاً فى المشار إليه من عراق:

عـــبـــيـــر الزهر قـــد نسمْ
ولاح الـــورد فـــى أفـــنـــان
وســـاق المزن قـــد نظمْ
ثـنـايـا الـورد فـى المـرجـــان

وغصن البانة الأقوم
تحلى سندسّ الريحان
فما أبهى وما أنعم
عذار الآس فى النعمان

(دور)
حبيبى بالذى ورّد
شقائق خدك التبرى
وثَنى قدك المفرد
بخمرة ثغرك الدرى
ومنك الجفن قد سوّد
على هاروت بالسحر
أدر كأس الطلا واغنم
زمان الفوز بالرضوان

(دور)
مليكٌ أوحدُ العصر
وفىٌ صادقُ الوعد
بدا فى طلعة البدر
وهيبِة طلعِة الأسْدِ
صديق العز والنصر
حليف الجود والمجد
لهذا ترجم الأعجم
بمدح الكتخدا رضوان

وقال فى نيرز عجم.

نظم الطلُّ عقودا
حول أجياد الغصون
وتمايسْن قدودا
في حُلا زهر الغصون
واجتلى الوردَ خدودا
نرجسٌ غضُّ العيون
وشدا الطير غريداً
هاج بلبالَ الشجون (ص٤٩٤)

(دور)
لبس الورد احمرارا
في حمى روض النعيم
وعلى الأغصان دارا
ساقي القطر العميم
كلما مالت سكارى
علها صرف النسيم
عانقت جيدا وجيدا
واشتفت رمد الجفون

(دور)
كتخدا رضوان ذخرى
صاحب الوجه المنير
وغنائي عند فقرى
جابرا قلبي الكسير
ما احتيالي غير شعرى
وامتداحي للأمير

في الورى أمـــــسى فــــريداً
صـــــاحب العــــز المتين

وقال في رصد:
ريم فــلا حين جــلا لي كـاس طِلا شـمس وبدر كـمــلا
كف ملا لي ومـلا سلسال عقـد لآل بالحُسن اكتسى حللا
خـشف حــلا غـالي يجلي لي فـاق على الشـمس جــلا

(دور)
بدر عــلا حين تلا لا واكـتـمــلا غـصن تهـادى ثمــلا
مــــعــــتــــدلا فـــيــــه جـــلا
يخـــتــال ذا الميــال منه الغــصْن قــد حــجــلا
زان حــلا ســالي عــذالي بدر على الغــصن عــلا.
(خانة أولى):
كم فــتنا حــسن سناه حين رنا كــالبــدر يعلو غــصنا
لاح لنـا قــــاني من أعـــــيـــــاني
بالهـجـران مكحـول الأجـفـان زادني شـجنا باللحظ الوسنان
غصن البان الفتان.
(خانة ثانية):
وردجنا عــزجناه قــد حــسنا إذ حــاز وجــهــا حــسنا
زاد سنا قـاني من أسبـاني بالعـقـيـان في الثـغـر المرجـان
لو إليّ دنا منه خــمــر الحــان بالرضـوان ســعــدى آن.

(دور المديح): (ص ٤٩٥)
مـتـصــلا مـدح عـلا من زاد ولا طه إمـام الفـضـلا والنبـلا
خير ملا والآل ذي الإجلال في فضل الكريم ولا منه إلى جالي

أهـو إلـى ألـف ســــــلام وصـــــــلا.

وقال فى حُجاز:

يا قـــوام البـــان عنك صـــبـــرى بان

فـــقت بالفتن عـــادل الأغـــصـــان

والخـــديد القـــان كل حـــسن فـــان

ذاك عـــن وســين ســلـه لــى يــا فـــــان

(خانه)

ذوسنا افتنا مـذ رنا وانثنى قـامـة الغـصن وجنة النعـمـان

القنا للقنا مـاثنى عن سنا شكلك الحـسن راجى الإحـسـان

(سلسلة)

أنت مـسبى الوالدان والغزلان بالأجفـان يا منصـان

هـــــات بــــين الأفــــنــــان

خـــمـــر الحـــان بالألحـــان فى البـــســتـــان

(دولاب)

حـــسنك الفـــتـــان مـــفـــرد فى الآن

مـــــــــــالــه مــن ثـــان

بــدربـــان أم إنـــســـــــــان

آن وصْلى آن فـــاترك الـهـــجــران

لـيـــــتـــــه مــــا كــــان

وارحـم فــــان بـالأشـــجـــان

(خانه)

مِن عَنا منعنا راعنا وارعنا أن تعـذبنى فـيك بالحـرمـان

فـاتنا أفـتنا هل دنا قـربنا سـائر الفتن لحظك الوسنان

(سلسلة)

فــــاشـف قـلـب الـنولـهـــان
الـظـمـــآن مـن أدنـان الـنـدمـــان
أنـت عـين الأعـيـــان فـى الأزمـــان
رغـم الـشـــان يـاذا الـشـــان

(دولاب)

زر أخـــاشـــجـنـى فـى هـواك ضـنـى
لا تـطـل هـجـــراني قـــانـى
غـــايـة المـنى أن تـزر وطـنـى
بـالجـــفـــا انـســـانى قـــانـى

(خانه) (ص٤٩٦)

مـــا صـــغـت أذنـى مـن يـعـنـفـنـى
فـــيـك أو يـلـحـــانى جـــانـى
عـنـك غـــيـــرنـى لا ولا أنـســـانى
بـهـــجـــة الـزمـن غـــالى الـثـــمـن
ثـغـــرك المـرجـــانى حـــانـى
لـــســـت عـــنـــه غـــنـــى
مـطـلـب الـعـــقـــيـــان

(خانه)

هـــا أنـــا لـــلـضـــنـى، كـــى أنـــال المـنـى
نـاحـل بـدنـى فـــاقـــد الـسـلـوان
كـن لـنـا مـــحـــسـنـا فـــالـهـنـا قـــد دنـا
حـــبـى بـشـــرنـى مـنـك بـالـرضـــوان

(المديح)

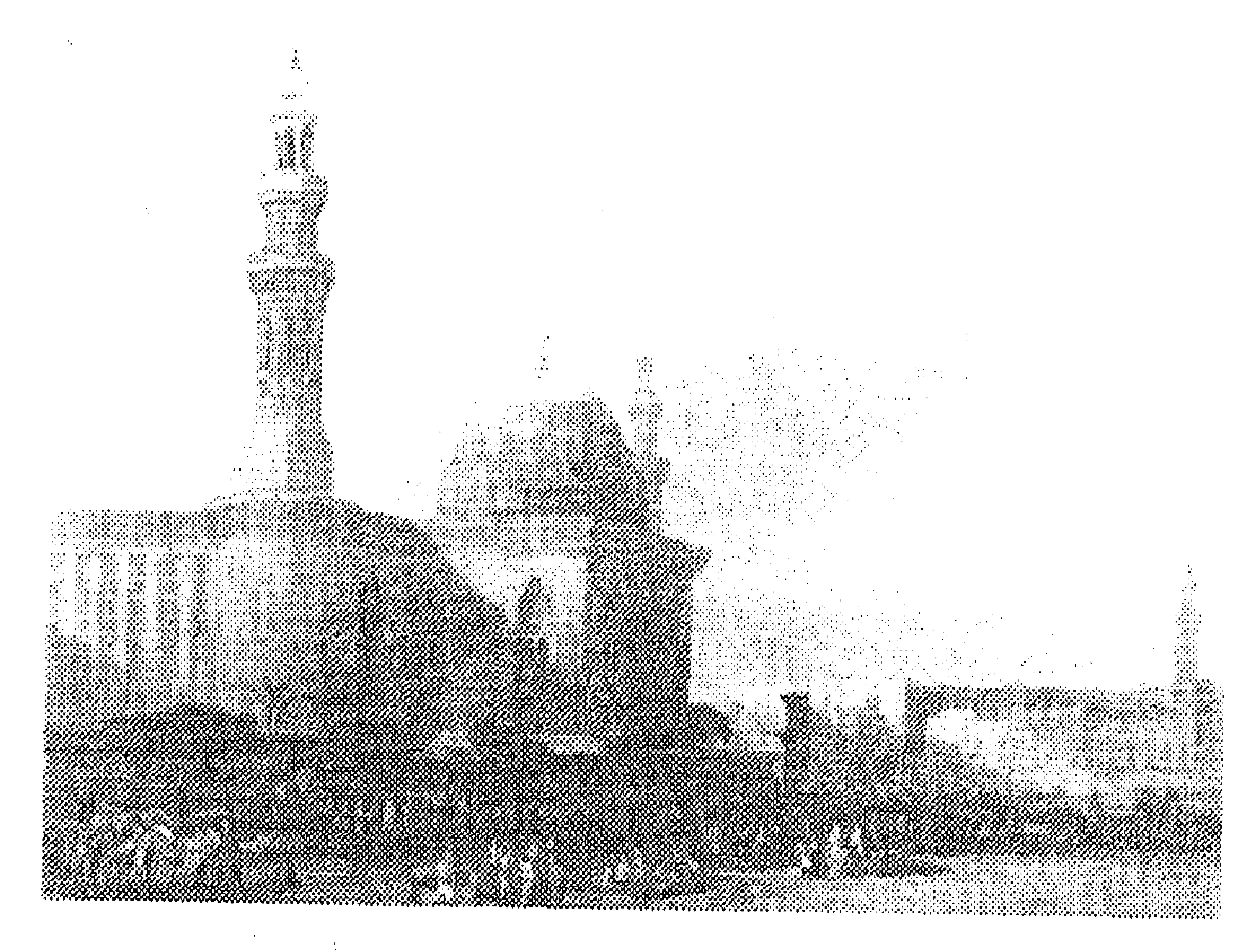
ذو العطا الهتان والسلطان
فى الميدان للشجعان
حسبُه ذو التبيان بالقرآن
والبرهان من عدنان

وغير ذلك كثير وستذكر بعضها فى تراجمهم.

(عود وانعطاف)

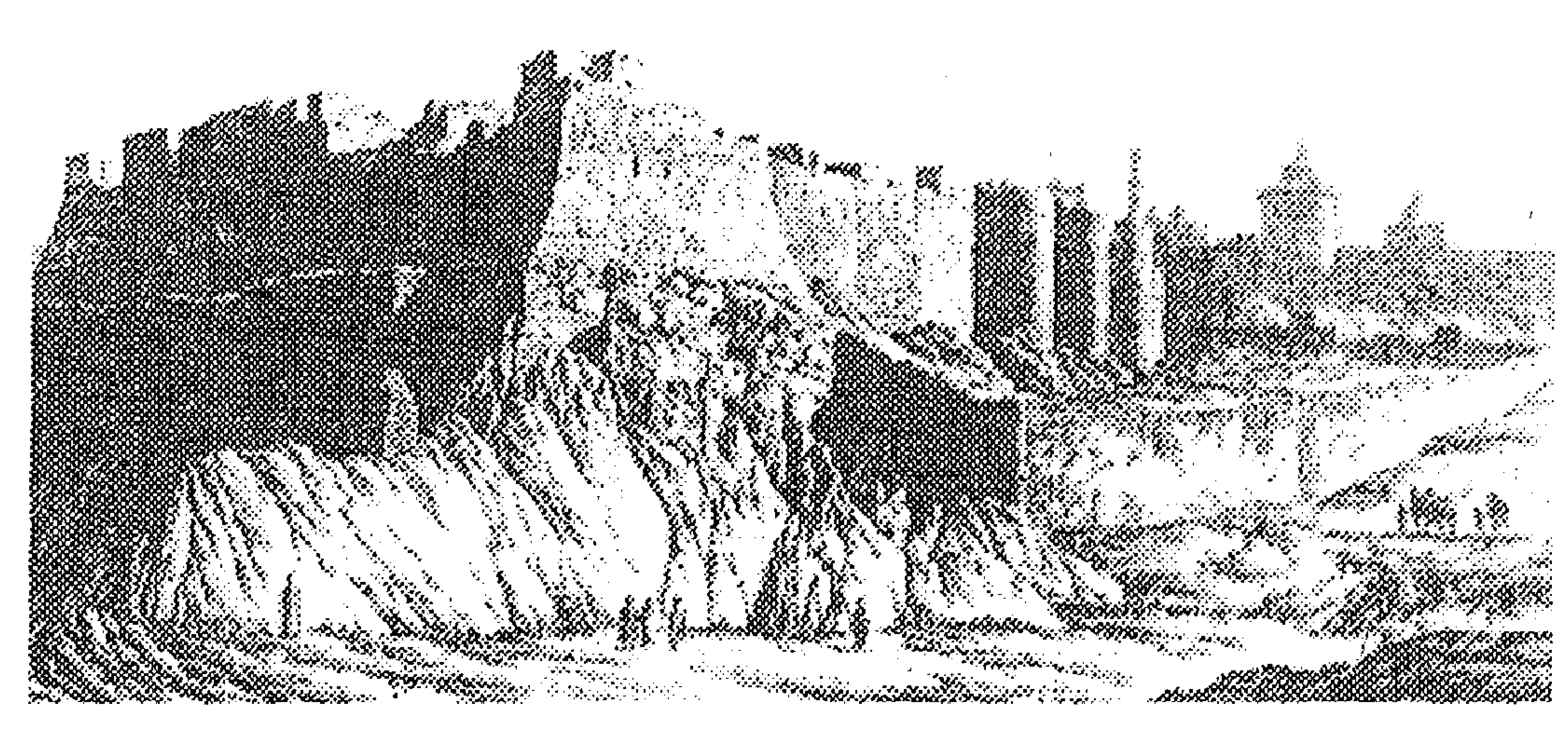
ولم يزل رضوان كتخدا وقسيمه على إمارة مصر ورياستها حتى مات إبراهيم كتخدا كما تقدم فتداعى بموته ركن المترجَم ورفعت النيام روسها، وتحركت حفايظها ونفوسها، وظهر شأن عبدْ الرحمن كتخدا القازدغلى وراج سوق نفاقه وأخذ يعضد مماليك إبراهيم كتخدا ويغريهم ويحرضهم على الجلفية لكونهم مواليه. فيخلص له بهم ملك مصر ويظن أنهم يراعون حق ولائه وسيادة جده، فكان الأمر عليه بخلاف ذلك كما ستراه، وهم كذلك يظهرون له الانقياد ويرجعون إلى رأيه ومشورته ليتم لهم به المراد، وكل من أمراء إبراهيم كتخدا متطلع للرياسة أيضا، وبالبلدة أيضا من الأكابر والاختيارية وأصحاب الوجاهة مثل حسن كتخدا أبى شنب وعلى كتخدا الخربطلى وحسن كتخدا الشعراوى قرا حسن كتخدا وإسماعيل كتخدا التبانه وعثمان أغا الوكيل وإبراهيم كتخدا مناو وعلى أغا توكلى وعمر أغا متفرقة وعمر أفندى محرم اختيار جاويشان وخليل جاويش حيضان مصلى وخليل جاويش القازدغلى وبيت الهياتم وإبراهيم أغا ابن (ص٤٩٧) الساعى وبيت

بعض أعلام الأكابر وقت رضوان كتخدا:
- عبد الرحمن كتخدا.
- حسن كتخدا أبو شنب.
- على كتخدا الخربطلى.
- حسن كتخدا الشعراوى.
- قرا حسن كتخدا.
- اسماعيل كتخدا التبانه.
- عثمان أغا الوكيل.
- ابراهيم كتخدا مناو.
- على أغا توكلى.
- عمر أغا متفرقه.
- عمر افندى محرم.
- خليل جاويش حيضان مصلى.
- خليل جاويش القازدغلى.
- أعلام بيت الهياتم.
- ابراهيم أغا ابن الساعى.
- أعلام بيت درب الشمسى.
- عمر جاويش الداوديه.
- مصطفى أفندى الشريف.
- أعلام بيت بلفيه.
- أعلام بيت قضبة رضوان.
- أعلام بيت الفلاح.
- أحمد كتخدا.
- اسماعيل كتخدا.
- على كتخدا.
- ذو الفقار جاويش.
- اسماعيل جاويش.



* جامع السلطان حسن.

درب الشمسى وعمر جاويش الداودية ومصطفى أفندى الشريف اختيار متفرقة وبيت بلفيه وبيت قصبة رضوان وبيت الفلاح، وهم كثيرون اختيارية وأوده باشيه، ومنهم أحمد كتخدا وإسماعيل كتخدا وعلى كتخدا وذو الفقار جاويش وإسماعيل جاويش وغيرهم، فاخذ أتباع إبراهيم كتخدا يدبرون فى اغتيال رضوان كتخدا وإزالته، وسعت فيهم عقارب الفتن، فتنبه رضوان كتخدا لذلك، فاتفق مع أغراضه [اتباعه] وملك القلعة والأبواب والمحمودية وجامع السلطان حسن، وجمع إليه جمع كثير من أمراه وغيرهم ومن انضم إليهم وكاد يتم له الأمر، فسعى عبد الرحمن كتخدا والاختيارية فى إجرا الصلح وطلع بعضهم إلى رضوان كتخدا وقالوا له «هولا أولاد أخيك وقد مات



▲ قلعة القاهرة.

وتركهم فى كنفك مثل الأيتام وأنت أولى بهم من كل أحد وليس من المروة والرأى أن تناظرهم أو تخاصمهم فإنك صرت كبير القوم وهم فى قبضتك أى وقت فلا تسمع كلام المنافقين» ، فلم يزالوا به حتى انخدع لكلامهم وصدقهم واعتقد نصحهم لأنه كان سليم الصدر، ففرق الجمع ونزل إلى بيته الذى بقوصون، فاغتنموا عند ذلك الفرصة وبيتوا أمرهم ليلا وملكوا القلعة والأبوب والجهات والمترجم فى غفلته آمن فى بيته مطمئن من قبلهم ولا يدرى ما خبئ له. فلم يشعر إۆلا وهم يضربون عليه بالمدافع، وكان المزين يحلق له رأسه فسقطت على داره الجلل* فأمر بالاستعداد وطلبَ من يركن إليهم فلم يجد أحداً ووجدهم قد أخذوا حوله الطرق (ص٤٩٨) والنواحى، فحارب فيهم

* الجلل هى القنابل.

إلى قريب الظهر وخامر عليه أتباعُه فضربه مملوكه صالح الصغير برصاصة من خلف الباب الموصل لبيت الراحة فأصابته فى ساقه وهرب مملوكه إلى الأخصام وكانوا وعدوه بأمرية إن هو قتل سيده، فلما حضر إليهم وأخبرهم بما فعل أمر على بك بقتله وقال «هذا خاين وليس فيه خير» فشفعوا فيه وأمروا بنفيه.

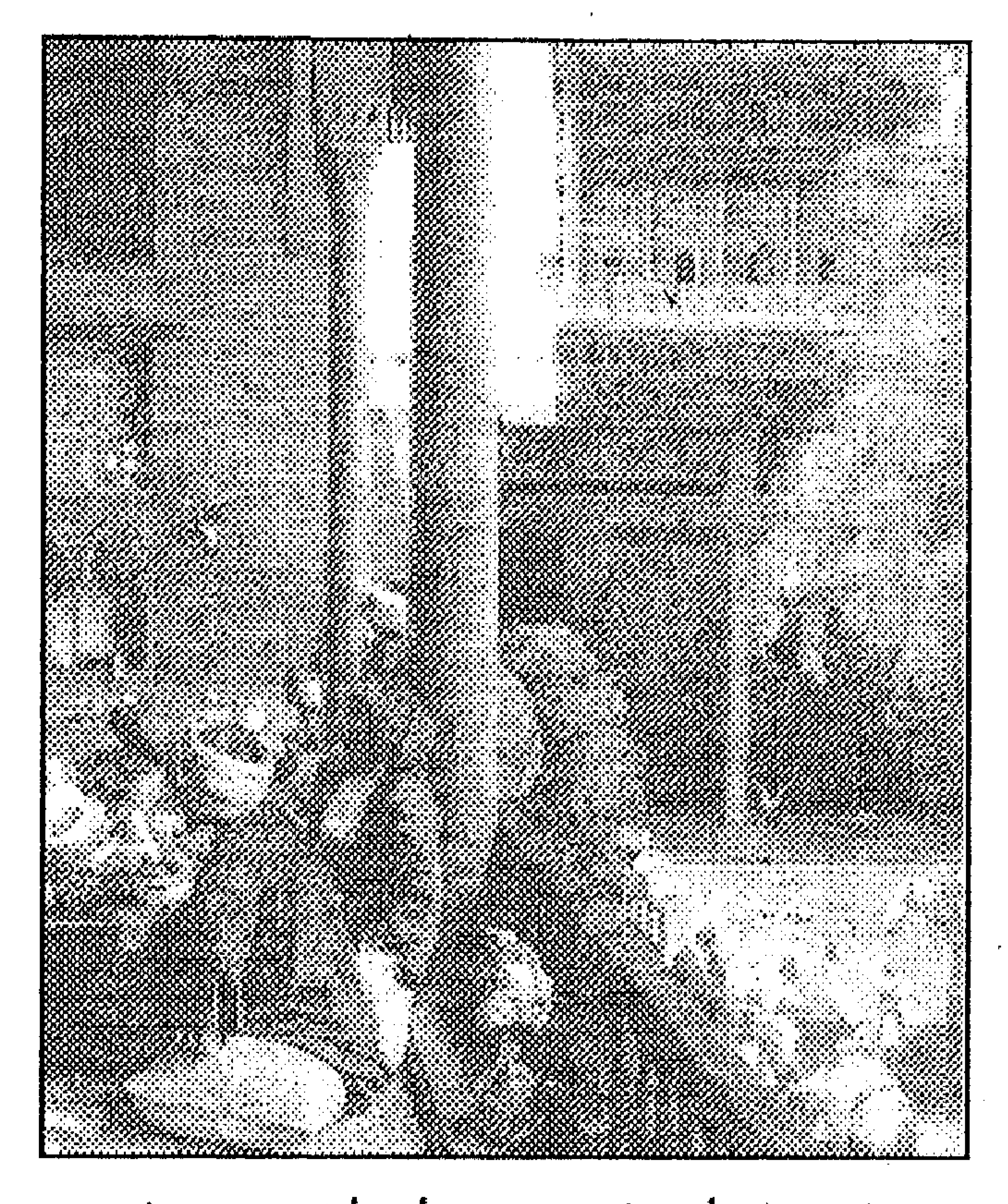
وعندما أصيب المترجم طلب الخيول وركب فى خاصته وخرج من نقب نقبه فى ظهر البيت وتألم من الضربة لأنها كسرت عظم ساقه، فسار إلى جهة البساتين وهو لا يصدق بالنجاة فلم يتبعه أحد ونهبوا داره، ثم ركب وسار إلى جهة الصعيد فمات بشرق أولاد يحيى ودفن هناك.

فكانت مدته بعد قسيمه قريبا من ستة أشهر، ولما مات تفرقت صناجقه ومماليكه فى البلاد، وسافر بعضهم إلى الحجاز من ناحية القصير، ثم ذهبوا من الحجاز إلى بغداد واستوطنوها وتناسلوا وماتوا وانقضت دولتهما، فكانت مدتهما نحو سبع سنوات، ومصر فى تلك المدة هادية من الفتن والشرور، والإقليم البحرى والقبلى أمن وأمان والأسعار رخّيصة والأحوال مرضية، واللحم الضانى المجروم [المشفى] من عظمه رطله بنصفين، والجاموسى بنصف والسمن البقرى عشرته بأربعين نصف فضة واللبن الحليب عشرته بأربعة أنصاف، والرطل الصابون بخمسة أنصاف، والسكر المنعاد كذلك، والمكرر قنطاره بألف نصف والعسل القطر قنطاره بماية وعشرين نصفاً (ص٤٩٩) وأقل، والرطل البن القهوة باثنى عشر نصفا والتمر يجلب من الصعيد فى المراكب الكبار ويصب على ساحل بولاق مثل عُرم الغلال ويباع بالكيل والأرادب، والأرز إردبه بأربعماية نصف، والعسل النحل قنطاره بخمساية نصف، وشمع العسل رطلة

بخمسة وعشرين نصفا، وشمع الدهن بأربعة أنصاف، والفحم قنطاره بأربعين نصفا، والبصل قنطاره بسبعة أنصاف، وقس على ذلك

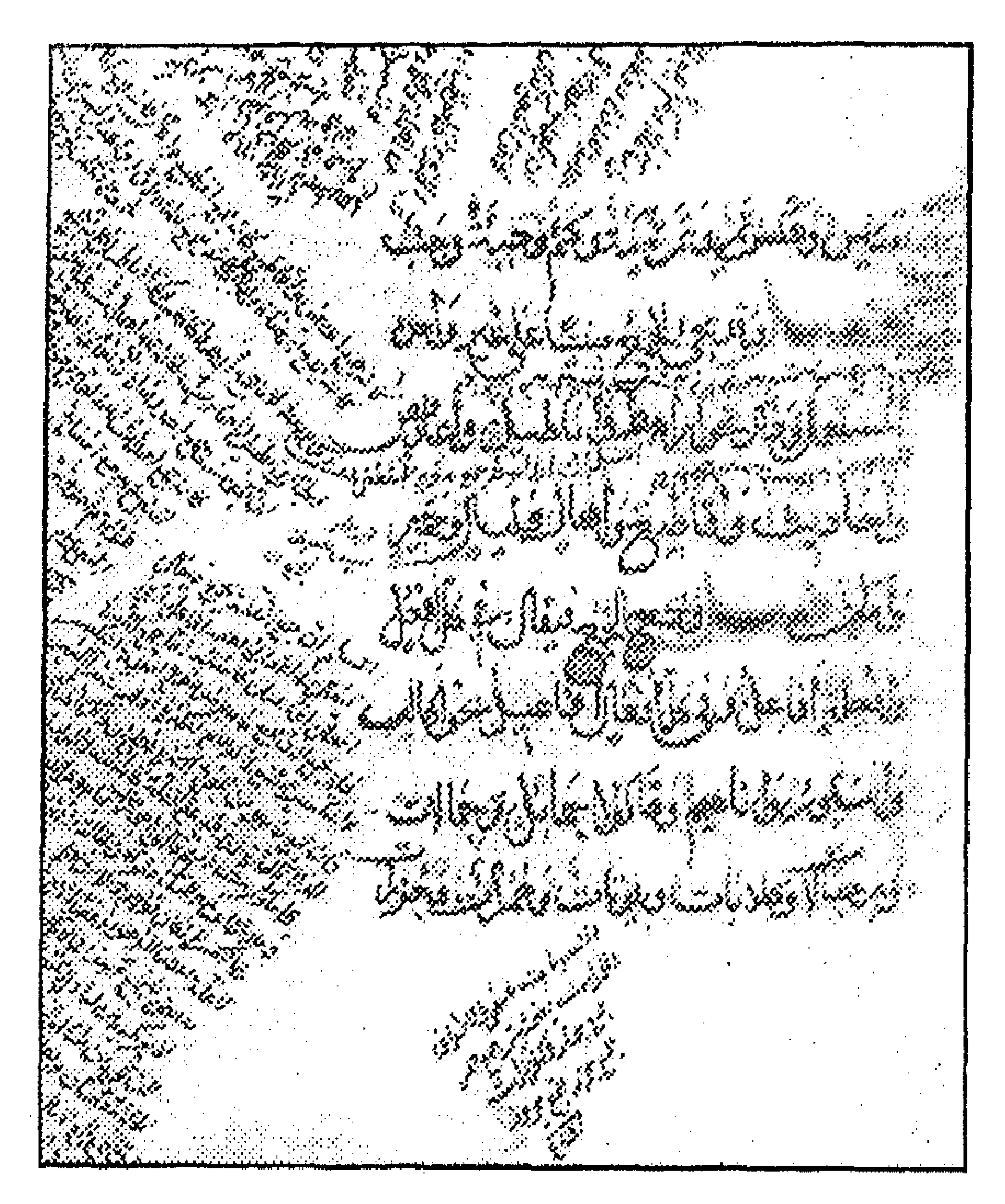
(يقول جامعة) إنى أدركت بقايا تلك الأيام وذلك أن مولدى* كان فى سنة سبع وستين وماية وألف ولما صرتُ فى سن التمييز رأيت الأشيا على ما ذكر إلا قليلا، وكنت أسمع الناس يقولون الشيء الفلانى زاد سعره عما كان فى سنة كذا، وذلك فى مبادئ دولة إبراهيم كتخدا وحدوث الاختلال فى الأمور. وكانت مصر إذ ذاك محاسنها باهرة، وفضائلها ظاهرة، ولأعداها قاهرة، يعيش رغَداً بها الفقير، وتتسع للجليل والحقير، وكان لأهل مصر سنن وطرايق فى مكارم الأخلاق لا توجد فى غيرها، (منها) أن فى كل بيت من بيوت جميع الأعيان مطبخين أحدهما أسفل رجالى والثانى فى الحريم فيوضع فى بيوت الأعيان السماط فى وقتى العشا والغدا مستطيلا فى المكان الخارج مبذولا للناس ويجلس بصدره أمير المجلس وحول الضيفان، ومن دونهم مماليكه وأتباعه ويقف الفراشون فى وسطه يفرقون على الجالسين ويقربون إليهم ما بعد عنهم من القلايا والمحمّرات، ولا يمنعون فى وقت الطعام من يريد الدخول أصلا ويرون أن ذلك من المعايب، حتى أن بعض (ص٠٠٥) ذوى الحاجات عند الأمرا إذا حجبهم الخدام انتظروا وقت الطعام ودخلوا فلا يمنعهم الخدم فى ذلك الوقت، فيدخل صاحب الحاجة ويأكل وينال غرضه من مخاطبة الأمير لأنه إذا نظر على سماطه شخصا لم يكن رآه قبل ذلك ولم يذهب بعد الطعام عرف أن له حاجة فيطلبه ويسأله عن حاجته فيقضيها له، وإن كان محتاجا واساه بشيء، ولهم عادات

* ١١٦٧ = ١٧٥٤م.
تاريخ ميلاد الجبرتى.



وصدقات فى أيام المواسم مثل أيام أول رجب والمعراج ونصف شعبان وليالى رمضان والأعياد وعاشورا والمولد الشريف، يطبخون فيها الأرز باللبن والزردة* ويملئون من ذلك قصاعا كثيرة ويفرقون منها على من يعرفونه من المحتاجين، ويجتمع فى كل بيت الكثير من الفقراء فيفرقون عليهم الخبز ويأكلون حتى يشبعوا من ذلك اللبن والزرده، ويعطونهم بعد ذلك دراهم ولهم غير ذلك صدقات وصلات لمن يلوذ بهم ويعرفون منه الاحتياج، وذلك خلاف ما يعمل ويفرق من الكعك المحشو بالسكر والعجمية والشريك على المدافن والترب فى الجمع والمواسم، وكذلك أهل القرى والأرياف فيهم من مكارم الأخلاق مالا يوجد فى غيرهم من أهل قرى الأقاليم، فإن أقل ما فيهم إذا نزل به ضيف ولو لم يعرفه اجتهد وبادر بقراه فى الحال، وبذل وسعه فى إكرامه

* الزردة: هى المهلبية.



وذبح له ذبيحة فى العشاء، وذلك ما عدا مشايخ البلاد والمشاهير من كبار العرب والمقادم، فإن لهم مضايف واستعدادات للضيوف ومن ينزل عليهم من السفار والأجناد، (ص٥٠١) ولهم مساميح وأطيان فى نظير ذلك خلفا عن سلف، إلى غير ذلك مما يطول شرحه ويعسر استقصاؤه.

وبموت رضوان كتخدا لم يقم لوجاق العزب صولة.

٢٤٠ الخواجا أحمد بن محمد الشرايبى

[ومات] الأجل المكرم والملاذ المفخم الخواجا الحاج/ أحمد بن محمد الشرايبى، وكان من أعيان التجار المشتهرين كأسلافه، وبيتهم المشهور بالأزبكية بيت المجد والفخر والعز ومماليكهم وأولاد مماليكهم من أعيان مصر جربجية وأمرا ومنهم يوسف بك الشرايبى، وكانوا فى غاية من الغنى



الصفحة الأولى من «كتاب الترياق» تزينه صور اطباء من مصر واليونان

والرفاهية والنظام ومكارم الأخلاق والإحسان للخاص والعام، ويتردد إلى منزلهم العلما والفضلا، ومجالسهم مشحونة بكتب العلم النفيسة للاعارة والتغيير وانتفاع الطلبة، ولا يكتبون عليها وقفية ولا يُدخلونها فى مواريثهم، ويرغبون فيها ويشترونها بأغلى ثمن ويضعونها على الرفوف والخزاين والخورنقات وفى مجالسهم جميعا، فكل من دخل إلى بيتهم من أهل العلم إلى أى مكان بقصد الإعارة أو المراجعة وجد بغيته ومطلوبه فى أى علم كان من العلوم ولو لم يكن الطالب معروفا، ولا يمنعون من يأخذ الكتاب بتمامه، فإن رده فى مكانه رده وإن لم يرده واختص به أو باعه لا يسأل عنه، وربما بيع الكتاب عليهم واشتروه مراراً ويعتذرون عن الجانى بضرورة الاحتياج.

وخبزهم وطعاهم مشهورة بغاية الجودة والإتقان والكثرة،

وهو مبذول للقاصى والدانى مع السعة والاستعداد، وجميعهم مالكيو المذهب على طريقة أسلافهم، وأخلاقهم جميلة وأوضاعهم منزهة عن (ص٥٠٢) كل نقص ورذيلة، ومن أوضاعهم وطرايفهم أنهم لا يتزوجون إلا من بعضهم البعض، ولا تخرج من بيتهم إمرأة إلا للمقبرة، فإذا عملوا عرساً ولموا الولايم وأطعموا الفقرا والقراء على نسق اعتادوه، وتنزل العروس من حريم أبيها إلى مكان زوجها بالنسا الخلص والمغانى والجنك تزفها ليلا بالشموع وباب البيت مغلوق عليهن، وذلك عندما يكون الرجال فى صلاة العشاء بالمسجد الأزبكى المقابل لسكنهم، وبيتهم يشتمل على أثنى عشر مسكنا كل مسكن بيت متسع على حدته، وكان الأمرا بمصر يترددون إليهم كثيرا من غير سبق دعوة، وكان رضوان كتخدا يتفسح عند المترجم فى كثير من الأوقات مع الكمال والاحتشام، ولا يصحبه فى ذلك المجلس إلا اللطفا من ندماه، وإذا قصده الشعرا بمدح لا يأتونه فى الغالب إلا فى مجلسه لينالوا فضيلتين ويحرزوا جائزتين.

وكان من سننهم أنهم يجعلون عليهم كبيراً منهم وتحت يده الكاتب والمستوفى والجابى، فيجمع لديه جميع الإيراد من الالتزام والعقار والجامكية، ويسدد الميرى ويصرف لكل إنسان راتبه على قدر حاله وقانون استحقاقه، وكذلك لوازم الكساوى للرجال والنساء فى الشتاء والصيف ومصروف الجيب فى كل شهر، وعند تمام السنة يعمل الحساب ويجمع ما فضل عنده من المال ويقسمه على كل فرد بقدر استحقاقه وطبقته، واستمروا على هذا الرسم والترتيب مدة مديدة، فلما مات كبارهم وقع (ص٥٠٣) بينهم الاختلاف واقتسموا الإيراد واختص كل فرد منهم بنصيبه يفعل به ما

يشتهى، وتفرق الجمع وقلت البركة وانعزل المحبون وصار كل حزب بما لديهم فرحون، وكان مسكُ ختامهم صديقا وأخا فى الله اللوذعى الأريب، والنادرة المفرد النجيب، سيدى إبراهيم بن محمد بن الداده* الشرايبى الغزالى، كان رحمه الله تعالى ملكى الصفات بسّام العشيات، عذب المورد، رحيب النادى، واسع الصدر للحاضر والبادى، قطعنا معه أوقاتا كانت لعين الدهر قرة، وعلى مكتوب العمر عنوان المسرة، وكان لسان حاله يقول:

إذا مضى يوم ولم أصطنع يدا

ولم أقتبس علما فما ذاك من عمرى

وما زال يشترى متاع الحياة بجوهر عمره النفيس، مواظبا على مذاكرة العلم وحضور التدريس، حتى كدر الموت ورده، وبدد الدهر الحسود بنواييه عقده، كما يأتى تتمة ذلك فى سنة وفاته، وانمحت بموته من بيتهم المآثر، وتبدد بقية عقدهم المتناثر.

[ومات] أحمد چلبى ابن الأمير على والأمير عثمان ولم يبق منهم إلا كما قال القائل:

ذهب الذين يُعاش فى أكناف

وبقيت فى خَلَف كجلد الأجْرب*

وتزوج مماليكُ القازغلية نساءهم وسكنوا فى بيتهم ومنهم سليمان أغا صالح، وتقلد الزعامة وصار بيتهم الوالى، ووقف ببابه الأعوان والزبانية، ويحبس به أرباب الجرائم فيعذبون ويعاقبون، لا يسأل (ص٥٠٤) عما يفعل، وكثيراً ما أتذكر بذكرهم قول القايل:

* الداده: معناها عطية الله، أو هبة الله. كما تعنى البقشيش والهبة.

٢٤١ أحمد جلبى ابن الامير على.
ت / ١١٧١ هـ = ١٧٥٨م.

* هذا البيت للبيد بن ربيعة وبعده:

لا ينفعون ولا يُرَجَّى خيرهم
ويعاب قائلهم وإن لم يَشْغَب

ويشغب بسكون الشين أى وإن لم يهيج الشر والفتنة والخصام بين الناس. أى يعاب قوله وإن لم يكن مشاغبا.

سقى الله عيشاً فى ظلال ربوعهم
حلا ذكره فى الذوق وهو مدام
ليال لنا فى مصر وصلٌ كأنها
على وجنه الدهر الممنع شامُ
يحين حِمامى من حنينى ولوعتى
إذا ناح فوق الأيكتينْ حمَامُ

توفى المترَجم فى سنة إحدى وسبعين ومأية وألف.

٢٤٢ السلطان محمود خان
ت / ١١٦٨ هـ= ١٧٥٥م.
وهو آخر بنى عثمان فى حسن السيرة والاستقامة.

[ومات] سلطان الزمان السلطان محمود خان العثمانى، وكانت مدته نيفا وعشرين سنة، وهو آخر بنى عثمان فى حسن السيرة والشهامة والحرمة واستقامة الأحوال والمآثر الحسنة، توفى ثامن عشر صفر سنة ثمان وستين ومائة وألف.
وتولى السلطان عثمان بن أحمد أصلح الله شأنه.

٢٤٣ حمودة السديدى.
ت / ١١٦٣هـ = ١٧٥٠م.

[ومات] النبيه النبيل والفقيه الجليل والسيد الأصيل السيد محمد المدعو حموده السديدى أحد ندماء الأمير رضوان كتخدا، ولد بالمحلة الكبرى وبها نشأ وحفظ القرآن، واشتغل بطلب العلم فحصّل مأموله فى الفقه والمعقول والمعانى والبيان والعروض، وعانى نظم الشعر وكان جيد القريحة حسن السليقة فى النظم والنثر والإنشاء، وحضر إلى مصر وأخذ عن علمائها، واجتمع بالأمير رضوان كتخدا عزبان الجلفى المشار إليه وصار من خاصة ندمائه، وامتدحه بقصايد كثيرة طنانة وموشحات ومزدوجة بديعة، والمقامة التى داعب بها (ص٥٠٥) الشيخ عمار القروى وأردفها بقصيدة رائية

بليغة فى هجو المذكور سامحهما الله، وكل ذلك مذكور فى الفوايح الجنانيه لجامعة الشيخ عبد الله الإدكاوى، حج رحمه الله ومات وهو آيب بأجرود سنة ثلاث وستين وماية وألف، ورثاه الشيخ عبد الله الإدكاوى بقصيدة طويلة أولها:

من نصيرى على الفراق الأشقّ
أومن الدهر آخذٌ لى بحقى

وبيت تاريخها:

وله الحور بالدعاء تؤرخ
جود رحما ترب السديدى يسقى

٢٤٤ محمد جلبى الصابونجى.

[ومات] الأجل المكرم محمد چلبى بن إبراهيم جربجى الصابونجى مقتولا، وخبره أنه لما توفى أبوه وأخذ بلاده وبيتهم تجاه العتبة الزرقا* على بركة الأزبكية، فتوفى أيضاً عثمان جربجى الصابونجى بمنفلوط وذلك سنة سبع وأربعين وماية وألف، ومات غيره كذلك من معاتيقهم، وكان محمد جربجى مثل والده بالباب، ويلتجى إلى يوسف كتخدا البركاوى، فلما مات البركاوى خاف من على كتخدا الجلفى فالتجأ إلى عبد الله كتخدا القازدغلى وعمل ينكجرى، فأراد أن يقلده أوده باشه ويلبسه الضلمة، فقصد السفر إلى الوجه القبلى وذلك فى سنة أربع وخمسين، فسافر واستولى على بلاد عثمان جربجى ومعاتيقه وقام هناك، وكان رَذْلاً* بخيلا طماعاً شرهاً فى الدنيا، وكان مماليكه يهربون منه، وكانت أخته زوجاً لعمر أغا خازندار أبيه ولم (ص٥٠٦) يفتقدها بشىء * .

واتفق أن رجلا من كبار هوّارة بحرى توفى فأرسل المترجم إلى وكيله أحمد أوده باشه فأخذ له بلاد المتوفى بالحلول ودفع حلوانها إلى الباشا، فأرسل أولادُ المتوفى إلى هوارة

* العتبة الزرقا: المراد بها العتبة الخضرا الحالية.

* الرَذْل بفتح الراء وسكون الذال هو الدون الخسيس.

* لم يفتقدها بشىء أى لم يتعرف أحوالها حتى يساعدها إذا احتاجت إلى مساعدته ومعونته.

قبلي عرّفوهم أن بلاد أسلافهم أخذها ابن الصابونجي ونازل يتصرف فيها، وطلبوا منهم معونة حتى يرسلوا إلى إبراهيم كتخدا القازدغلي ويدفعوا الذى دفعه فى الحلوان ويخلص لهم بلادهم، فأرسلوا لهم هوارة وعبيداً وسيمانية فحاربوه وغلبوه، فعدى إلى البر الغربى فوقفوا فى مقابلته فخاف منهم أن يعدوا خلفه فنزل إلى المراكب وأخذ معه صندوق الأوراق والتقاسيط، وحضر إلى مصر ودخل إلى داره بالأزبكية، ثم إن هوارة أرسلت إلى إبراهيم كتخدا فأحضره وتكلم معه وترجى عنده فلم يمتثل، واستمر على عناده فلم يزل ابن السكرى يلاطفه فلم يتحول عن ذلك، فأرسل إبراهيم كتخدا وأخذ فرماناً بنفيه إلى الحجاز، فأخذوه إلى السويس، ومن شدة حرصه أخذ صحبته صندوق الأوراق والتقاسيط والحجج والتذاكر، فلما وصل إلى السويس أرسل خلفه إبراهيم كتخدا فرماناً صحبة جاويش بقتله، فقتلوه وأحضروا الصندوق إلى إبراهيم كتخدا. وترك ثلاث بنات زوّج بنتاً منهن إلى خازنداره وسكن بها فى بيت بحارة الضبية عند سوق أمير الجيوش، وأخذ بيت الأزبكية إبراهيم كتخدا وزوّج زوجته إلى خازنداره محمود أغا فأقام معها أياماً ومات، فزوجها إلى حسين أغا وولاة كشوفية المنصورة، وبعد تمام السنة عمله أمين الشوَن وأعطاه رضوان كتخدا ولاية البحر وعمله كتخداه مدة أيام، ثم تقلد الإمارة والصنجقية بعد موت أستاذه وهو حسين بك المقتول الآتى ذكره.

فصل في بيت القازدغلية

ولما مات إبراهيم كتخدا القازغلي ورضوان كتخدا الجلفي بدأ أمر أتباع إبراهيم كتخدا في الظهور، وكان المتعين بالإمارة منهم عثمان بك (ص٥٠٧) الجرجاوى وعلى بك الذى عرف بالغزاوى وحسين بك الذى عرف بكشكش، وهؤلاء الثلاثة تقلدوا الصنجقية والإمارة فى حياة أستاذهم، والذى تقلد الإمارة منهم بعد موته حسين بك الذى عرف بالصابونجى وعلى بك بلوط قبان [على بك الكبير] وخليل بك الكبير، وأما من تأمر منهم بعد قتل حسين بك الصابونجى فهم حسن بك جوجه وإسماعيل بك أبو مدفع، وأما من تأمر بعد ذلك بعناية على بك بلوط قبان عندما ظهر أمره فهو إسماعيل بك الأخير الذى تزوج ببنت أستاذه وكان خازنداره، وعلى بك السروجى، فلما استقر أمرهم بعد خروج رضوان كتخدا وزوال دولة الجلفية، تعين بالرياسة منهم على أقرانه عثمان بك الجرجاوى، فسار سيراً عنيفاً من غير تدبر، وناكد زوجة سيده بنت البارودى وصادرها فى بعض تعلقاتها، فشكت أمرها إلى كبار الاختيارية فخاطبوه فى شأنها، وكلمه حسن كتخدا أبو شنب فرد عليه رداً قبيحاً، فتحزبوا عليه ونزعوه من الرياسة وقدموا حسين بك الصابونجى وجعلوه شيخ البلد، ولم يزل حتى حقد عليه خشداشينه وقتلوه.

٢٤٥ حسين بك كشكش.
قتل/ ١١٧١ هـ = ١٧٥٨م.

وخبر موت حسين بك المذكور أنه لما مات إبراهيم كتخدا قلدوا المذكورة إمارة الحج وطلع سنة ١١٦٩ وسنة ١١٧٠، ثم تعين بالرياسة، وصار هو كبير القوم والمشار إليه، وكان كريماً جواداً وجيهاً، وكان يميل بطبعه إلى نصف حرام لأن أصله من مماليك الصابونجى، فهرب من بيته وهو صغير

وذهب إلى إبراهيم جاويش فاشتراه من الصابونجى ورباه ورقاه (ص٥٠٨) ثم زوجه بزوجة محمد جربجى بن إبراهيم الصابونجى وسكن بيتهم وعمّره ووسعه وأنشأ فيه قاعة عظيمة، فلذلك اشتهر بالصابونجى، ولما رجع من الحجاز قلد عبد الرحمن أغا أغاوية مستحفظان، وهو عبد الرحمن أغا المشهور فى شهر شعبان من السنة المذكورة وهى سنة ١١٧٠، وطلع بالحج فى تلك السنة، محمد بك ابن الدالى ورجع فى سنة إحدى وسبعين، ثم إن المترجم أخرج خشداشه على بك [الكبير] المعروف ببلوط قبان ونفاه إلى بلده النوسات، وأخرج خشداشه أيضاً عثمان بك الجرجاوى منفياً إلى أسيوط، وأراد نفى على بك الغزاوى وأخرجه إلى جهة العادلية، فسعى فيه الإختيارية بواسطة نسيبه على كتخدا الخربطلى وحسن كتخدا أبى شنب، فألزمه أن يقيم بمنزل صهره على كتخدا المذكور ببركة الرطلى ولا يخرج من البيت ولا يحتك بأحد من أقرانه، وأرسل إلى خشداشه حسين بك المعروف بكشكش فأحضره من جرجا وكان حاكما بالولاية، فأمره بالإقامة فى قصر العينى ولا يدخل إلى المدينة، ثم أرسل إليه يأمره بالسفر إلى جهة البحيرة، وأحضروا إليه المراكب التى يسافر فيها ويريد بذلك تفرق خشداشينه فى الجهات، ثم يرسل إليهم ويقتلهم لينفرد بالأمر والرياسة ويستقل بملك مصر ويظهر دولة نصف حرام وهو غرضه الباطنى، وضم إليه جماعة من خشداشينه وتوافقوا معه على مقصده ظاهراً، وهم حسن كاشف جوجه وقاسم (ص٥٠٩) كاشف وخليل كاشف جربجى وعلى أغا المنجى وإسماعيل كاشف أبو مدفع وآخر يسمى حسن كاشف وكانوا من أخصايه وملازميه، فاشتغل

* نفى على بك [الكبير] فيما بعد إلى النوسات.

معهم حسين بك كشكش واستمالهم سراً واتفق معهم على اغتياله فحضروا عنده في يوم الجمعة على جرى عادتهم، وركبوا صحبته إلى القافلة فزاروا ضريح الإمام الشافعي، ثم رجع صحبتهم إلى مصر القديمة فنزلوا بقصر الوكيل وباتوا صحبته في أنس وضحك، وفي الصباح حضر إليهم الفطور فأكلوه وشربوا القهوة وخرج المماليك ليأكلوا الفطور مع بعضهم وبقى هو مع الجماعة وحده وكانوا طلبوا منه انعاما فكتب إلى كل واحد منهم وصولاً بألف ريال وألف إردب قمح وغلال، ووضعوا الأوراق في جيوبهم ثم سحبوا عليه السلاح وقتلوه وقطّعوه قطعا ونزلوا من القصر وأغلقوه على المماليك والطايفة من خارج، وركب حسن كاشف جوجه ركوبة حسين بك وكان موعدهم مع حسين بك كشكش عند المجراة [مجرى العيون]، فإنه لما أحضروا له مراكب السفر تلكأ في النزول وكلما أرسل إليه حسين بك يستعجله بالسفر يحتج بسكون الريح أو ينزل بالمراكب ويعدى إلى البر الآخر ويوهم أنه مسافر، ثم يرجع ليلا ويتعلل بقضاء أشغاله، واستمر على ذلك الحال ثلاثة أيام حتى تمم أغراضه وشغله مع الجماعة ووعدهم بالإمريات* ، واتفق معهم انه ينتظرهم عند المجراة وهم يركبون مع حسين بك ويقتلونه في الطريق إن لم يتمكنوا (ص٥١٠) من قتله بالقصر، فقدر الله انهم قتلوه وركبوا حتى وصلوا إلى حسين بك كَشْكَشْ فأخبروه بتمام الأمر، فركب معهم ودخلوا إلى مصر وذهب كَشْكَشْ إلى بيت حسين بك بالداودية وملكه بما فيه وأرسل باحضار خشداشينه المنفيين، وعندما وصل الخبر إلى على بك الغزاوى ببركة الرطلي ركب في الحال مع القاتلين وطلعوا إلى القلعة وأخذوا في طريقهم أكابر الوجاقلية

* الإمريات: جمع إمرة وهى الإمارة.

ومنهم حسن كتخدا أبو شنب وهو من أغراض حسين بك المقتول وكان مريضاً بالاكله * في فمه وقالوا لبعضهم إن لم يركب معنا أو أنه اعترض على فعلنا قتلناه، فلما دخلوا إليه وطلبوه نزل إليهم من الحريم، فإخبروه بقتلهم حسين بك فلم يجبهم إلا بقوله «هو أخوكم وفيكم الخلف والبركة» فطلبوه للركوب معهم فاعتذر بالمرض فلم يقبلوا عذره، فتطيلس* وركب معهم إلى القلعة، وولوا على بك الكبير البلد عوضا عن حسين بك المقتول، وكان قتله في شهر صفر سنة إحدى وسبعين، ثم إن مماليكه وضعوا أعضاءه في خرج وحملوه على هجين ودخلوا به إلى المدينة فادخلوه إلى بيت الشيخ الشبراوى بالرويعى* فغسلوه وكفنوه ودفنوه بالقرافة، وسكن على بك المذكور بيت حسين بك الصابونجى الذى بالأزبكية، وأحضروا على بك من النوسات، وعثمان بك الجرجاوى من أسيوط، وقلدوا خليل كاشف صنجقية واسماعيل أبو مدفع كذلك، وقاسم كاشف قلدوه الزعامة (ص٥١١) ثم قلدوا بعد أشهر حسن كاشف المعروف بجوجه صنجقية أيضاً، وكان ذلك في ولاية على باشا ابن الحكيم الثانية، فكان حال حسين بك المقتول مع قاتليه كما قال الشاعر:

واخوان أتخذتهمو دروعاً
فكانوها ولكن للأعادى
وخلتهمو سهاما صائباتٍ
فكانوها ولكن في فؤادى
وقالوا قد صفت منا قلوبٌ
لقد صدقوا ولكن من ودادى

* الإكلة بكسر الهمزة هى الحكة وهى داء فى العضو يتأكل منه وهو المعروف بالجرب.

* تطيلس: أى لبس الطيلسان وهو كساءٌ يلبسه الخواص.

* الرويعى: من أحياء القاهرة جهة الجامع الأحمر شرقى ميدان الخازندار.

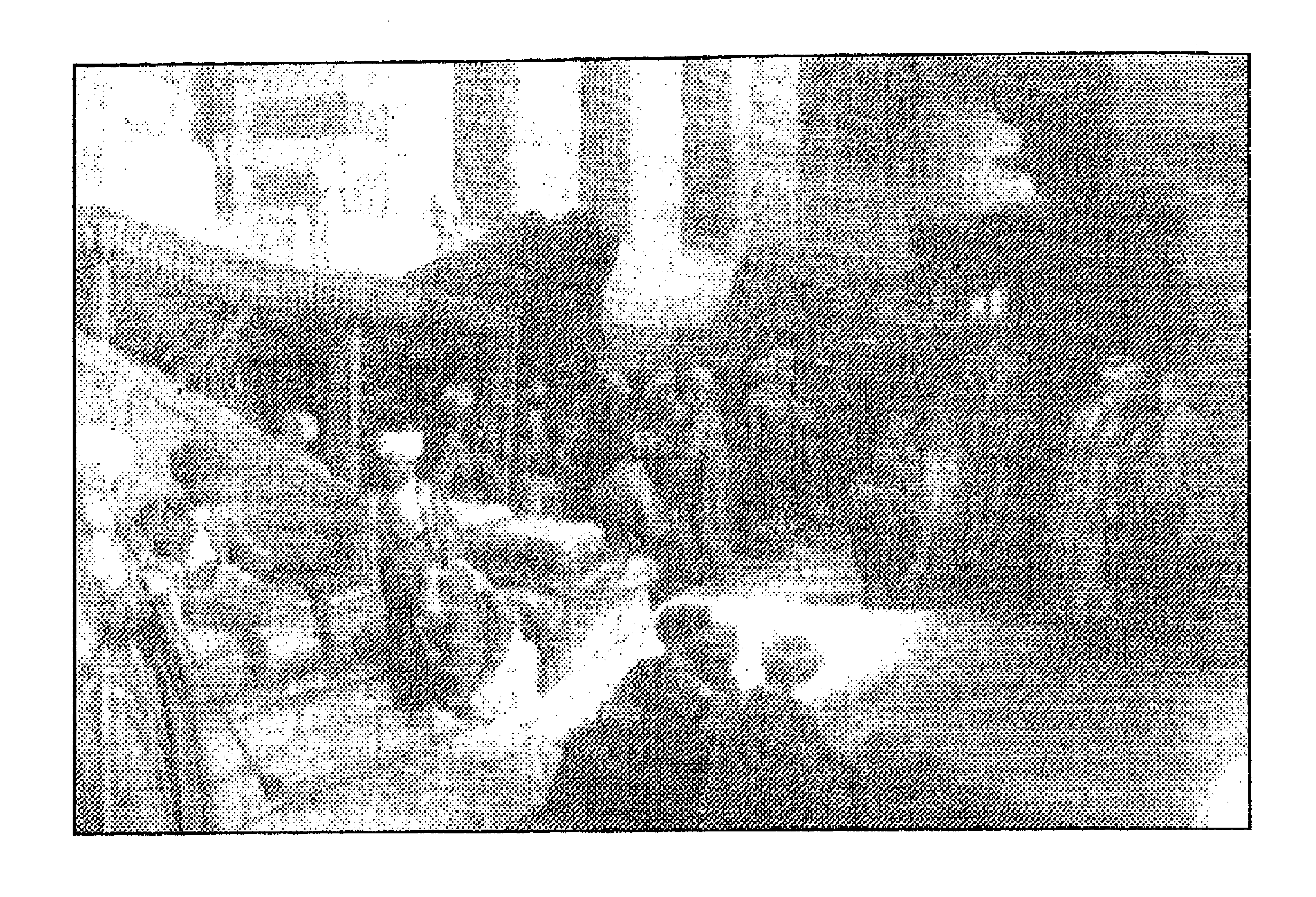
وقـالوا قـد سـعـينا كل يوم
لقـد صـدقـوا ولكن فى فـسـادى

ولأبى اسحق التلمسانى:

الغـدر فى الناس شـيـمـة سلفتْ
فـقـد طال بين الورى تصـرفـهـا
مـا كل من قـد سـرت له نعمٌ
منك يَرى قـدرَها ويعـرفـهـا
بل ربما أعـقب الجـزاء بهـا
مـضـرةَ عـزَّ عنك مَـصْـرفـهـا
أما ترى الشمس كيف تعطف بالنـور على البدر وهو يكسفها

٢٤٦ عبد الله الشبراوى
ت/ ١١٧١ هـ = ١٧٥٨م.

وأمـا مـن مـات فـى هـذا التـاريـخ مـن الأعـيـان، خـلاف حسين بـك المذكـور فالشـيـخ الإمـام الفـقـيـه المحـدث الأصـولى المتكلـم الماهـر الشـاعـر الأديب/ عبـد الله بـن محـمـد بـن عامـر بـن شـرف الديـن الشبـراوى (ص٥١٢) الشـافـعـى، ولـد تقريبـاً فـى سنـة اثنـتين وتسـعـين وألـف، وهـو مـن بـيـت العلم والجـلالـة، فـجـدُّه عـامـر بـن شـرف الديـن ترجـمـه الأمينـى فـى الخلاصـة ووصفـه بالحفـظ والذكـاه، فأول مـن شـملتـه إجازتـه سيـدى محـمـد بـن عـبـد الله الخـرشـى وعـمـره إذ ذاك نحـو ثمـان سنـوات، وذلك فى سنة ألف وماية، وتوفى الشيخ الخرشى المالكى فى سابع عشرين الحجة سنة واحد وماية وألف، وتولى بعده مشيخة الأزهر الشيخ محـمد النشرتى المالكى وتوفى فى ثامن عشرين الحجة سنة عشرين وماية وألف، ووقع بعد



موته فتنة بالجامع الأزهر بسبب المشيخة والتدريس بالآقبغاوية* ، وافترق المجاورون فرقتين فرقة تريد الشيخ أحمد النفراوى والأخرى تريد الشيخ عبد الباقى القلينى، ولم يكن حاضراً بمصر فتعصب له جماعة النشرتى وأرسلوا يستعجلونه للحضور، فقبل حضوره تصدر الشيخ أحمد النفراوى وحضر للتدريس بالأقبغاوية، فمنعه القاطنون بها وحضر القلينى فانضم إليه جماعة النشرتى وتعصبوا له، فحضر جماعة النفراوى إلى الجامع ليلا ومعهم بنادق وأسلحة وضربوا بالبنادق فى الجامع وأخرجوا جماعة القلينى وكسروا باب الأقبغاوية وأجلسوا النفراوى مكان النشرتى، فاجتمعت جماعة القلينى فى يومها بعد العصر وكبسوا الجامع وقفلوا أبوابه وتضاربوا مع جماعة النفراوى

* الآقبغاوية: هى مدرسة تنسب إلى الأمير آقبغا، بناها فى سنة ٧٤٠ هـ بالأزهر الشريف.

فقتلوا منهم نحو العشرة أنفار وانجرح بينهم جرحى كثيرة، وانتهبت الخزاين وتكسرت القناديل، وحضر الوالى فاخرج (ص٥١٣) القتلى وتفرق المجاورون ولم يبق بالجامع أحد، ولم يصلّ فيه ذلك اليوم، وفى ثانى يوم طلع الشيخ أحمد النفراوى إلى الديوان ومعه حجة الكشف على المقتولين، فلم يلتفت الباشا إلى دعواه لعلمه بتعديه وأمره بلزوم بيته وأمر بنفى الشيخ محمد شنن إلى بلده الجدية وقبضوا على من كان بصحبته وحبسوهم فى العرقانة* وكانوا اثنى عشر رجلا. وتطاول حسن أفندى نقيب الأشراف على الشيخ النفراوى والشيخ شنن فى الديوان بحضرة الباشا ومن جملة ما قال له «جماعتك المفاسيد الذين هم عاملون طلبة علم يصعدون على المنارة ويقولون فى محل الأذان يا آل حرام ويضربون بالرصاص فى المسجد!!؟». واستقر القلينى فى المشيخة والتدريس ولما مات تقلد بعده الشيخ محمد شنن، وكان النفراوى قد مات، ولما مات الشيخ شنن تقلد المشيخة الشيخ إبراهيم بن موسى الفيومى المالكى.

ولما مات فى سنة سبع وثلاثين انتقلت المشيخة إلى الشافعية فتولاها الشيخ عبد الله الشبراوى المترجم المذكور فى حياة كبار العلماء، بعد أن تمكن وحضر الأشياخ

* العرقانة: أحد سجون القاهرة فى ذلك الوقت.

كالشيخ خليل بن إبراهيم اللقانى والشهاب الخليفى والشيخ محمد بن عبد الباقى الزرقانى والشيخ أحمد النفراوى والشيخ منصور المنوفى والشيخ صالح الحنبلى والشيخ محمد المغربى الصغير والشيخ عيد التمرسى، وسمع الأولية وأوايل الكتب من الشيخ عبد الله بن سالم البصرى أيام حجه، ولم يزل (ص٥١٤) يترقى فى الأحوال والأطوار ويفيد ويملى ويدرس حتى صار أعظم الأعاظم، ذا جاه ومنزلة عند رجال الدولة والأمراء ونفذت كلمته وقبلت شفاعته وصار لأهل العلم ماعندهم، وعمّر داراً عظيمة على بركة الأزبكية بالقرب من الرويعى وكذلك ولده سيدى عامر عمّر داراً تجاه دار أبيه وصرف عليها أموالا جمة، وكان يقتنى الظرايف والتحايف من كل شىء، والكتب المكلفة النفيسة بالخط الحسن، وكان راتب مطبخ ولده سيدى عامر فى كل يوم من اللحم الضانى رأسين من الغنم السمان يذبحان فى بيته، وكان طلبة العلم فى أيام مشيخة الشيخ عبد الله الشبراوى فى غاية الأدب والاحترام، ومن آثاره كتاب مفايح الألطاف فى مدايح الأشراف، وشرح الصدر فى غزوة بدر، ألفها بإشارة على باشا ابن الحكيم، وذكر فى آخرها نبذة

من التاريخ وولاة مصر إلى وقت صاحب الإشارة، وله ديوان يحتوى على غزليات وأشعار ومقاطيع مشهور بأيدى الناس وغير ذلك كثير، وأوردت فى هذا المجموع كثيراً من كلامه بحسب المناسبات، توفى فى صبيحة يوم الخميس سادس ذى الحجة ختام سنة إحدى وسبعين وماية وألف وصُلى عليه بالأزهر فى مشهد حافل عن ثمانين سنة تقريباً.

٢٤٧ حسن بن على المنطاوى المدابغى. ت / ١١٧٠ هـ = ١٧٥٧م.

[ومات] الشيخ الإمام الأحق بالتقديم (ص٥١٥) الفقيه المحدث الورع الشيخ/ حسن بن على بن أحمد بن عبد الله الشافعى الأزهرى المنطاوى الشهير بالمدابغى، أخذ العلوم عن الشيخ منصور المنوفى وعمر بن عبد السلام التطاونى والشيخ عيد النمرسى والشيخ محمد بن أحمد الوزازى ومحمد بن سعيد التنبكتى وغيرهم، خدم العلم ودرس بالجامع الأزهر وأفتى وألف وأجاد، منها حاشيته على شرح الخطيب على أبى شجاع نافعة للطلبة، وثلاثة شروح على الأجرومية وشرح الصيغة الأحمدية وشرح الدلايل وشرح على حزب البحر، وشرح حزب النووى شرحاً لطيفاً واختصر شرح الحزب الكبير للبنانى ورسالة فى القراءات العشر وأخرى فى فضايل ليلة القدر وأخرى فى المولد الشريف، وحاشيته على جمع الجوامع المشهورة، وحاشيته على شرح الأربعين لابن حجر، واختصر سيرة ابن الميت وحاشية التحرير وحاشية على الأشمونى، وشرح قصيدة المقْرى التى أولها سبحان من قسم الحظوظ

وحاشية على الشيخ خالد وغير ذلك، ومن إملائه أو لبعض مشايخه فى أقسام الجملة الحالية:

ولزم الواو مضارعا بقد
وانفرد الضمير فى سبع تُعد
ماض تلا الا ومتلوّ بأو
كذا مضارع بما أولا نفوا
أو مثبت أو أكدت جملة أو
معطوفة والباقى مطلقاً رووا

(ص٥١٦) توفى فى عشرين شهر صفر سنة سبعين وماية وألف، ورثاه الشيخ عبد الله الإدكاوى بقصيدتين، إحداهما غينية مطلعها:

مضى عالم العصر الإمامُ لربه
حميد المساعى فاندُبَنّه وبالغِ

وبيت تاريخها:

ولما قضى ذاك المهذبُ نحبَه
وآب برضوان من الله سابغِ
دعوت أحبّانى وقلت لهم قفوا
معى عند ذا التاريخ نبكى المدابغى

والثانية نونية مطلعها:

صبراً فذا الدهر من عاداته المحن
وفى تلوّنه قد حارت الفطن

وبيت تاريخها:

والحور جاءتك بالبشرى مؤرخةً
حليت من حلل الأبرار يا حسنُ

٢٤٨ محمد بن الطيب القاسى.
ت/ ١١٧٠ هـ = ١٧٥٦م.

[ومات] العلامة القدوة شمس الدين/ محمد بن الطيب بن محمد الشرفى الفاسى، ولد بفاس سنة عشر وماية وألف واستجاز له والده من أبى الأسرار حسن بن على العجمى من مكة المشرفة وعمره إذ ذاك ثلاث سنوات فدخل فى عموم إجازته وتوفى بالمدينة المنورة سنة سبعين وماية وألف وتاريخه مغلق عن ستين عاماً، رحمه الله تعالى.

٢٤٩ داود بن سليمان الشرنوبى.
ت/ ١١٧٠ هـ = ١٧٥٦م.

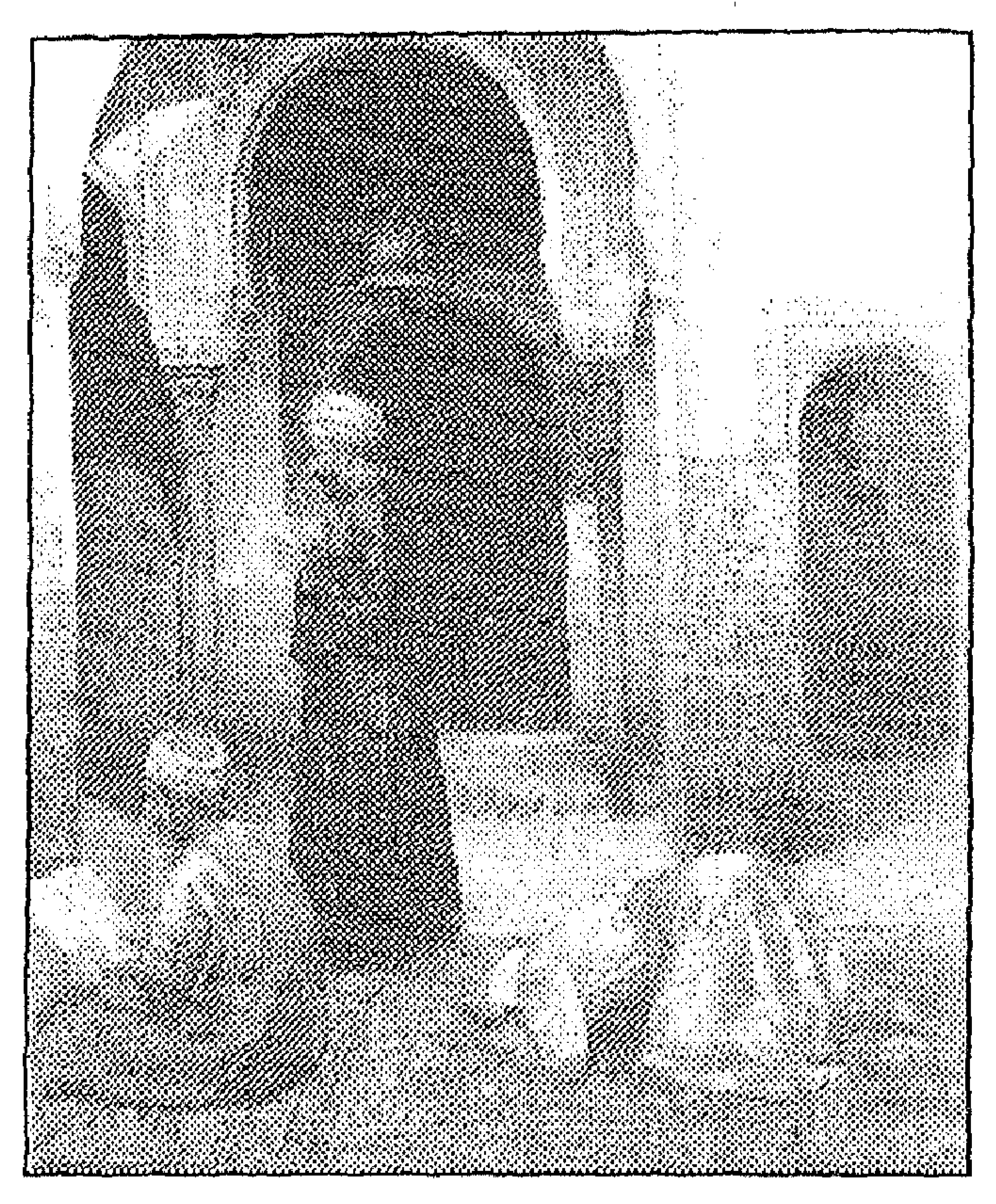
[ومات] الشيخ/ داود بن سليمان بن أحمد بن محمد بن عمر بن عامر بن خضر الشرنوبى البرهانى المالكى الخربتاوى، ولد سنة ثمانين وألف وحضر (ص٥١٧) على كبار أهل العصر كالشيخ محمد الزرقانى والخرشى وطبقتهما، وعاش حتى ألحق الأحفاد بالأجداد، وكان شيخاً معمّراً مسنداً له عناية بالحديث، توفى فى جمادى الثانية سنة سبعين وماية وألف.

٢٥٠ محمد بن على الجزائى.
ت/ ١١٧٠ هـ = ١٧٥٦م.

[ومات] الشيخ القطب العارف الواصل الشيخ/ محمد بن على الجزائى القاسمية الشهير بكشك، ورد مصر صغيراً وبها نشأ وحج وأخذ الطريقة عن سيدى أحمد السوسى تلميذ سيدى قاسم، وجعله خليفة القاسمية بمصر، فلوحظ بالأنوار والأسرار، ثم دخل المغرب ليزور شيخه فوجده قد مات قبل وصوله بثلاثة أيام وأخبره تلامذة الشيخ أن الشيخَ أخبر بوصول المترجمَ وأودع له أمانة فأخذها ورجع إلى مصر وجلس للإرشاد وأخْذ العهود، ويقال إنه تولى القطبانية، توفى سنة سبعين وماية وألف.

٢٥١ محمد بن احمد الحنفى الصايم.
ت/ ١١٧٠ هـ = ١٧٥٦م.

[ومات] الشيخ الفقيه الفاضل العلامة/ محمد بن أحمد



الحنفى الأزهرى الشهير بالصايم، تفقه على سيدى على العقدى والشيخ سليمان المنصورى والسيد محمد أبى السعود وغيرهم، وبرع فى معرفة فروع المذهب، ودرّس بالأزهر وبمشهد الحنفى ومسجد محرم فى أنواع الفنون، ولازم الشيخ العفيفى كثيراً ثم اجتمع بالشيخ احمد العريان وتجرد للذكر والسلوك وترك علايق الدنيا ولبس زى الفقراء، ثم باع ما ملكت يداه وتوجه إلى السويس فركب فى سفينة فانكسرت فخرج مجرداً بساتر العورة، ومال إلى بعض خباء الأعراب فأكرمته امرأة منهم وجلس عندها مدة يخدمها، ثم وصل إلى الينبع على هيئة رثة وأوى إلى جامعها، واتفق له أنه صعد ليلة من الليالى على المنارة وسبّح على طريقة المصريين* فسمعه الوزير إذ كان منزله قريباً من هناك، فلما أصبح (ص٥١٨) طلبه وسأله فلم يظهر حاله سوى أنه من

* التسبيح على طريقة المصريين.

الفقراء، فأنعم عليه ببعض ملابس وأمره أن يحضر إلى داره كل يوم للطعام، ومضت على ذلك برهة إلى أن اتفق موت بعض مشايخ العربان وتشاجر أولاده بسبب قسمة التركة فأتوا إلى الينبع يستفتون، فلم يكن هناك من يفك المشكل، فرأى الوزير أن يكتب السؤال ويرسله مع الهجّان بأجرة معينة إلى مكة يستفتي العلماء، فاستقل الهجان الأجرة ونكص عن السفر ووقع التشاجر في دفع الزيادة للهجان، وامتنع أكثرهم ووقعوا في الحيرة، فلما رأى المترجم ذلك طلب الدواة والقلم وذهب إلى خلوة له بالمسجد فكتب الجواب مفصلا بنصوص المذهب وختم عليها وناوله للوزير، فلما قرأه تعجب وقال له «لِمَ تّخف نفسك وأنت من علماء الإسلام والمسلمين؟» فاعتذر بأنه لو قال كذلك لم يصدقه أحد لرثاثة حالة، فحينئذ أكرمه الوزير وأجله ورفع منزلته وعين له من المال والكسوة، وصار يقرأ دروس الفقه والحديث هناك حتى اشتهر أمره وأقبلت عليه الدنيا، فلما امتلأ كيسه،وانجلى بؤسه، وقرب ورود الركب المصرى، رأى الوزير تفلته من يده فقيد عليه ثم لما لم يجد بداً عاهده على أنه يحج ويعود إليه، فوصل مع الركب إلى مكة وأُكرِم وعاد إلى مصر، ولم يزل على حالة مستقيمة حتى توفى عن فالج جلس فيه شهوراً فى سنة سبعين ومائة وألف وهو منسوب إلى سفط الصايم إحدى قرى مصر من أعمال الفشن بالصعيد الأدنى، ولم يخلف فى فضايله مثله، رحمه الله.

٢٥٢ على بن تاج الدين محمد القلعى. ت/ ١١٧٢ = ١٧٥٨م.

[ومات] الإمام الأديب الماهر المتفنن أعجوبة الزمان على بن تاج الدين محمد ابن عبد (ص٥١٩) المحسن بن محمد بن سالم القلعى الحنفى المكى، ولد بمكة وتربى فى حجر أبيه

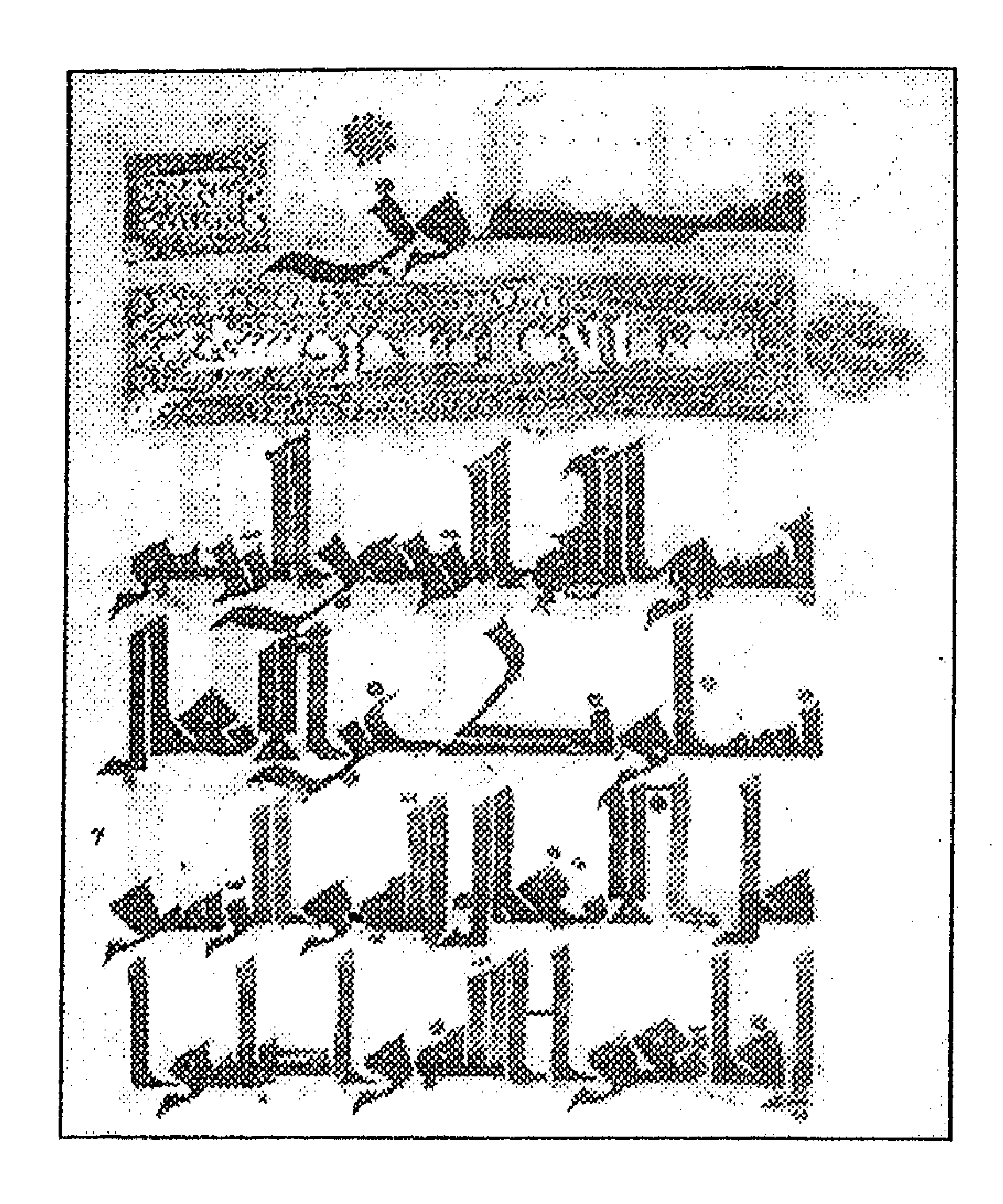
فى غاية العز والسيادة والسعادة، وقرأ عليه وعلى غيره من فضلاء مكة، وأخذ عن الواردين إليها، ومال إلى فن الأدب وغاص فى بحره فاستخرج منه الآلىء والجواهر، وطارح الأدبا فى المحاضر فبان فضله وبهر برهانه، ورحل إلى الشام فى سنة اثنتين وأربعين وماية وألف واجتمع بالشيخ عبد الغنى النابلسى فأخذ عنه، وتوجه إلى الروم وعاد إلى مكة وقدم إلى مصر سنة ستين، ثم غاب عنها نحو عشر سنين، ثم ورد عليها وحينئذ كمّل شرحه على بديعيته وعلى بديعيتين لشيخه الشيخ عبد الغنى وغيره ممن تقدم وهى عشر بديعيات، وشرحه على بديعيته ثلاث مجلدات قرظ عليه غالب فضلاء مصر كالشبراوى والإدكاوى والمرحومى، ومن أهل الحجاز الشيخ ابراهيم المنوفى، وهذا تقريظ الشبراوى نقلته من ديوانه:

أذاك ثغر تبسم
أم ذاك لطف تجسم
أم روضة قد تغنى
شحرورها* وترنم
أم الصَبا حينَ هبّت
أزالت الهم والغم
أم برق نعمان لما
بدا من الغور أوهمْ
أم ذاك بلبل فضل
عن المحاسن ترَجم
أم ذاك عهد المصلى
نحو العُذيب ويممْ
قد كنت أعتب دهرى
وأحسَبِ الدهر أعقم

* شحرورها: الشُحْرور: بضم الشين وسكون الحاء طائر أسود أكبر من العصفور حسن الصوت جمعه شحارير.



وطالما ساء ظني
وقلت يا دهر كم كم
كم جاهل يتعالى
وفاضل يتألم
وكم طلبت عليما
فقال لالا وصمم
وقلت يا دهر مه مه
فصد عني وهمهم
(ص٥٢٠) فقلت دهري بخيل
بالفضل والله أكرم
وكاد فكري ينادي
ربّع المعالي تهدم



حتى رأيت عجيبا

من فضلك الباهر أجم

فقال لى مدح هذا

فرض عليك محتم

وفى امتداح سواه

لزوم ما ليس يلزم

هذا هو الفضل هذا

مقام من رام يغنم

وعِقْد در فريدِ

نماه بيت محرم

مرباه بانات نجد

وسرح ذاك المخيم

مــحــاسن ليس تحــصى
وحــدّهـا لـيس يعـلـم
وإن تـرد منتــهــاهـا
أعــيــتك، والصــمت أسلم
يا واحــد العــصــر لطفــاً
يـا ابن المقــام وزمــزم
أنت الهــمــام المفــدّى
إن سلّم الضـــدُّ أو لـمْ
أنت الذى حــزت مــجــداً
يـكفـى الـورى لـو تـقــسّمْ
أنــت الــذى لـــو رآه
بـديـع هَمــذان سلّم
أو كــان للســعــد سـعـد
لــكــان مــنــك تــعــلّم
فــيــارعى اللّه خطا
بـالحظ مــعناه قــد عم
أفــديــه خـطـاً ولـفـظـا
أتـى مـن اليــد والـفـم
إن قــلــتُ خــطٌ عــلــىّ
فــالحظُّ أعـلـى وأعـظـم
أو قـلـتُ حِــفْظٌ قــوى
فــالفــهـم أقــوى وأقــوم
أو قـلـتُ فــرع زكـى
فــالأصـل تـاج مـكـرم
لا واخَــذَ اللّه دهـرا
فــيــمـا مــضى كـان أجـرم
ســامــحتُ دهـرىَ لما
رأيــتــه بـك أنـعـم

وقد وجدتُك تُبدى
لفظاً كدرٍ منظمْ
لله درُّكَ حَبْرا
أُعطيت فى الفضل ما لم*
فكل لفظك لطفٌ
وكل معناك محكم (ص٥٢١)
فإن تفه ببديع
فهو البديع المتمّم
وإن أتيت بنظم
أشحيت كل متيمْ
وإن تكلمت نثرا
أعربته وهو معجمْ
وكلما قلت قولا
فذاك قول مسلّم
وإن أقمت دليلاً
فهو الدليل المقوم
ماذا أقول إذا ما
أردت أن أتكلم؟
أوصافُك الغر فاقت
عما أُحيط وأعلم
يا دهر أنعمت فاغفر
ما كان منّى وارحم
ويا لسانى تأخر
ويا بنانى تقدم
فما له من نظير فى
الذات والكيف والكم
وكل وصف جميلٍ
لغيره فيه قد تم

* ما لم: أى ما لم يعطه غيرك.

وكـــــيف أثنـى عليـــــه
وفـــــــضلـه أجَم الـفْـم
وغـــــــايـة الأمـــــــر أن
عـــــجـــــزت والـلـه أعـلـم

وكان للمترجم بالوزير المرحوم علي باشا ابن الحكيم التمام زايد لكونه له قوة يدٍ ومعرفة في علم الرمل، وكان في أول اجتماعه به في الروم أخبره بأمور فوقعت كما ذكر، فازداد عنده مهابةً وقبولاً، ولما تولى المذكور ثاني توليته وهي سنة سبعين، قدم إليه من مكة من طريق البحر، فأغدق عليه مالا يوصف، ونزل في منزل بالقــرب من جــامع أزبك بخط الصليبية، وصار يركب في موكب حافل تقليداً للوزير، ورتب في بيته كتخدا وخازنداراً والمصرف والحاجب على عادة الأمراء، وكان فيه الكرمُ المفرطُ والحياءُ والمروة وسعة الصدر في إجازة الوافدين مالا وشعرا، ومدحه شعراءُ عصره بمدايحَ جليلة، منهم الشيخ عبد الله الإدكاوى له فيه عدة قصايدِ وجوزى بجوايز سنية، ولما عزل (ص٥٢٢) مخدومه توجه معه إلى الروم، فلما ولى الختام* ثانياً زاد المترجم عنده أبهةَ حتى صار في سُدَّة* السلطنة أحد الأعيان المشار إليهم، واتخذ دارا واسعة فيها أربعون قصراً ووضع في كل قصر جارية بلوازمها، ولما عزل الوزير ونفى إلى إحدى مدن الروم سلب المترجم جميعَ ما كان بيده ونفى إلى سكندرية فمكث هناك حتى مات في سنة اثنتين وسبعين ومائة وألف شهيداً غريباً، ولم يخلف بعده مثله، وله ديوان شعر ورسايل منها «تكميل الفضل بعلم الرمل»، «ومتن البديعية»، سماهُ «الفرج في مدح عالى الدَرَج»، اقترح فيها بأنواع منها وسع الاطلاع والتطريز والرث والاعتراف والعود والتعجيب

* ولى الختام: أى ولى الأمر للمرة الأخيرة.

* سُدَّة السلطنة: بلاط السلطنة ويقصد به الباب العالى.

والترهيب والتعريض، وأمثلة ذلك كله موضحة فى شرحه على البديعية، ومن مقاطيعه وفيه التذييل.

بوجهك الحسن زاه
وأنت بالحسن زاهر
ومن سنائك واف
وأنت يا بدر وافر
وإن طرفى ساه
وجفنه منك ساهر
ومن صدودك شاك
ومن وصالك شاكر

وله فيه الجناس المعنوى المضمر:

كَلام هذا الثغر مثل الرّقى
يُذهب عنى يا حبيبى الكِلام*
فقلت ما لو قال خالى على
لام عذار قلت هذاك لامْ

وله فيه الجناس اللفظى:

ضنّت بوصلى وظنت أن سلوت وما (ص٥٢٣)
ظن العذول بمن لا ضن بالمال
غاظتْ علىّ وما غاضت محبتها
وعاضدتْ غيظها مع قول عذالى

وله فيه الجناس المطلق والتام المستوفى:

إن الظريف الذى أهواه قد ذهبا
وصرت فى فرق مذ فرق الذهبا
وَجدتُ بالروح كى يرضى بها فأبى
وقال هل هى فى مِلك الذى وهبا؟

* الكلام: بكسر الكاف الجروح والآلام ومَفردها كلْم بفتح الكاف وسكون اللام

وله وفيه الجناس المفروق:

بوادى الصالحية بدر تمٍ
فديتُ جمالهَ من صالحىَ
إذا ما صال من واديه قَوْمٌ
وجالوا قال لى قد صال حيى

(وله فى مدح أستاذه الشيخ عبد الغنى وفيه المدح بما يشبه الذم)

ولا عيب فى عبد الغنى سوى غنى
العلوم وتقوى الله مع نصح خلقه
ومعرفة الدنيا جميعا لكشفه
فمن ذاَ يقم حقا بواجب حقه؟

(وقال) الشيخ عبد الله الإدكاوى فى مجموعته المسماة (بضاعة الأريب من شعر الغريب) ما نصه «ولما كان عام ثمان وخمسين ومائة وألف، قدم علينا محروسة القاهرة، ذات المزايا الباهرة، المولى الفاضلُ الكامل، الأديبُ الألمعى، والأريب اللوذعى، نور الدين على بن تاج الدين الحنفى (ص٥٢٤) المكى القلعى، عالم مكة ومفتيها كان تغمده الله بالرحمة والرضوان، وأظهر من بدايعه الغريبة، وروايعه المطرية العجيبة، بديعته الغراء، وفريدته العذراء، المسماة الأنواع العجيبة الاختراع، وابتدع أنواعا لم يسبقه إليها سابق، ولا لحقه فيها لاحق، منها نوع سماه وسع الاطلاع، بديع الأوضاع، وقدر الله باجتماعى على ذلك الفاضل، وأسمعنى من بديع ألفاظه وألفاظ بديعه، ما غدا القلب به والهاً واهل، وشنّف سمعى من نوع وسع الاطلاع بقصايد

هي للعقول مصايد، تطفلت حينئذ على فصاحته الناصعة، وعزمت على السباحة في تلك اللجة الواسعة، فمدحته بهذه القصيدة:

صبٌ بوعـــدك كم مطلتـــه
هاجَـــرْتـه هلا أجـــرتـه!
سهرانُ نام مسـامـروه
هجَـعـا هلاْ أنمتـهْ
كـمـد دواعي بأسـه
هـاجـت تحكم مـا أثـرتـه
عـان نـواه كـراه هلا
أبْـتَ تكريمـا أرحـتـه
يـشكـو ومـن نـيـرانـه
هو وارد دمـعـا أسلتـه
أضـحى يؤكـد داءه
هيـمـانـه هلا أزلتـه
يا مـحنة تُصـبي يحل
لديك كم مـشق قـتلتـهْ

(ص٥٢٥) إلى آخرها، وهي طويلة، قال فحين قدمتها إليه، وتشرفت بلْم يديه، أجاز وتطول، ومدح وطوّل، وأوقفني مما اقترحه على نوع ثان سماه (العود يعجز لبَّ الفاضل عن البدء فيه والعود) ورأيته نظم منه بيتين أطرب من الثاني والثالث، وقال في عبارة «لأعز عندي من عزهما بثالث» فعملت له من هذا النوع قصيدة* مدحته بها وهي

عـقـيق دمـعي غـدا في الجِـذع كـالديم
مـذبان سكـان بـان الحي والعـلم

* هذه القصيدة على وزن وقافية قصيدة أبي عبد الله محمد بن زيد البوصيري المتوفى سنة ٨٧١هـ. وهي المشهورة بالبردة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم. وأولها:

أمن تذكر جيران بذي سَلَم
مزجت دَمعاً جرى من مُقلة بدم

وانهلّ منسجماً من نار مضطرم
ملآن وجدا إلى خشف* بذى سلم
ظبى نفور أنيس ناعس يقظ
بالليل متشح بالصبح ملتْم
أحوى أغن رشيق أحور غنج
نشوانَ صاح ظلوم عادل حكم
إن أرضَ يغضبْ وإن أقُرُب نأى صلفا
وإن أذلّ يتهْ بالعز والشّمَم
مهفهفٍ ما بدت للغصن قامته
إلا انثنى ذابل الأوراق ذا ضَرمِ
وإن تبسم ما برق بكاظمة
له وميض يجلّى داجيَ الظلمَ
ما فيه عيب سوى تفتير مقلته
وفتكها فى فؤاد المدنَفِ السقم
حلا ابتساما جلا وجها سبى قمرا
لان انعطافا قسا قلبا على الأمم (ص٥٢٦)
ابن الطفيل يحييه الفؤاد فدع
أبا معاذِ ملامى وارعَ لى ذممى
لستَ الرشيد ولا المأمون فى عَذَلى*
عن العزيز المليك البارع الفهم

ثم أورد أبياتا فى العود كما تقدم ذكره فى ترجمته ثم قال:

وعذْ ولذْ واحترز بالمفرد العلم
ابن المفرد العلم ابن المفرد العلم
هو الهمام الذى أضحت فضايله
بين الورى وهى كالأمثال فى الكلم

* خشف: بتثليث الخاء وسكون الشين الظبى الصغير. وذى سلم: موضع بين مكة والمدينة.

* العذل: بفتح الذال تعنى الملامة.

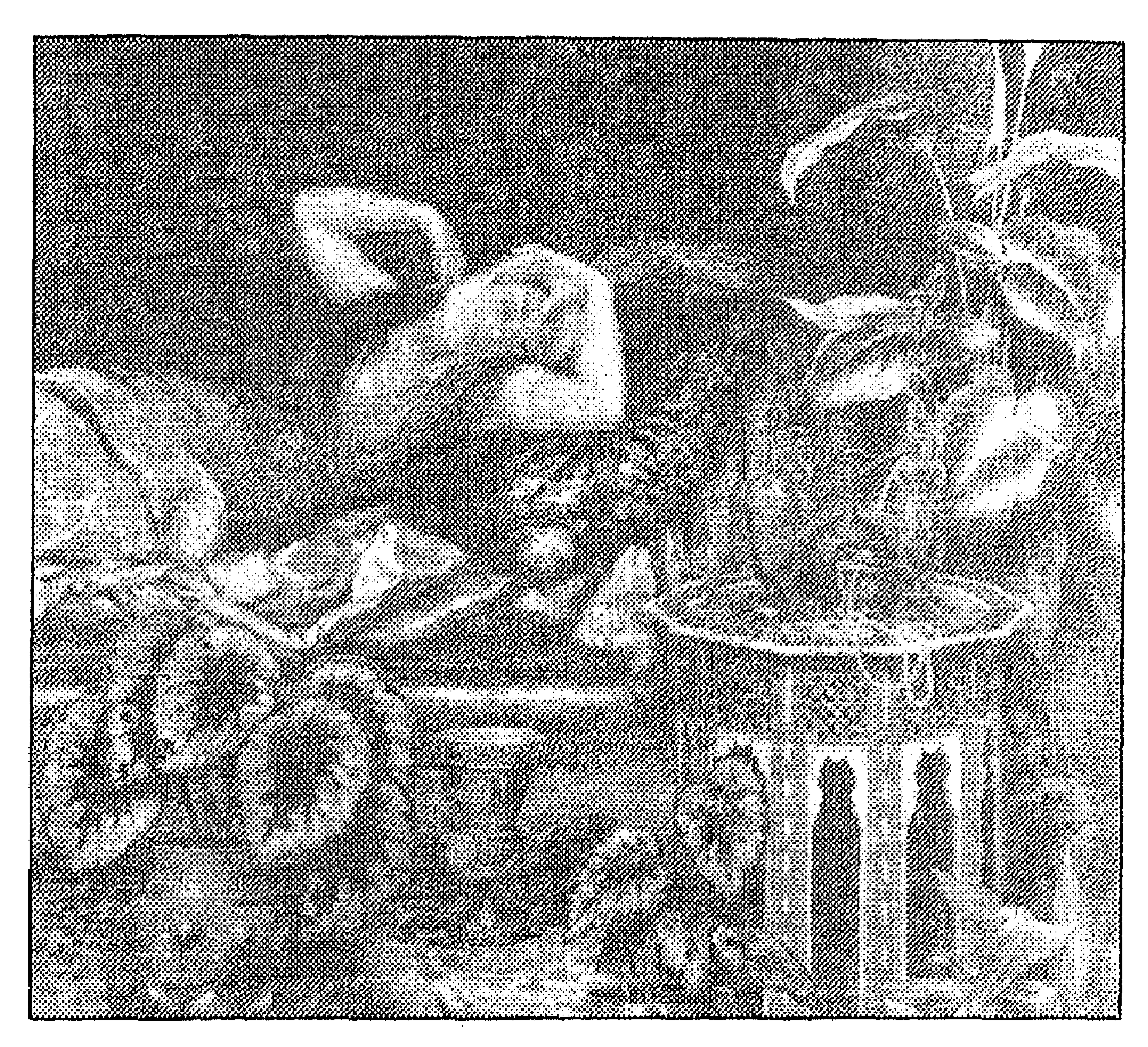


يمم حـــمــــاه وباعـــد من ســـواه تنل
ندى يعـمـك، ذا فـيض الحـيـا العـمـم

فالعلم والحلم والإفضال* والحسبُ الصميم فيه مع العلياء والهمم ثم قال:

أيا عـلـى بـن تـاج الـديـن يـا عـلَـم الآداب
يـا طـاهـرَ الأعـــــراقِ والـشـــــيـم
اســـمـع فـــرائدَ دُر من مـــحــبـك الأدْ
كـــاوىّ فى قـــدرك الموصـــوف بالعظَم
فى سلكهـــا نوع عَـــود أنت ســـيـــدنا
حـــقـــا أبو عُـــذرة إذ كـــان فى القـــدم
نوع عـــجـــيـب غـــريب فى مـــهـــامـــه
يحـــار كل فـــصـــيح فى المقـــال كـــمى

* الإفضال: بكسر الهمزة الاحسان.



من بحـوك الرائق العـذب اغـتـرفت فـلا

بدع إذا فـاق در العـقـد فى القـيم

فأمعن الفكر فيه هل به خلل؟ (ص٥٢٧)

أم جـاء وفق الذى أبدعت من حكم؟

واسلم ودم مـا شـدْت ورقـاءُ فى فنن

وازدان طِـرْس* بتنمـيق من الكلم

فلما وقف على هذه بعد الأولى قال «أنت بالتقريظ على بديعتى من كل أحد أولى» فقلت له «لست أهلا لذلك» فقال «بل أنت أقوى من كل أحد فى سلوك هذه المسالك» فلما رأيت وابل إلحاحه، أوردت هاطل نجاحه، فافتتحت قايلا:

* الطرسْ بكسر الطاء وسكون الراء هو الصحيفة.

قف لدى ذا الروض وانتشق
عبقاً ناهيك من عَبَقِ
روض آداب بدايعه
نزهة الآذان والحَدَقِ
حفظ الرحمنُ منشئه
ذا الكمال الطيب الخلق
العليّ اسماً ومنتسباً
من سما بالتاج للأفقِ

إلى أن قال:

دام مولانا ينزهنا
في معاني حسنها الأنقِ
ما شكا الأشجانَ ذو شجن
أوشَدتْ ورقاءُ ورقاءُ في الورَق

ثم تمم نثر التقريظ بما هو مذكور في مجموعته، لم أكتبه خوفاً من الملل، ثم قال «فلما أمعن النظر فيما رقمته، وتأمل ما قلته، قال «هذا من مثلك لا يكفي، ولا يطفئ الغليل ولا يشفي، بل لابد من تقريظ آخر (ص٥٢٨) على نوع وسع الاطلاع من جنسه الأنيق» فقلت «اعفني من الخوض في هذا البحر العميق» فقال «لابد من القول، واستعن بذي الطول» فمددت القلم، واستعنتُ بارى النسم، وقلت يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، أبدعت نظام هذا العالم وعلم هذا النظام، إلى آخره، وفيه قصيدة عينية أولها:

بديعُ حبانا به ذا البديعُ
بعيد على غيره لا يطيع
بديع لبيد لديه بليد
وليس بدان إليه مطيع

وهى طويلة وفى آخرها التقريظ:

لئن كان ما أهديتُ نحوك سيدى
غدا قاصراً عن قد درٍ نظمتهُ
فعذراً فذا جَهّد المقل ووسع
الاطلاع عزيز يا عزيزُ علمته
فإن راق معناه فأثبته فالذى
وحباك به المداح قبلى رَقمته
الا فدْعه فى الزوايا وقل هنا
أقم وادعاً واكَتمه فيما كتمته

وختمه بعد الدعاء بقصيدة لامية مطرزة، وبعدها جواب عن اعتراض ناقشه فيه بعض المعاصرين، وقد نظم الجواب والنقل والدليل فى سبعة عشر بيتاً.

٢٥٣ على بن جبريل [طبيب]. ١١٧٠ هـ = ١٧٥٦م.

[ومات] على بن جبريل المتطبب شيخ دار الشفاء بالمارستان المنصورى رئيس الرؤسا، والماهر الذى طودُ فضله رسا، أتقن فى فن (ص٥٢٩) الطب وشارك فى غيره من الفنون.
(ومن كلامه يمدح مجلس السادات) وكان السيد عبد الرحمن العيدروس حاضراً فيه:

والله لم يحــــو هذا فى الورى أحـــــدٌ
ممن تقـــدم فى عـــصـــر لنا سلفـــا
إذا أبصــرت مـقلتى قطبين قـد جُـمـعـا
العـيـــدروس وعــبـــد الخـــالق بن وفـــا

وكـان أحدَ جلسا الأمير رضوان كتخدا الجلفى ونديمَه وأنيسَه وحكيمه وعند ليبَ دوحته وهزارَ روضته، وكان أحدَ من منحت له يمينُ ذلك الأمير بالألوف، حتى أصبح بنعمته في جنات دانية القطوف، فمن بعض هباته الواصلة إليه، وصلاته الحاصلة لديه، أن وهب له بيتا على بركة الأزبكية، رؤيته تسر النفوس الزكية، وصفه عجيب، ورونقه بديع غريب، زجاجى النواحى والأرجا، من حيث التفت رائيه رأى منظرا بهجا، وقد مدحه أحبابه منهم الشيخ مصطفى أسعد اللقيمى، ومنهم الشيخ عبد الله الإدكاوى بما هو مذكور فى (الفوايح الجنانية فى المدايح الرضوانية) ومن شعر المترجَم فى ممدوحه المشار إليه:

يـا شـــــادنـاً دنـا ومـــــرْ
وراحَ يـهـــــزو بـالـقـــــمـــــر
ومـــخـــجـــلا بـانَ الرُّبـا
والـســـمـــهـــرىَّ إن خَـطَـرْ
يـــا بـــابـلـــىَّ الـلـحـظ يـا
من للعـــقـــول قـــد سـحــرْ
يـا مـنْ بـأشـــراك الـهـــوى
لـعـــاشـــقين قـــد أسـرْ
(ص٥٣٠) الـلـيـثُ أنـت إن سـطـا
أنـت الـغـــزالُ إن نـفـــر

يتيه في عشاقه
تِيهَ الملوكِ بالظفرْ
عذاره لما بدا
سبى لربات الحُجَر
رأينه أكبرنه
وقلن ما هذا بشرْ
وخده لما اختشى
بأن يصاب بالنظر
أرخى العذار ساترا
فصار يخطَف البصر
لمْ يبْق مِن حسنٌ يرى
لغيره ولم يذرْ
حاز البديعَ حسنهُ
وجامعا حسن الصور
فشَعره مطوّل
والخصر منه مختصرْ
في مصر أضحى مفردا
مثل العزيز المعتبر
غيث الندى رضوان منْ
زمانا به افتخر
لو رام جعفرٌ يكون
مثله لما قدر
يعطي النوال باسما
ولم يشبّه بالكدر
فالله واقيه لما
يخشاه من بأس وضرْ

وقد شطر هذه القصيدة الشيخ عبد الله الإكاوى بما هو مذكور فى ديوانه (وله أيضا) تشطير أبيات صفوان بن إدريس ويخلص منه إلى مخدومه وهى:

يا حسنَه والحسن بعض صفاته
رشأ يدير الراح من لحظاته
فاللين منحصر بقامة قده
والسحر مقصور على حركاته
بدر لو أن البدرَ قيل له اقترح
شيئاً يحاكي فيه بعض سماته
أو قيل ماذا أن تكون مؤملا
أملاً لقال أكون من هالاته
(ص٥٣١) وإذا هلال الشك قابل وجهه
بأقل ما يعطاه من درجاته
ولحظتَ صفحةَ خده بلطافة
أبصرته كالشكل فى مرآته
والخالَ نقَّط فى صفيحة خده
مسكاً على ورد زها بنباته
عجز ابن مقلة أن يكون مصوِّرا
ما خط حبرْ الصُدع من نوباته
ركب المآثم فى انتهاب نفوسنا
لم يخش يوم العرض من عرصاته
وهو المعذِّب أنفسا ذلت له
فالله يجعلهن من حسناته
مازلت أخطب للزمان وصاله
والمرء مجبول بحب حياته

وأبثه الشوق الذى وهن الحشا
حتى دنا والبعد من عاداته
فغفرت ذنب الدهر منه بليلة
فَطرتْ ـ مما أبدته ـ قلبَ وشاته
نسخ البِعادَ بحكمها فهى التى
غطّت على ما كان من زلاته
يتنا نشعشع والعفاف نديمنا
وأريه من كنز التقى آياته
وغدا السرورُ يدير فيما بيننا
خمرين من غزلى ومن كلماته
ضاجعته والليل يذكى تحته (ص٥٣٢)
حَرًّا توقد من مدى جفواته
سامرته والقرب يشعل بيننا
جمرين من ولهى ومن وجناته
حتى إذا ولِع الكرى بجفونه
وأزال ما يبديه من حركاته
وغدا يرنح كالقضيب قوامه
وامتد فى عضدىّ طوع سِناته
أوثقته فى ساعدىّ لأنه
شىء يعز علىّ وقت فواته
أودعته شرك الشعور فإنه
ظبى خشيت عليه من نفراته
وضممته ضمّ البخيلِ لماله
يخشى عليه الدهر من فلتاته
مغرى به لا يستطيع فراقه
يحنو عليه من جميع جهاته

عزمَ الغرامُ عليّ فى تقبيله
فنهاه داعى النسك عنْ همْاته
وقضى اشتياقى فيه لثمَ أكفه
فنفضت أيدى الطوع من عزماته
وأبى عفافى أن يقبل ثغره
أو أجتنى ما طابَ من لذاته
وأرى العواذل عزة وتجلدا
والقلب مجبول على حسراته
فاعجب لملتهب الجوانح غُلَة
يقضى أسى والبرءُ فى راحاته (ص٥٣٣)
أنفت خلائقُه الإساغةَ حيثما
يشكو الظما والماءُ فى لهواته
لا يستطيع تخلصا مما به
لا بمدح أخى العلا وحياته
رضوان أوحد من تفرد بالعطا
فمنائح الأجواد بعض هباته
المانح الإحسان كفٌ نزيله
والمانعُ اطمئنان قلب عِداته
فَنَداه كالبحر العُباب تدفقاً
وصِلاته تحكى لفرض صَلاتِه
والفارس المقدام فى يوم الوغا
والمرهب الآساد فى وثباته
لازال بِشْر السعد فى أبوابه
يهدى الهنا والعز فى ساحاته
يمسى ويصبح والعيون قريرة
منه بمن بهم حُلى روضاته

أقــمــار عــز في ســمــاء ســيــادة
أشــبــال ليث في ذُرا غــابــاتــه
أبقــاهمُ رب العــبــاد بعــزةٍ
يبــقــاه في حــال الزمــان وآتــه
مــتــنعــمين بروض أنس ناضــرٍ
يهــدى الصــفــا لهمُ صــبــا نفــحــاته
أهدى إليــه قــصــيــدة حــسنا زهت
مــيَّــاســة كــالبــانِ في عــذباته
لو أسمعوا صفوان حسن مديحه(ص٥٣٤)
وبديع ذى التــشطيــر من أبيــاته
ليــقــول من فــرط الســرور مــؤرخــاً
حــقــاً به تزهو بحــســن صــفــاته

وقال يمدحه بهذه الأبيات الثلاثة، التى معانى سحرها فى ذوى العقول نفاثة وهى:

وأبيك مــــا رضــــوان إلا آيــة
شــهــدت بذاك شــهــامــة الأفــعــالِ
يهب المواهب جــمــة بســمــاحــةٍ
مــتــرفــعــاً عن منّةٍ ومــلالِ
حــتى يصــيــر المعــدَمــون برفــده
مــتــرفــعين على ذوى الأمــوالِ

وقد شطرها جملةٌ من أدباء العصر كما هو مذكور فى تراجمهم، وقال مهنئاً بشفائه ومؤرخاً:

وجــه الزمــان بك ابتــهــج
وبدا بجــبــهــتــه البــلــج*

* البلج: بفتح الباء واللام بمعنى النور.

يا واحـــد العــــصــــر الذى
فـــيــه لقـــد جـــاء الفـــرج
وبـــه الـــهـــنـــا أرخ لـــنـــا
صـــحت بصـــحـــتـــه المهج

وله فى هذا المعنى مؤرخاً.

هلّ الســـرور فـــشـــغـــر الدهر مـــبـــتـــسمُ
وزال عن وجـــهـــه الإغـــضـــاء والغـــممُ
وأقـــبل البـــشـــر يثنى عِطفـــه مـــرحـــاً
وجـــيـــش عـــزك فى مُـــضـــناك يزدحم
وصـــامـت الـنـاس حـــتـى كـل نـاظـرهم
ومـــنـذ ظهـــرت هلالا عـــمـــهـم نِعمُ
أحييت بالبرء روح المكرُمات كما (ص٥٣٥)
أمتّ بالجـــود فـــقـــراً وجـــهُـــه كظمُ
فـــاهنأ ببـــرء لقـــد عـــاد الســـرورُ به
واســـتـــبـــشـــرتْ أممٌ من بعـــدها أممُ
مـــذصح جـــســـمك فـــالتـــاريخ يُنشـــدنا
قـــد عـــوفى المجـــدُ والإســـداء والكرمُ

ولما تغيرت دولة مخدومه وتغير وجه الزمان، عاد روض أنسه ذابل الأفنان، ذا أحزان وأشجان، لم يطب له المكان، ودخل اسمُ عزه فى خبر كان، وتوفى فى نحو هذا التاريخ.

٢٥٤ عبد الوهاب الدلجى
ت/ ١١٧١ ﻫ = ١٧٥٧م.

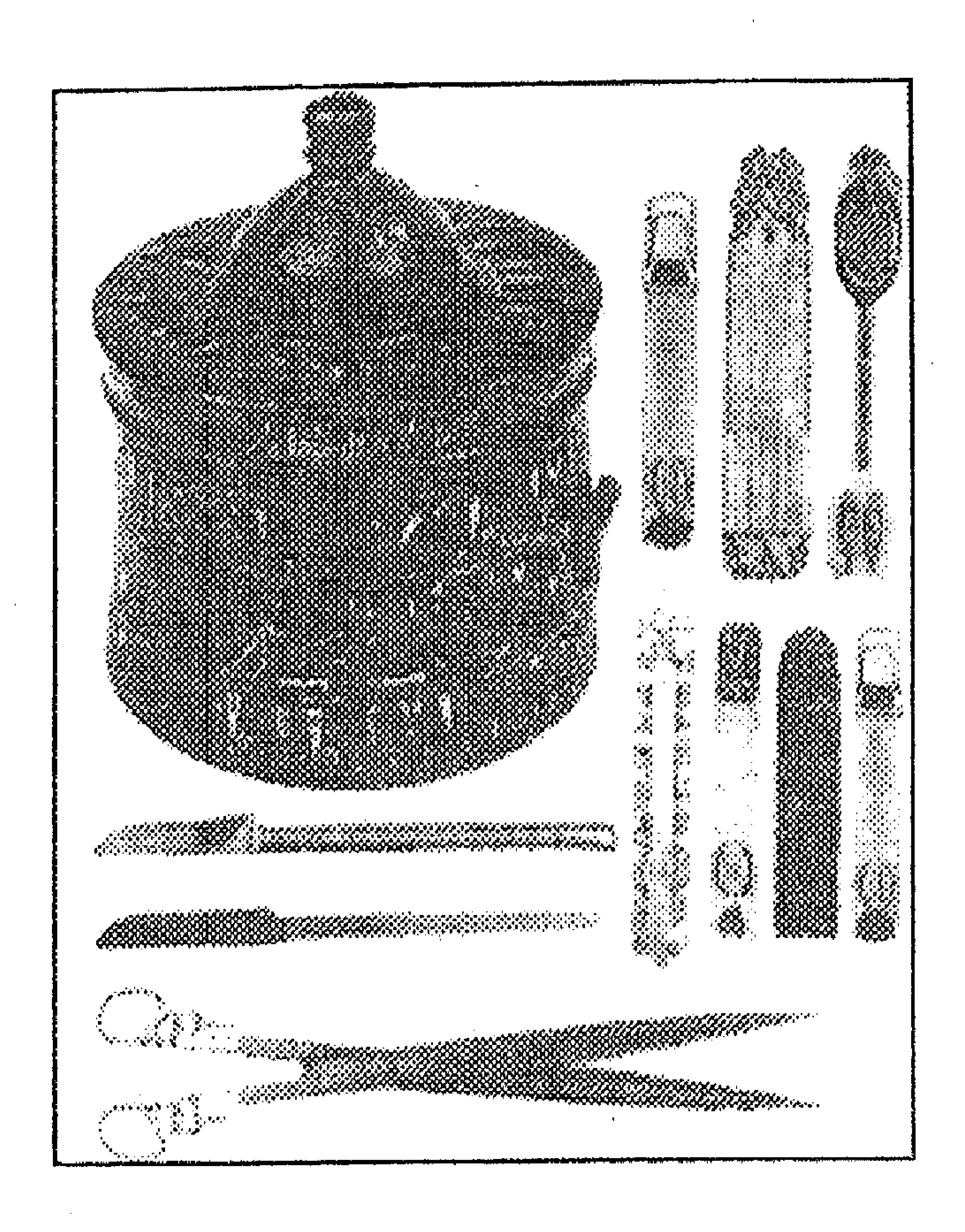
[ومات] العمدة الأجل النبيه الفصيح المفوه الشيخ/ يوسف بن عبد الوهاب الدُّلَجِى وهو أخو الشيخ محمد الدلجى، كلاهما ابنا خال المرحوم الوالد، وكان إنسانا حسنا ذا ثروة



وحسن عشرة وكان من جملة جلساء الأمير عثمان بك ذى الفقار، ولديه فضيلة ومناسبات، ويحفظ كثيرا من النوادر والشواهد، وكان منزله المشرف على النيل ببولاق مأوى اللطفاء والظرفاء ويقتنى السرارى والجوارى، توفى سنة إحدى وسبعين وماية وألف. عن ولديه حسين وقاسم وابنة اسمها فاطمة موجودة فى الأحياء إلى الآن.

٢٥٥ على بن خضر العمروسى
ت/ ١١٧٣ هـ = ١٧٥٩م.

[ومات] الشيخ النبيه الصالح/ على بن خضر بن أحمد العمروسى المالكى، أخذ عن السيد محمد السلمونى والشهاب النفراوى والشيخ محمد الزرقانى، ودرس بالجامع الأزهر وانتفع به الطلبة، واختصر المختصر الخليلى فى نحو الربع ثم شرحه، وكان إنسانا حسنا منجمعا عن الناس مقبلا على شانه، توفى سنة ثلاث وسبعين وماية وألف.



ادوات الخطاطين

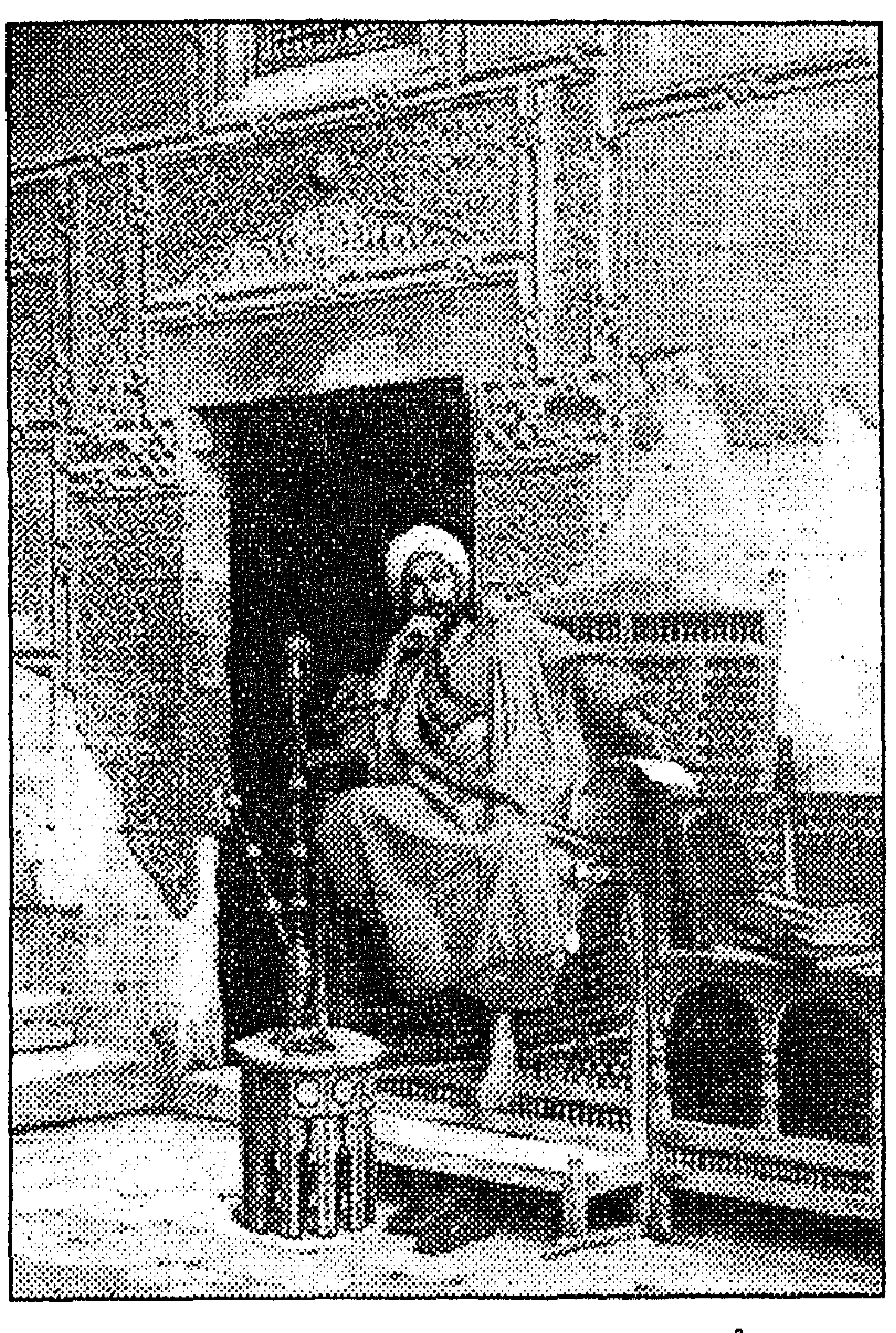
[ومات] الأستاذ المبجل ذو المناقب/ الحميدة، السيد شمس الدين/ محمد أبو الإشراق ابن وفا وهو ابن أخى الشيخ عبد الخالق، ولما توفى عمه فى سنة إحدى وستين وماية وألف خلفه فى المشيخة* والتكلم، وكان ذا أبهة ووقار محتشما سليم الصدر كريم النفس بشوشاً، توفى سادس جمادى الأولى سنة إحدى وسبعين وماية وألف، وصلى عليه بالأزهر وحمل إلى الزاوية فدفن عند عمه، وقام بعده فى الخلافة الأستاذ مجد الدين محمد أبو هادى بن وفا رضى الله عنهم أجمعين.

٢٥٦ محمد بن وفا.
ت/ ١١٧١ هـ = ١٧٥٧م

* المشيخة: يقصد بها هنا مشيخة السادة الوفائية من آل البيت.

[ومات] الإمام العلامة الفريد الفقيه الفرضى الحيسوبى الشيخ/ حسين المحلى الشافعى، كان وحيد دهره وفريد

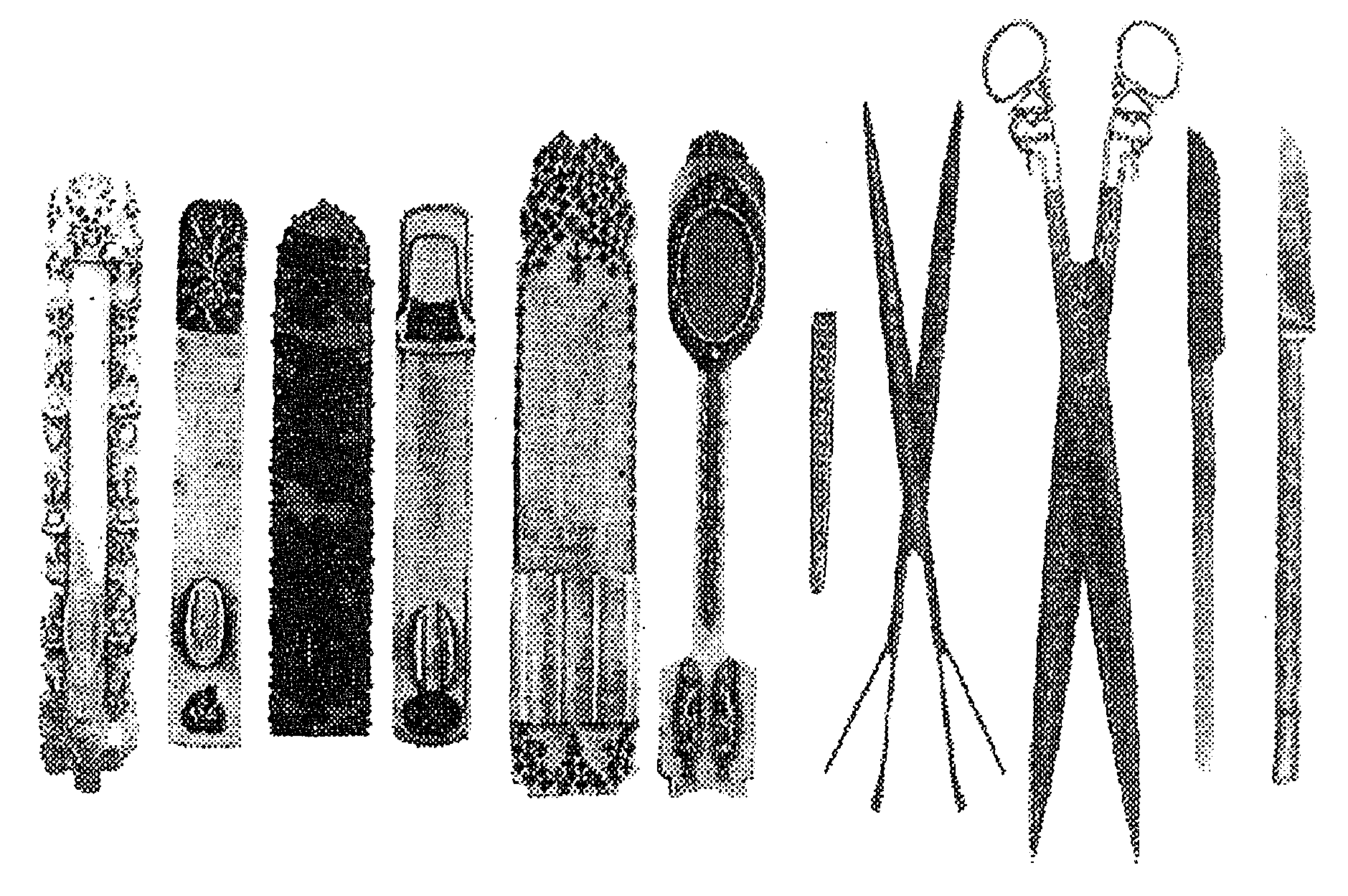
٢٥٧ حسين المحلى.
ت/ ١١٧٠ هـ = ١٧٥٦م.



عصره فقْهاً وأصولا ومعقولا، جيد الاستحضار والحفظ للفروع الفقهية، وأمّا علم الحساب الهوائى والغبارى والفرائض* وشباك ابن الهائم* والجبر والمقابلة والمساحة وحل الأعداد فكان بحراً لا تشبهه البحار. ولا يُدرك له قرار، وله في ذلك عدة تآليف ومنها شرح السخاوية وشرح النزهة والقلصاوى، وكان يكتب تآليفه بخطه ويبيعها لمن يرغب فيها، ويأخذ من الطالبين أجرة على تعليمهم، فإذا جاء من يريد التعلم وطلب أن يقرأ عليه الكتاب الفلانى تعزز عليه وتمنّع ويساومه على ذلك بعد جهد عظيم، ويقول «أنا لا أبذل العلم رخيصا» وكان له حانوت بجوار باب الأزهر يتكسب فيه ببيع المناكيب* لمعرفة الأوقات والكتب وتسفيرها* ، وألف كتاباً حافلا فى الفروع الفقهية على مذهب الإمام الشافعي، وهو كتاب ضخم فى مجلدين

* الفرائض: علم الميراث.
* شباك ابن الهائم: أى الجداول التى ابتكرها ابنَ الهائم.

* المناكيب: أى التقاويم التى تعرف بها أوقات الصلاة.
* تسفير الكتب: أى نسخها.



▲ ادوات لتنفيذ الكتب.

معتبر مشهور معتمد الأقوال فى الإفتاء، وله غير ذلك كثير، وبالجملة فكان (ص٥٣٧) طوداً راسخاً تلقى عنه كثير من أشياخ العصر، ومنهم شيخنا الشيخ محمد الشافعى الجناجي المالكى وغيره. توفى سنة سبعين ومائة وألف، رحمه الله.

٢٥٨ عبد الوهاب بن عبد السلام البرهانى. ت/ ١١٧٢ هـ = ١٧٥٨م.

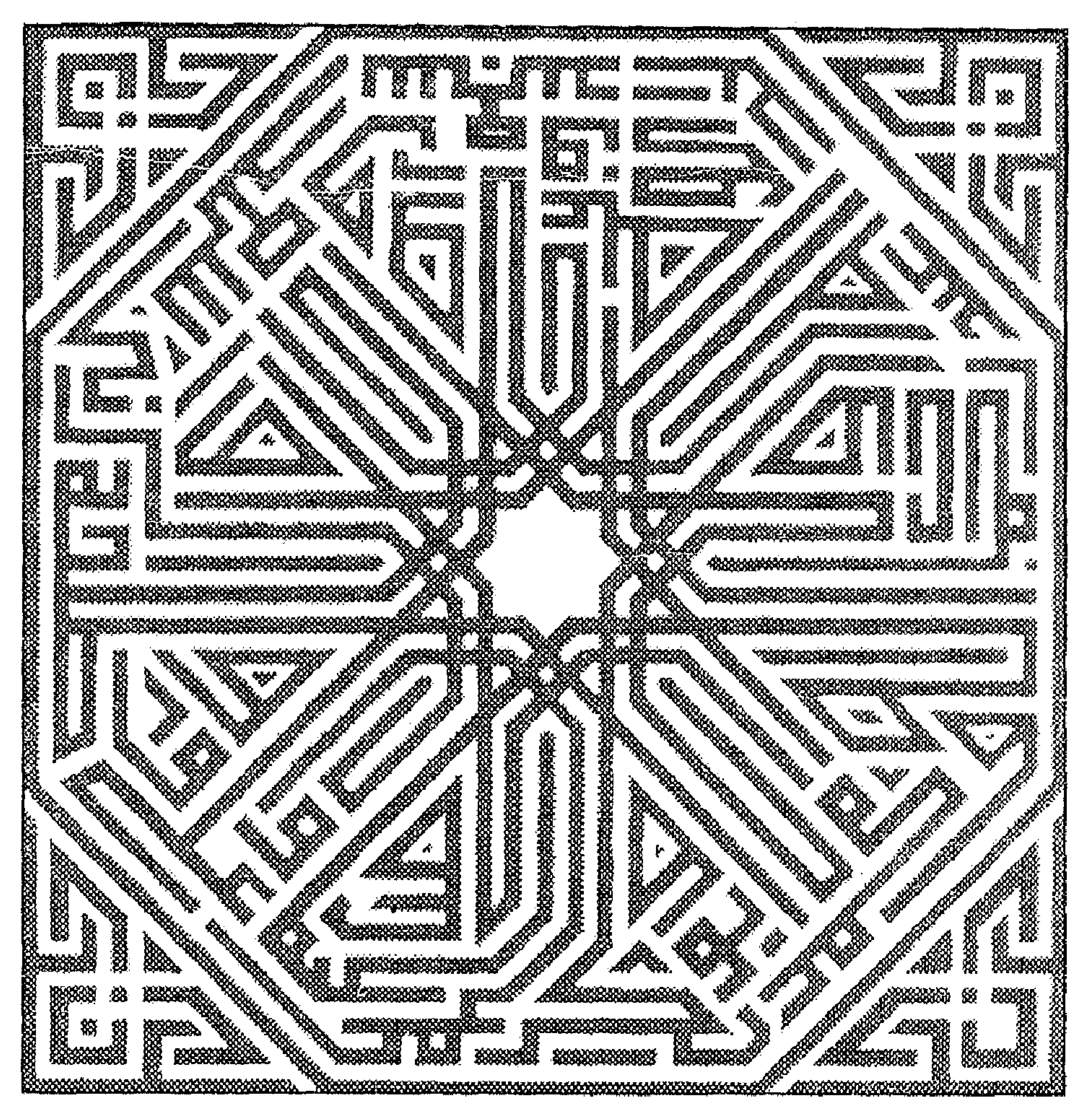
[ومات] الشيخ الإمام المعمّر القطب أحد مشايخ الطريق صاحب الكرامات الظاهرة، والأنوار الساطعة الباهرة/ عبد الوهاب بن عبد السلام بن أحمد بن حجازى بن عبد القادر بن أبى العباس بن عبد القادر بن أبى العباس بن شعيب بن محمد بن القطب سيدى عمر المرزوقى العفيفى المالكى البرهانى، يتصل نسبه إلى القطب الكبير سيدى مرزوق الكفافى المشهور، ولد المترجم بمنية عفيف إحد قرى مصر

ونشأ بها على صلاح وعفة، ولما ترعرع قدم إلى مصر فحضر على شيخ المالكية فى عصره الشيخ سالم النفراوى أياما فى مختصر الشيخ خليل، وأقبل على العبادة وقطن بالقاعة بالقرب من الأزهر بجوار مدرسة السنانية وحج فلقى بمكة الشيخ إدريس اليمانى، فأجازه وعاد إلى مصر، وحضر دروس الحديث على الإمام المحدث الشيخ أحمد بن مصطفى الإسكندرى الشهير بالصباغ ولازمه كثيراً حتى عرف به، وأجازه مولاى أحمد التهامى حين ورد إلى مصر بطريقة الأقطاب والأحزاب الشاذلية والسيد مصطفى البكرى بالخلوتية، ولما توفى شيخه الصباغ لازم السيد محمد البليدى فى دروسه، من ذلك تفسير البيضاوى بتمامه. وروى عنه جملة من أفاضل عصره كالشيخ محمد الصبان والسيد محمد مرتضى والشيخ محمد بن إسماعيل النفراوى، وسمعوا عليه صحيح مسلم بالأشرفية، وكان كثير الزيارة لمشاهد الأولياء متواضعاً لا يرى لنفسه مقاماً متحرزاً فى مأكله وملبسه لا يأكل إلا ما يأتى إليه من زرعه من بلده (ص٥٣٨) من العيش اليابس مع الدُقة، وكانت الأمرا تأتى لزيارته ويشمئز منهم ويفر منهم فى بعض الأحيان وكل من دخل عنده يقدم له ما تيسر من الزاد من خبزه الذى كان يأكل منه وانتفع به المريدون وكثروا فى البلاد وأنجبوا، ولم يزل يترقى فى مدارج الوصول إلى الحق حتى تعلل أياماً بمنزله الذى بقصر الشوك، وتوفى فى ثانى عشر صفر سنة اثنتين وسبعين وماية وألف ودفن بجوار سيدى عبد الله المنوفى، ونزل سيل عظيم وذلك فى سنة ثمان وسبعين وماية وألف فهدم القبور وعامت الأموات فانهدم قبره وامتلأ بالماء فاجتمع أولاده ومريدوه وبنوا له قبراً فى العلوة على يمين

تربة الشيخ المنوفى ونقلوه إليه قريباً من عمارة السلطان قايتباى، وبنوا على قبره قبة معقودة وعملوا له مقصورة ومقاماً من داخلها وعليه عمامة كبيرة وصيروه مزاراً عظيما يقصد للزيارة ويختلط به الرجال والنساء، ثم أنشأوا بجانبه قصراً عالياً عمّره محمد كتخدا أباظة، وسوروا له رحبة متسعة مثل الحوش لموقف الدواب من الخيل والحمير دَثَروا بها قبوراً كثيرة بها كثير من أكابر الأولياء والعلماء والمحدثين وغيرهم من المسلمين والمسلمات، ثم إنهم ابتدعوا له موسما وعيداً في كل سنة يدعون إليه الناس من البلاد القبلية والبحرية فينصبون خياما كثيرة وصواوين ومطابخ وقهاوى، ويجتمع العالم الأكبر من أخلاط الناس وخواصهم وعوامهم وفلاحى الأرياف وأرباب الملاهى والملاعيب والغوازى والبغايا والقرّادين والحواة فيملئون الصحراء والبستان فيطئون القبور ويوقدون عليها النيران، ويصبون عليها القاذورات ويبولون ويتغوطون ويزنون ويلوطون، ويلعبون ويرقصون ويضربون بالطبول (ص٥٣٩) والزمور ليلا ونهاراً، ويستمر ذلك نحو عشرة أيام أو أكثر ويجتمع لذلك أيضاً الفقهاء والعلماء وينصبون لهم خياماً أيضاً ويقتدى بهم الأكابر من الأمراء والتجار والعامة من غير إنكار بل ويعتقدون أن ذلك قربة وعبادة، ولم لم يكن كذلك لأنكره العلماء فضلا عن كونهم يفعلوه، فالله يتولى هدانا أجمعين.

٢٥٩ محمد بكرى بن السرور.
شيخ السجادة البكرية.
ت/١١٧١هـ = ١٧٥٧م.

[ومات] الشيخ الأجل المعظم سيدى/ محمّد بكرى بن أحمد بن عبد المنعم بن محمد بن أبى السرور محمد بن القطب أبى المكارم محمد أبيض الوجه ابن أبى الحسن محمد ابن الجلال عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن



لوحة خط لأسماء العشرة ▲ المبشرين بالجنة

أحمد بن محمد بن عوض بن محمد ابن عبد الخالق بن عبد المنعم بن يحيى بن الحسن بن موسى بن يحيى بن يعقوب ابن نجم بن عيسى بن شعبان بن عيسى بن داود بن محد بن نوح بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق، وكان يقال له سيدى أبو بكر البكرى شيخ السجادة بمصر وكان نقش خاتمه:

«أبو بكر الصديق جدى وإننى
لسبط رسول الله طه محمد»

ولاه أبوه الخلافة فى حياته لمَا تفرس فيه النجابة مع وجود إخوته الذين هم أعمامه وهم أبو الدهب وعبد الخالق ومحمد بن عبد المنعم فسار في المشيخة أحسن سير، وكان شيخاً مهيباً ذا كلمة نافذة وحشمة زائدة تسعى إليه الوزرا

والأعيان والأمرا، وكان الشيخ عبد الله الشبراوى يأتيه فى كل يوم قبل الشروق يجلس معه مقدار ساعة زمانية ثم يركب ويذهب إلى الأزهر، ولما مات خلف ولده الشيخ سيد أحمد، وكان المترجم متزوجاً بنت الشيخ الحنفى فأولدها سيدى خليلا وهو الموجود الآن، تركه صغيرا فتربى فى كفالة ابن (ص٥٤٠) عمه السيد محمد أفندى ابن على أفندى الذى انحصرت فيه المشيخة بعد وفاة ابن عمه الشيخ سيد أحمد مضافة إلى نقابة السادة الأشراف كما يأتى ذكر ذلك إن شاء الله، وكانت وفاة المترجم فى أواخر شهر صفر سنة إحدى وسبعين وماية وألف.

٢٦٠ السلطان عثمان خان.
ت/ ١١٧١هـ = ١٧٥٧م.

[ومات] أيضاً فى هذه السنة السطان عثمان خان العثمانى، وولى السلطان مصطفى بن أحمد خان، وعزل على باشا ابن الحكيم وحضر إلى مصر محمد سعيد باشا فى أواخر رجب سنة إحدى وسبعين وماية وألف، واستمر فى ولاية مصر إلى سنة ثلاث وسبعين وماية وألف، وفى تلك السنة أعنى سنة إحدى وسبعين وماية وألف نزل مطر كثير سالت منه السيول.

٢٦١ مصطفى اسعد اللقيمى الدمياطى.
ت/ ١١٧٣هـ = ١٧٥٩م.

[ومات] أفضل النبلاء وأنبل الفضلاء، بلبل دوحة الفصاحة وغرّيدها، من انحازت له بدايعها طريفها وتليدها، الماجد الأكرم/ مصطفى أسعد اللقيمى الدمياطى، وهو أحد الإخوة الأربعة وهم عمر ومحمد وعثمان والمترجم أولاد المرحوم أحمد بن محمد بن أحمد بن صلاح الدين اللقيمى الدمياطى الشافعى سبط العنبوسى وكلهم شعراء بلغاء. ومن محاسن كلامه وبديع نظامه مُدامته الأرجوانية* فى

* «المدامة الأرجوانية فى المقامة الرضوانية» لمصطفى اللقيمى فى مدح الأمير رضوان كتخدا عزبان الجلفى.

المقامة الرضوانية التى مدح بها الأمير رضوان* كتخدا عزبان الجلفى، وهى مقامة بديعة بل روضة مريعة، وقد قال فى وصفها وبديع رصفها شعراً:

نسجتْ بمنوال البديع مقامة
وتزركشت بالحسن والإبداع

رقت حواشيها ووَشْيُ طروزها
بجواهر الترصيع والإيداع (ص١٤٥)

وغدت بحلى مديح رضوان العلى
طوال المدى تجلى على الأسماع

وابتدأها بقوله.

بسم الله الرحمن الرحيم، حمداً لمن أنهج مناهج مباهج الإسعاد، وسلك بنا سُبُل معارج مدارج الإرشاد، والصلاة والسلام على صفوته من العباد، سيدنا ومولانا محمد ملجأ الخلايق يوم المعاد، القايل وقوله الحق يهدى إلى طريق الرشاد، اطلبوا الحوايج عند حسان الوجوه، فيانعم ما أنعم به وأفاد، وعلى آله وأصحابه السادة الأمجاد، والتابعين لهم والسالكين مسالك السَدَاد، ما لبى الكريم دعوة الوفود والقصاد، وأتحفهم ببلوغ المنى وحصول المراد.

(وبعد) فقد حكى البديع بشير بن سعيد، قال حدثنى الربيع بن رشيد، قال هاجت لى دواعى الأشواق العذرية، وعاجت بى لواعج الأتواق الفكرية، إلى ورود حمي مصر المعزّية البديعة، ذات المشاهد الحسنة والمعاهد الرفيعة، لأشرح بمتن حديثها الحسن صدرى، وأروّحَ بحواشي نيلها الجارى روحى وسرّى، وأقتبسَ نورَ مصباح الطْرفِ من ظرفائها، وأقتطف نور أدواح الَظرْفِ من لطفائها، وأستجليَ عرايسَ بدايعِ

* كان الأمير رضوان قد استأثر بإمارة الحج المصرى دعماً لنفوذه السياسي، وفى سياق هذا الدعم جمع حوله عدد من الشعراء ليمدحوه ويرفعوا من شانه، كما طلب من أحد النسابة تأليف رسالة تربط جدوده بقريش فكتب له رسالة باسم «قهر الوجوه العابسة فى ذكر نسب الجراكسة إلى قريش» سبق ذكرها.

وقد جلب عليه ذلك سخط البيوت المملوكية المنافسة له وكذلك السلطنة العثمانية مما أدى فى النهاية إلى اغتياله وبذلك توقف مشروعه للانفراد بحكم مصر.

معانى العلوم، على منصات الفكر محلاة بالمنثور والمنظوم، وأستمد من حماتها السادة أسرار العناية، وأسترشدَ بسراتها القادة أنوار الهداية، وأمتع الطرفَ بغرر دَولتها العلية، وأشنفَ السمع بدُرر سيرتها السنية، فنشرُ عَرْفِ علاها (ص٥٤٢) قد عطر الآفاق ولواء وصفِ حُلاها فى الخافقَين خفاق، فامتطيت طرف العزم، مسرجا بالحزم، وبغيت بعد السكون على الحركة مع الجزم، واتخذت حادى الجوى فى السير دليلى، وباعثَ الهوى سَميرى فى مسرحى ومقيلى، وواصلت السُرى بالغدوّ والرواح، وهجرت الكرى فى العشى والصباح، فأسعفتنى مع الرعاية فاتحة الألطاف، وأسعدتنى مع الوفاية خاتمة المطاف، بوصولى إلى حماها الزاهى المحروس، والحلول برباها الزاكى المأنوس، فلما أذنت لى حماتها بالدخول من بابها، وأزهرت عن وجهها الأزهر برفع نقابها، فإذا هى مدينة جمعت متفرقات المحاسن، ذات رياض بهجة وماء غير آسن، غرة المدن بل عروسة البلدان، عليها تعقد الخناصر فما صنعاء وما عبّادان، لقد حلت من الحسن بمكان مكين، وتحلت بحلى الزينة بأحسن تزين، غياضها تُروح الأرواح القدسية وتسر النفوس، ورياضها تنفح الأرواح المكية ولا عطر بعد عروس، تنادى أفياءُ ظلها الظليل، هلمّوا إلى طيب مقالٍ وحُسْنِ مقيل، تتيه على غيرها من الأمصار مائسة الأعطاف، بما تحويه من عيشها الهنى وثمارها الدانية القطاف، شعر:

إن يكن فى البلاد طيب نعيم
أو رياض لها بها إعزازُ
فبمصر حقيقة عن يقين
مستعار بغيرها ومجازُ

فجعلت أطوف بخلال المسالك والشوارع، وأرمق (ص٥٤٣) أفلاك القصور التي هي للبدور مطالع، وتأملت في زيج لامع سيرها القويم، وقومت طالع عزها بأحسن تقويم، فأنتج أن كوكب سعدها مشرق، وناظر مجدها له السيادة تشرق، فهي بعزة أمرائها وقوة عساكرها قاهرةٌ لأضدادها، ظافرة على مُناظرها، قد حَفظتْ بهم الثغور والقرى والضياع، وأمنَتْ السُراةُ في مسالكها فلا خوف ولا ضياع، فهم الكماة في الحروب فوق متونِ الضوامر، وهم الكفاة للضروب في الهيجاء وبدور العساكر، أنفُوا الخضوع للأعداء فعزّت منهم النفوس، وألفوا الوَلوع بعوالي الأسلحة فاتخذوها وشاحا والدروع لبوس، فكم خفقت لهم في الغزوات رايات نصر وفتح، وتليت في وصفهم بمجامع العزمات آيات ثناء ومدح، شعر:

مصرٌ زهت بين البلاد بمعشر
خفقت لهم بسَما العلا راياتُ
فهم الأعزة طاب نشر حديثهم
وبمدحهم تُتْلى لنا آياتُ

(ولما) حللت بواديها المشُرق الباهر، ونزلت بناديها المورق الزاهر، استوطنتُ في أعاليها شرُفا، وتبوأت من مغانيها غُرفا، وبسطتْ لي من الأنس والسرور نمارق، ونصبت عليّ من الإيناس والحبور سرادق، ووافتني الأحبة الأذكياء إخوان الصفاء، وصافتني الأعزة الأتقياء أخدان الوفاء، مجمعُ أفراحنا رياض الأدب واللطايف، ومربَع أرواحنا غياض الطلب والمعارف، نحتسي كؤوس الهنا بحانات التهاني، ونجتلي عرايس (ص٥٤٤) المنى بنغمات المثالث والمثاني،

كوكب المسرة بأفق الإسعاد مزهر، وقمر المبرة بمطلع الإسعاف مبدر، فبينما نحن على هذه الحالة التى وصُفْت، ومشاريع مواردنا الحالية راقت وصَفَتْ، إذ نظر الدهر إلىّ نظرة عابث، ورمانى من كنانته بأعظم حادث، نضبت به حياض معاشي، وذبُلت منه رياض انتعاشي، حُرمتُ منه مفروض حقى الواجب، وصار حظى المنع وليس ثم حاجب، فقُيِّدتُ عن التصرف فى وقفى المطلق، وأصبح بابُ الوصول إليه دونى مُغلق، فتكدرتْ عند ذلك صافياتُ المشارب، وتنكرتْ بعد تعريفها واضحاتُ المآرب، وحرمت ما بين دائرتى الاشتباه والاختلاف، واعترانى مع العلل جميع أنواع الزحاف، وعزَّ التوسل للتوصل بحسن الخلاص، والقضاء ينادى ولاتَ حين مناص، مفرد:

عــزَّ الخـــلاصُ ولاتَ حين تـصـــبـــرِ
من حـــادث قـــد قلَّ فـيــه المســعفُ

فبينما أنا حاير فى فيافى الافتكار، تايه فى متاهة الحيرة الشاسعة القفار، إذ هتفَ بى هاتف من سما الانتباه، أزال ما بقلبى من واردات الوهم والاشتباه، وقال أيها السابح فى لجج أحزانه، السايح بفجاج قلقه وأشجانه، إلى كم تحيدُ عن طرق معالم التدبير، ولا تجيد الهمة فى طلب المغيث ولا النصير، أين أنت من المنجد عزيز الجار، أين أنت من المسعد حامى الذمار؟ حرم الأمن والالتجا، وكعبة القصد وركن اليمن والنجا، وطيبة الوفد قدس المنتمى، ونزهة (ص٥٤٥) المستملح وطور سينا المحتمى وبغية المستمنح مدينة الآمال، ومَدْيَن المآرب وعرينة الإقبال، وصنعاء المطالب ذى المجد السامى مقامه على الفرقد، ومن كوكب

عزّه بمطلع السعد يتوقد. شعر:

أمـــيـــرٌ به عين المعـــالى قـــريرةٌ
وكــوكـبــه الزاهى يَتـيـه على البــدرِ
فلذ بـحـــمـــاه تلْقَ عـــزاً فـــإنه
غـدا كـعـبـة الآمـال والأمن فى مـصـرِ
له همـــــةٌ تعلو على كل همـــةٍ
وهمّـتــه الصــغــرى أجل من الدهر

فقلت «من هذا الأمير الحايز لهذه الأوصاف؟ فزدنى من حديثك يا سعد عنه بلسان الإنصاف» فقال «هو فى الكرم أسمح من حاتم، ومنتهى من تُنْسب إليه مآثر المكارم، ففضل عطاياه أنسى هبات الفضل وجعفر*، ومن ساواهما به، فعن كمال وصفه قصّر، وفى الشجاعة أقدم من عنترة المشهور، وأثبتُ من قسورةِ الأسدِ الهصور، وأذكى من إياس فى نباهته، وأبلغ من المأمون فى فصاحته، وله فى حسن التدبير كمال انتظام وجمال انتساق، وهو فى حلبة السبق يوم الرّهان حايز قصب السباق، ولله در الشاعر اللبيب فى الوصف الجلى، حيث أشار إلى بديع هذا الوصف العلى:

ومـــا خلقتْ كـــفّـــاه إلا لأربع
لعـــقـــايل* لـم يـخـلـق لـهـن ثـوانِ
تقـبـيـل أفـواه وإعطاء نايل (ص٥٤٦)
وتـقـلـيـب هـنـدى* وحـــبـس عنان

(فقلت) أقسم بمن خصه بهذه الأوصاف السنية. وتوّجه بتاج المواهب اللدنية،وبمن أسمى قدره الأسمى على كيوان*، لا تكون هذه المزايا المعدودة، والسجايا المحمودة، إلا

* الفضل وجعفر: هما ولدا يحيى بن خالد بن برمك.

* عقايل: أى صفات كريمة ومفردها عقيلة، وعقيلة كل شىء أكرمه.
* الهندى: السيف والمقصود أنه مقاتل شجاع.

* كيوان: اسمٌ يُطلق على بطَل من أبطال الأساطير الرومانية، جعلوه إلها فى روما، واسمه ساترن [Saturnus] ويقابله فى الأساطير الإغريقية كرونوس [Cronos] ويطلق على كوكب سيار يسمى (زحل) والمراد هنا أن الكتخدا رضوان عالى المنزلة.

لأمير الندى وفريد الأوان، حضرة الكتخدا رضوان، فقال لله درُّك من عارف بوصفه السنيّ، وغارف من مشرع نعته الحالى ومورده الهنى، وها أنا اتحفك بمعمى فى اسمه العزيز، فاستخرجْه بضوء نار مصباح قلبك وميّزه بأحسن تمييز، وهو:

هـو الإمـــــام فـى الـنـدى
والالـتـــــجـــا فـلـذ بـه
فكم ســـمـــا علـى العـــلا
وضـــــاء نـور قـلـبـــــه

(فقلت) أحسنت فى لطف الإشارة، وأجدت فى ظرف العبارة، ولقد أسمعنى فى وصف جنابه الكريم، مادحه المولى اللبيب الجارى على أسلوب الحكيم، أبياتاً مخترعة لنفسه دقيقة المعانى، رقيقة الألفاظ حالية بديعة المبانى، فشطرتها أحسن تشطير، وها أنا ببعضها مشير، وهى:

وأبيك مــــا رضـــوانُ إلا آيةٌ
سـمـحت بهـا جـوداً يد الإفـضـالِ
صـدقتْ قـضـايا فـضله وكـمـاله
شـهـدتْ بذاك شـهـامـة الأفـعـالِ

ثم أطلقت فى الحال عنان المسير، ممتثلا أمر المشير وبالله التيسير، ويممت الحمى مترجياً حصول النجاح، يخفق بطريق الاجتماع راية الأفراح، فعندما وصلت لناديه الرحب البهيج، وروض (ص٥٤٧) واديهِ الخصب الأريج* ، ولاح ضياه بوارق أنوار رحابه، وقفت متيمناً مستبشراً بفتح بابه، فقلت جدير بهذا الباب الأسعد، أن

* الأريج: الطيب الرائحة.

يسطرُ عليه بمداد اللُجيْن والعسجد.

باب تلا الإسعادُ آيةَ فتحه
وروى بشيرُ السعد مسند نُجْحه
وغدت حواشي الروح زاهية بما
وترويه نصا عن بدايع شرحه
والعز للرضوان قال مؤرخاً
سعدٌ بباب قد حُبيتُ بفتحه

ولما صدقت قضايا الوصول، وقامت براهين الإذن بالدخول، سرُحتُ الناظرَ فى مناهج بدايع مغانيه، وشرحتُ الخاطر بمباهج صنيع معانيه، فرأيته منزلاً محكم البناء رفيع العماد، محفوفًا بالممالك متحوُفاً بأبدع الخدم والأجناد، فما صُغد سمرْقند* وما شعْب بوّان* ، وما الخورنق والسدير وذات العماد والإيوان*، معاهده مشاهد جمال زاهية مشرقة، ومشاهده معاهد كمال باهية مونقة.

أنعم بمنزلٍ عزٍ طاب منظره
وفاق فى صنعةِ الإتقان إيوانا
به بدائعُ حسن قط ما اجتمعت
فى ملك قيصر أو كسرى ونعمانا
فالسعد والمجد فى أرجاء دوْحته
قد أرّخوه حبى عزاً ورضوانا

قد زينت سماؤه بمصابيح نجوم من النقوش (ص٥٤٨) العسجدية، وكُسيت أرضه بديباجٍ مرقوم من الفرُش الجوهرية، أحاطت به الرياض كالمناطق بالخصور، وزهت مناظرها الباهرة بالمنظوم والمنثور، أينع بها النرجس الغض

* صُغد بضم الصاد موضع بسمرقند.
شعب بوّان بفتح الباء وتشديد الواو بفارس إحَدى الجنان الأربع الدنيوية.
الإيوان: المكان المتسع من البيت يحيط به ثلاث حيطان، وإيوان كسرى بمعنى قصره، وهو المقصود هنا وجمعه إيوانات أو أواوين. والخورنق والسدير قصران للنعمان ابن امرىء القيس.

والورد الجنى، وأزهر الشقيق القانى والسوسن السنى، يتبسم فيها النسيم فرحاً لبكاء الغمام الهتّان، ويتنفس بالبنفسج ترحاً لضحك ثغور الأُقحُوان، تنفح كمايمها بعرْف الكبا* والطيب، وتصْدح حمائمها بوصف الرُبا والحبيب، فأغصانها بلطيف الصبا تتثنى، والعندليب كما قال الشاعر بالإنشاد يتغنى:

روضةٌ زينت بحسن زهور
عطرٌ الكون نشرّها
رقصُ بان لعندليبٍ تغنّى
وثنايا النسيم فيها ضواحك

قد ابتهجت به قاعة أنس عالية القباب، حالية بوشي النقوش المديحة والتبر المذاب، مشيدة البنيان على أرفع وضع غريب، جيدة الإتقان بأبدع صنع عجيب.

يا حبذا قاعةُ العز التى ابتهجت
أرجاؤها وزهت بالمنظر العجب
يروى لنا نقشُها الزاهى حديث حُلى
مسلسلاً بالضيا نصاً عن الذهب
نفائس البشر بالرضوان قد كملت
بحانها ودواعى الأنس والطرب
بها الأحبة تُسرى كالكواكب فى (ص٥٤٩)
أفلاكها وضياءُ البدر لم يغب
لو أمّ شيطان همٍ أفق دَوحتها
رمته أفراحُها نَبْلاً من الشهب
روض لآداب أرباب الكمال فلا
زال الهنا مُزْهراً فى روضها الخصب

* الكِباء: بكسر الكاف عود البَخُور وجمعه (كُبى) بضم الكاف.

بشــرى لهــا حــيث ناداها مــؤرّخــهــا
يا قــــاعـــــة تزدهى بالعـــــز والأدب

فالظبا تسرح آنسة بربع مرابعه، والمها تمرح مائسة بسُوح* مراتعه، والغزلان آمنة فى سربه والآرام* ، والغزالة ترمقهم بعين الغيرة من تحت سِجّف* الغمام، تشير إلى عيون ابن الجـهم* جفونها، وتثير حرب البسوس مع السلم عيونها، يُخجل أعطاف الأغصان مَيْلُ قدودها، ويفصح شقايق النعمان صبغة خدودها، وتنسى بالخفر أخبار عَزّة وسعاد، وتنشيء بالحور للمنساك صبوة وسُهاد، كما قلت:

من كل ظبى رشـيـق القـد ذى هيفٍ
يزرى سناه بدور التم فى الســــحب
حـالى المراشف مـعـسـول الرّضـاب له
رلحظٌ يصـول به فى مـعـرض اللعب
قـيق خــصــر كـدين الصّب رقـتـه
فـعنه حـدّث فكم يحـوى من العـجب

وحين لمحت ما سرنى وأبهجنى، ولحظت ما أبْهنى* وهيجنى، قضيت مما شاهدته العين طرباً، وكاد القلب أن يتخذ سبيله فى بحر الهوى عجبا، لكنى غضضت (ص٥٥٠) طرف ناظرى حياء وأدبا، وأمسكت طرف خاطرى رَهَبا ورعبا، وتقدّمت إلى صدر ذلك المجلس الرفيع، الحاوى لكل بديع حسن وحُسن بديع، فرأيت إيواناً زاهىَ النقوش تحار العقول فى وصفه، وشممت أرجاً يروّح النفوس بعرْفه، فأذكرنى روضات الربيع الزهية، ونفح كمايم أزهارها المسكية، فقلت:

* السُوح: بضم السين جمع ساحة.
* الآرام: الظباء الخالصة البياض ومفردها (ريم)
* السجف: بكسر السين هو الستر
* عيون ابن الجهم: هو على بن الجهم الشاعر المشهور، ومن غرر قصائده:

عيونُ المَهَا بين الرصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث أدرى ولا ادرى

ويقصد المؤلف بقوله (عيون ابن الجهم) عيون المها فى هذا البيت.

* أبهى: بمعنى نبّهنى.

بادر إلى الأنس واستجل المحاسن من
إيوان حسن زها فى نقشه العجب
كأنه الروض إبّانَ الربيع حلا
يبدو شذا عرفه كالمندل* الرطب
وساجعات الهنا أضحت بدوحته
تشدو بطيب علا الرضوان فى طرب
قد زُخرفت بمذاب التبر قبّته
ووشّيت بنُضار غير منسكب
فاسمع أحاديثها تروى مؤرخة
مسلسلا حليها زهواً عن الذهب

* المندل: عود طيب الرائحة ينسب إلى بلدة بالهند تسمى المندل بفتح الميم والدال.

وشاهدت شمس الإسعاد مشرقةً بأفق ذلك الإيوان، وقد كسيت أرجاؤه بحلل الرضا والرضوان، وفى صدره الصدر الأمير المنصور المؤيد، صاحب المجد السامى والسعد النامى والعز المؤيّد، أدام الله بهجة مصر المعزّية بدوام حضرته، ووالى تجديد أفراحها ببقاء غرة نضرته، وجدير بمن يحظى بمشاهدة جنابه المجيد، أن يترنم بما توجته وهو قول الشاعر المجيد:

حقيق لمصر أن تتيه تفاخراً (ص١٥٥)
برضوانها إذْ كان عين حلاها
هلال لياليها وإنسان عينها
وبدر دياجيها وشمس ضحاها
مؤيدها منصورها وجوادها
وجامع شملىْ مجدها وعلاها

ورأيت بمجلسه جملة من خاصته، سُمَراءَ مسايرته، وندماء

مسامرته، ما بين أنيس أريب، ورئيس لبيب، وعليم أديب، ونديم رقيق، وكاتب نسيق، فالأنيس الأريب يهدى الأنس بحديثه المستطاب، جليس نجيب بيدى غرايب التحف مع اللطف والآداب، له من المعارف أكمل زينة وأجمل حُلا، وفى التقدم عند أعيان الأمراء حائزٌ رتبَ العلا، والرئيس اللبيب حاذق لطيف المزاج، خبير بأنواع الطبايع وأجناس العلاج، قد جبلت طباعه السليمة على قانون الوفاء، وجَلَبَتْ ألفاظه لقلب من يخاطبه بهجة الشفاء، والأديب العليم فصيح الإنشاء والإبداع، محلى المعانى باستخدام التورية والإيداع، لا يجارى فى ميدان البراعة، ولا يبارى إذا مد فى مضمار البلاغة يراعة، والنديم الحاذق رقيق المعانى والأوصاف، يتوج هامات المجالس بجواهر درر الإتحاف، معروف بنهاية النباهة وحلاوة المنادمة، له فى رتبة الآداب مقاسمة ومساهمة، والكاتب الصادق ياقوتى الخط، حسن الإتقان فى معرفة الشكل والضبط، بصير بإصلاح أرباب (ص٥٥٢) الأقلام، وكم رُفعتْ له بين أهل النهى أعلام، فكل فريد غدا نزهةُ الظرفاء بطيب المسامرة، وتحفة مجامع اللطفاء بحسن المحاضرة، فقلت لعمرى هذا مجلس الخلفاء، وروض آداب البلغاء والنظراء والحنفاء، وبالجملة فأوصاف رونقه لا تحد، وأصناف تأنقه لا تحصى ولا تعد، فهو فوق ما حدِّثتِ عنه الركبان، وليس الخبر فى الحقيقة كالعِيان، فقلت:

وافيتُ مجلسه المعظمّ كى أرى
ما حدِّثَتْ عن وصفه الرُّكبانُ
فرأيت حلما ما لأحنفَ مثله
وشهدت بأساً هابه الشجعانُ

يحمى الجوار بعزم صولته كما
يحمى شقايقَ دوحِه النعمانُ
فله السعادةُ والسيادةُ والثنا
والمجد والإسعاد والرضوانُ
ما قامَ في شرع المدايح مُدّع
فقضى بصدق مقاله البرهان

وعند مواجهتى ذلك الجناب العالى، ومشاهدتى سنا أنوار وجهه المتلالى، اعترانى واردُ هيبة وجلال، وصرت مندهشا بين جمال وكمال شعر:

واجهته فمليت منه مهابةَ
تدَع الفتى بمقامه مبهونا

ثم أدركنى واردُ الطمأنينة، وتلا على قلبى آية السكينة، وقال خفض عليك ودع خجل الدهشة، (ص٥٥٣) واصرف عنك بالاستئناس وَجَلَ الوحشة، فإن سيد هذا الحمى والمقام، وإن كان ممن يحذر سطوته الضرغام، وتهابه أبطال الأقبال والملوك الصيد، وتود لو كنت له من جملة العبيد، فهو ممن خطت معانى لطفه بنانُ الكتاب، ونطق بمبانى ظَرفه لسان الآداب، مُتَبسم الثغر طلق المحيا، يتلقى بالبشر من أم جنابه وحيا، فتقدّمت مع الأدب والتعظيم، وحييته بتحية تليق بمقامه الكريم، فتهلل وقال مرحبا أهلا وسهلا، صادفت ملجأ حصينا وروضا خصيبا فحبيتَ أمنا وظلا، فقدمت إليه قصيدة تترجم عن قصتى، وتشعر بثبوت براهين حجتى، وهى:

نُجحُ المقـاصـد من عليـاك مـأمـول
ومـا سـواك لما أرجـوه مـقـبـولُ
سـرَتْ لحـيِّك آمـالي على نُجبٍ
من الرجـاء ومـالي عنك تحـويل
لما استـقـرتْ لبـاب العـز أنشـدها
هذا حـمى فيـه للحـاجـات تحـصيل
هذا حـمى تزدهي عـزا مـشـاهدُه
به لمن أمـه المقـصـود والسـولّ
هذا حمى قـد خلَتْ شـهـداً مشـارعـه
وورده الكوثرى العـذب منهـول
هذا حـمى بحلى الرضـوان فى شـرفٍ
حـامى ذراه على الإسـعـاف مـجـبـول
هذا حمى الملتجى نادت بشائره (ص٥٥٤)
يا من يروم النجـا فى حـيـه قـيلوا
فـانزل به واشك مـا تلقى فـقلت لقـد
ضـاق الخناق فـعـقْـد الصـبـر مـحلول
كم ذا يحـاربنى دهرى العنيـد قـلا
والفكر فى سـاعـة الهـيـجـاء مـعـقـولٌ
يجـر بحـر خـمـيس فـوق سـايحـة
والسـيف والسـهم مـشـهـور ومـسلول
وقـصـتى بوجـيـز اللفظ مـجـملةٌ
فى شـرح حـالى والتـفـصـيل تطويل
باح اللسـان بما أخـفى الجنان وقـد
عـيل اصطبـارى وأفنتـه التـعـاليلّ
ينبـيك حـالَى عن أخـبـار مـصـدره
لا العطف يبـدو ولا الإشـفـاق مـوصـولُ

حـرّمْتَ واجب حـقى وْهو مـفـتـرَضٌ
كـرها فـهل ينسخ التـحـريمَ تحليلُ؟
قـضـيـة سلبت بالنقض مـوجـبـة
عكس القـيـاس أمـا للحكم تبـديل؟
طالت مـراجـعتى فى حـسن مـخلصـهـا
بمن لهم بحلى التـدبيج تعليل
كلٌ غـدا ببلوغ القـصـد يمطلنى
ومـا مـواعـيـدها إلا الأباطيل
وِصـدْق وعْـدك بالإسـعـاف منجـزه
له بفـضلك تحـقـيق وتعـجـيل
فـأنت أعظم من ترجىَ إغـاثتـه
وذو المكارم مرجـوٌ ومسـيـول (ص٥٥٥)
وسـيلتى نجلك المسـعـود طالعـه
علىّ سـعـد له فى المجـد تأهيل
ريحـانة العـصـر فـرع النيـرين به
طرف المعـالى قـرير العين مكحـول
لا زال فـى حـفظ مـولاه العَلىّ
من الأسـواء تحـرسـه طه وتنزيل
فـاسعف حـبيت بما تهوى وقل كـرمـاً
بنا وصلتَ ومـا ترجـوه مـبـذول
دامت مـآثرك العليـا مـسطرةً
وعنك تروى لهـا فى الذكـر تنزيل
ولا بَرِحْت عليك السـعـد فى رغـدٍ
يزينه بدوام العـز تكـمـيل
ونعـمـة تجتلى فـيـهـا شـمـوس عـلا
حـيث الهنا لك مـضـمـون ومكفـول

في دولة بحلي الإسعاد قد جُليَتْ
ومن علاك لها تاجٌ إكليل
ما مصطفى أسعدٌ أمّ الحمى وله
في سَيْبِ* عطفك يا ذا الشر تأميلُ
له البشارة حيث الفكر أنشده
نجح المقاصد من عليك مأمولُ

* السيب: العطاء.

فنظر إليها بعين متأمل لبيب، وجال فيها بجودة فكره المتوقد المصيب، ثم رمقني مع البشاشة بطرفه، ولاحظني بعين لطفه وعطفه، وقال «أبشر بنجح القصد والإسعاد، فتظفَر إن شاء الله تعالى بحصول المراد» فدعوت له بدوام العز (ص٥٥٦) والسعد، ونجاح التدبير المنتج ببلوغ القصد، وانصرفت حامداً عاقبة أمري، مادحاً علاه بلسان ثنائي وشكري، طيّبَ القلب مستبشراً بوعده الجميل، لعلمي أن وعد الكريم واجب التحصيل. فقلت:

إنّ وعدَ الكريم قرّت به العين
لما فيه من تحقق صدقه
فهنيئاً لأسعدٍ بنجاح
حيث بشرته وفاء بحقه

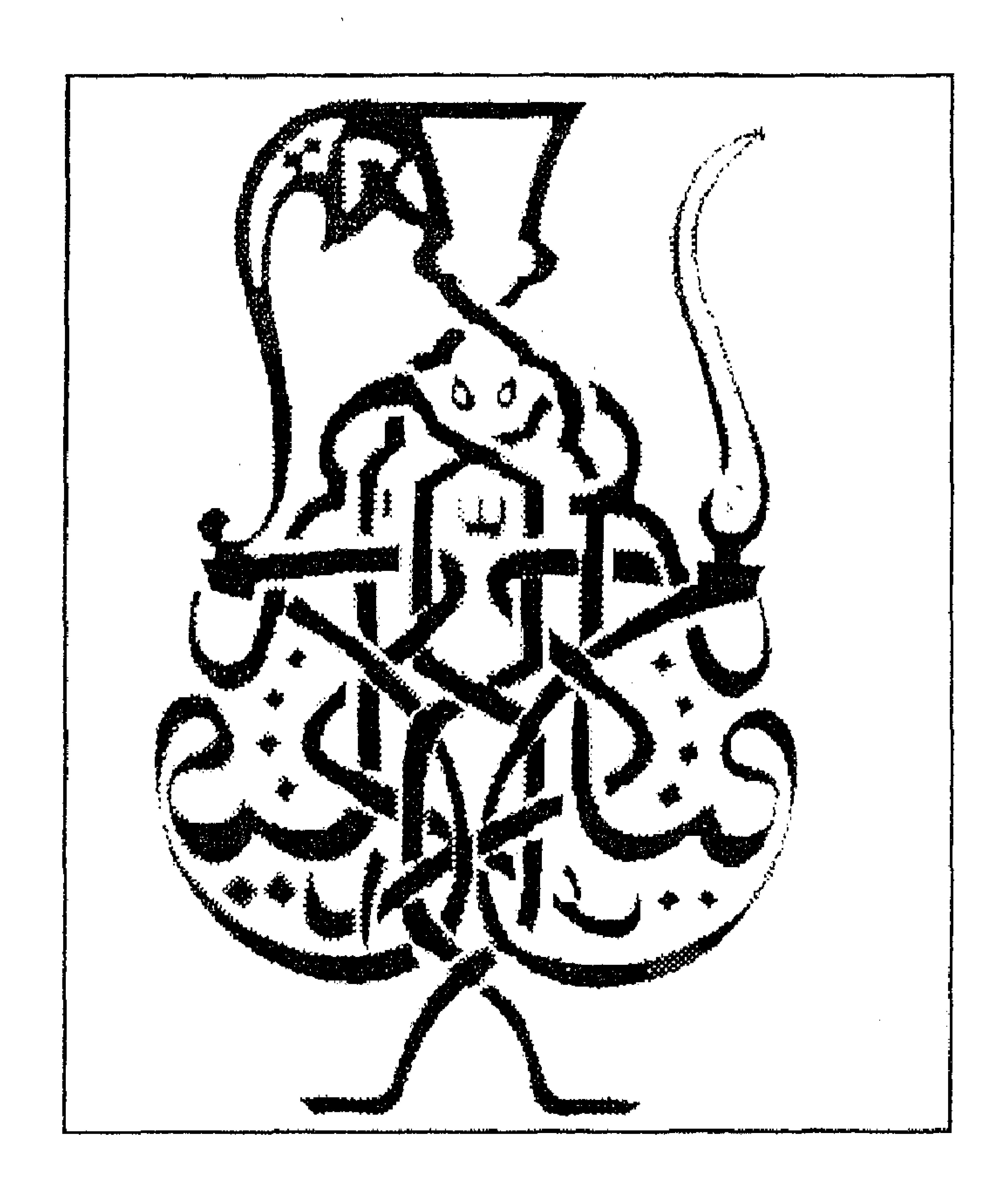
وقد أحبب أن أذكره بالحديث الحسن، الحاثّ على اصطناع المعروف وتقليد المنن، روينا بالسند العالي الإسناد، الخالي عن العلل والانتقاد، أن رسول الله لما عَرض عليه سبي هوازن كان ممن عَرض عليه بنت حاتم الطائي، فقالت «يا رسول الله أنا بنت من كان يحمل الكلّ ويكسب المعدوم ويعين على نوايب الزمان، أنا بنت حاتم الطائي» فقال رسول الله

«لو كان أبوك مسلماً لترحّمنا عليه» فمنّ عليها صلى الله عليه وسلم ورد لها ما لها وقال: «أكرموا عزيز قوم ذل، وغنى قوم افتقر» فقالت: «يا رسول الله وصويحباتى؟» فقال: «وصويحباتك، كريمة بنت كريم» فقالت: «يا رسول الله أتأذن لى أن أدعو لك بدعوات؟» فأذن لها وقال لأصحابه «أنصتوا وعوا» فقالت: «أوقع الله برك مواقعه ولازالت عن ذى نعمة نعمةٌ الا كنت سبباً فى ردها» الحديث... وحسبك هذا فى اصطناع (ص٥٥٧) المعروف، وإعانة المنتمى وإغاثة الملهوف (ولما انتهى) حديث الربيع بن رشيد قال له صاحب البديع بشير بن سعيد «بشراك بشراك قد ظفرت بالنُجْح، فأطلق عنان يراعك فى ميدان المدح» فقال الربيع أحسنت بإرشادك، إلىّ فلك الفضل والمنّة علىّ، لكننى أعترف بقصور باعى، وأتحقق تقصير لسان يراعى، عن استيفاء أوصاف محاسنه العلية، وشيم مكارمه الجليلة وأخلاقه السنية، شعر:

لو أنظم الزهر النجوم قلائداً
في مدحه لم أقص حق صفاته

على أننى أنشد ما جادت به قريحة الفكر الكليل، وإن لم أكن أهلا لهذا المقام الجليل (فقلت):

روض السعادة قد طابت نوافحه
رهاتف العز بالرضوان صادحه
هو الأمين الذى أوصافه كملت
وزَينتْ قلمَ المنشى مدايحه
فاق الورى فى العلا حتى استبان لهم
بدراً يلوح على الأكوان لايحه



أعلت به شرفات السعد فانتظمت

أحكامه وزهت أمنا مسارحه

حصن المعالى به شيدت دعائمه

فجيش تدبيره المنصور فاتحه

وقد حلا بحلى الإسعاد وارده

يلقى المسرَّةَ غاديه ورايحه

فمن عَرَته من الأيام حادثة (ص٥٥٨)

وأمّه فهو بالإسعاف مانحه

حديثه فى العلا إن رمت تحفظه

فاسمع فإسناده راوية راجحه

وخذه عنّىَ مرفوعا ومتصلا

مسلسلا بصفات الحسن واضحه



تقاسمت وصفه الـخمس الحواسُّ حلى

حيث استـبـان من التـقـسيم رائحـه

فـعـرْفـه عطْر الأرجـاء من أرج

وشنف الـسمع مـا يهـديه مـادحـه

وقـرة العين فى رؤيا مـحـاسنه

والسـعـد فى راحـة وافت تصـافحـه

وذكـره قـد حـلا ذوقـا ومَن يده

فـاض النوال كـبحـر عمّ طافحـه

وذاك مـجـمل قـول فى تـصـوره

لسـان حـالى بالتـصـديق شـارحـه

دامت معـاليـه مـا غنَى الهـزار* ومـا

روض الـسـعـادة قـد طابت نوافـحـه

* الهزَار: بفتح الهاء طائر مفرد.

وقصارى الأمر أن مادحه مقصر ولو أطرى، فالاعتراف بالعجز عن إدراك ذلك أحقُّ وأحرى، كيف وقدْ خلق أهلا للمعالى وكفؤ للعلا، واختصّ بإبداع أوصافٍ حميدة تُنشر وتذكر بين الملا، شعر:

أيا مولاى قد أصبحت فرداً
مليكَ علا لك الخلق الحميد
فمدحك لا تحيط به القوافى (ص٥٥٩)
ووصفك ليس يدركه محيد
خُلقتَ كما أرادتك المعالى
وكنتَ لمن رجاك كما يريد

ولما أنهى القلم بعض حق خدمته، وبيض بمداده وجه صحيفته، وقف فى مقام الأدب والخضوع والاعتراف، وطلب الإذن من مولاه بالرجوع والانصراف، داعياً له بتوالى النعم المحمودة العواقب، وثبت الهمم الجليلة الذكر والمناقب، لازال ملحوظاً بعين عناية حماية مولاه، محفوظاً بوقاية كفاية (فسيكفيكهم الله)، ما أبدع منشئ فى النثر والنظام، وزها التاريخ بأحسن ختام.

تهدى إلى عالى الجناب مقامة
تزهو كبدر فى غياهب جنحه
لما سمت حسنا بدا تاريخها
لمقامة أبدت بدايع مدحه

وقال ينتجز وعده أدام الله سعده

عطفاً فباب الرجا بالنجح ما فتحا
ومتن قصدى بالإسعاد ما شرحا

وشـمس فلك المنى فى الحجب مـا طلعت
وبـرق أفق الهـنا للعين مـالحـا
فـفكرتى بفـجـاج الوهم سـائحـةً
واللب فى لجج الأشـجـان قـد سَـبَـحـا
وراحـتى فـقـدت والأنس تابعـهـا
وناظرى بغـيـوث الدمع قـد سـفـحـا
هل ذاك من سوء حظ قد خصصت به (ص٥٦٠)
وأن مـولاى للإغـضـاء قـد جنحـا؟
مـولى سـمت بسـمـا العليـا عـزائمـه
وعن مـبـاهج عـز قط مـا برحـا
سـارت بسـيـرته الركـبـان راويةً
عنه أحـاديث فـضل عطرها نفـحـا
وفـيم جـودك قـد سـحت مـوارده
مـوجـه بفـيـوض الفـضل قـد طفـحـا
وروض مـجـدك قـد فـاحت أزاهره
وهاتف السـعـد فى أدواحـه صـدحـا
فـلاحظ المنتـمى عطفـاً بعين رضـا
لا زلتَ فى نعـمـة بالعـزّ مـتـشـحـا

وقال يمدحه ويهنئه بعيد الفطر:

عـيـد الهنا بالسـعـد أقـبل
والـوقـت مـن بـشـر تـهـلل
وافـى عـلـى طـرف أغـرّ
بيـمن إعـزاز مـحـجل
يروى حـديثَ مـسـرة
يسـمـو بإسـعـاد مـسلسل

فتأرجت منه الربا
وتعطرت مسكا ومندل
فاسعد بعيد سيدى
عيداً حلا وردا رمنهل
وأقم بروض سعادة
بزهور إنعام تجملْ
وابشر حُبيتَ بنصرة (ص٥٦١)
عزا ومن أقصيتَ يخذل
يثنى عليك لسان حال
الدهر تفصيلا ومجمل
تبقى كما تختار من
عمر قويم الغصن أعدلْ
ما آب شهر الصوم أو
عيد الهنا بالسعد أقبل

(وقال) يمدحه بهذه المزدوجة الفريدة، المزرية ببديعها كل قصيدة، وكتب عليها قوله:

مزدوجة بالثناء طيبة العطر، مبتهجة بالتهنئة بعيد الفطر

يا سعد عرّج بالحمى والرّند*
وطُفْ بأكناف الربا من نجد
وانزل بحى فيه أهل ودّى
فهم مُنَى عينى وجُلُّ قَصْدى
وحبهم أثار نار وجدى
واشرح لهم حالى وما ألاقى
من لاعجِ الغرام والأشواق

* الرنْد: بفتح الراء وسكون النون شجر طيب الرائحة من شعر البادية

ومـــا جـــرى من دمـــعى المهـــراق

واذكـــر عليـــلا بات فى احـــتـــراق

يشكو تباريح الجوى والسُّهد

حليف شـــوقٍ جـــســـمـــه نحـــيل

أليـف تـوقٍ شـــفـــه العليـل

سُلوانه والصـــبـــر مـــســـتـــحـــيل

يقـــول هل لى فى اللقـــا ســـبـــيل

(ص٥٦٢) لأستريح من عنا ووجد

قـــد هاج شـــوقـــاً فى دجى الأســـحـــار

والصـــبح مـــحـــجـــوب عن الأســـفـــار

والبـــرق باد من خـــبـــا الأســـتـــار

وقـــد شـــجـــاه صـــادح الأطيـــار

يشدو حنينا فى الرُّبا بنجد

فـــيـــانســـيـــمـــا ســـاريا عن الربا

يعطر الأرجـــاء من نشـــر الكبـــا

روّح فـــؤادى بحـــديثٍ أو نبـــا

عـــمن صـــبـــا الصبُّ إليـــهم وصـــبـــا

فذكرهم سجيتى ووردى

بالعـــهـــد حـــدث عن حـــمىً بهـــيج

يزهـو حلى بروضـــه البـــهـــيـــج

مـــرَوّحـــا بعَـــرْفـــه الأريج

لعل يطفى ذكـــره وهيـــجـــى

كم طاب فيه مصدرى ووردى

حـــيث الشـــبـــاب غـــصنه رطيب

حـــيث الزمـــان روضـــه خـــصـــيب

حـيث الهنا دانى الوفـا مـجـيبُ
حـيث الذى أهواه لى رقـيب
فى راحة من هجره والصدّ
ظبى أغن رائق الألفـاظ
عـذب الثنايا فـاتر الألحـاظ
باهى المحـيّـا فـاتن الوعّـاظِ
مـوكل للطرف بالإيقـاظ
(ص٥٦٣) يدعو إلى الهوى بسيف الحدّ
رخـيم دل* قـدُّه رشـيق
وسـيم شكل حـسنه يشـيق
فى خـده التـفـاح والشـقـيق*
فى ثغـره الأقـاح* والرحـيق
يفتر عن در وطعم الشهد
فـثـغـره العـذب الهنى لا يرشف
وَوِرد خـده الجنى لا يُقطَف
يحـرسـه عن مـقلتـيـه مـرهف
به العـيـون والعـقـول تخطف
إذا بدا مجرداً من غمد
يا حـسنه لما وفى يخـتـال
فـى حـلـة طـرازهـا الـدلال
وبهـجـة جـمـالهـا كـمـال
يهـتـز تيـهـا قـدّه العـسّـال
يزرى الغصون ميلُ ذاك القدّ
ذو غُـرّةٍ لهـا الهـلال يحكى
وطرةٍ تبـدى سـواد الحلك

* رخيم دلّ: الرخيم هو الليّن السهل، والدّل أو الدلال بفتح الدال جرأة المرأة فى تكسر وتغنج، فقوله (رخيم دل) معناه أن دلاله لين سهل.
* الشقيق: الحمرة التى تعلو بياضاً.
* الأقاح: أقحوان وهو نبت طيب الريح.

وشـامـة تروى عن ابن مسك
ومَبسم قد ضاع فيه النُسك
وصار غَيى فيه عينَ الرشد
لله مـا أحلى ظبـا ذاك الحـمى
ومـا ألذ الوصل من تلك الدمـا
هيـجت شـوقى والنسـيم عندمـا
ذكـرت فاسعف بالحديث مغرما
(ص٥٦٤) يشوقه تذكار ذاك العهد
وهات لى حـديث الأزبكيـة
ومـا حـوت أدواحـهـا الزكيـة
حسنا زهت أرجـاؤها السنيـه
إذ لاح فى غـرتهـا البـهيـه
قصور رضوان العلا والمجد
يا حـبـذا معـاهدٌ حـسان
يغنيك عن وصـفى لهـا العِين
قـد حلٌ فـيـهـا الحـور والولدان
حـصبـاؤها اليـاقـوت والمرجـان
فانظر تراها جنة كالخلد
فكم بهـا من دوحـة أنيـقـه
وروضـة أغـصـانهـا وريقـه
وربوة أنـهـارها غـديقـه
ومـرجـة أزهارها عـبـيـقـه
من نرجس وسوسن وورد
تزهو بهـا حـدائق الأزهار
يجـرى بهـا مسلسلُ الأنهـار

تبـــدو بهـــا لطائف الأســـرار

عن طيب نفخ عـــرفـــهـــا المعطار

تعيد طيّ نشرها وتُبدى

حى الصـبـا حـمىَ سـمـا إتقـانا

وفـــاق فى إبداعـــــه الإيـوانا

جـــــر المنى فى دوحــــه أردانا*

عـــــز الهنا فى روضــــه أفنانا

(ص٥٦٥) غنت عليها صادحاتُ السعدِ

مـعـاهدٌ قـد أشـرقتْ جـمـالا

وأعــجــبت فى حــسنهـا دلالا

إذ حلّ فـيـهـا كـوكب تلالا

بأوج عـــز وازدهى كـــمـــالا

فطاب ذكرُ مدحه والحمدِ

مليك سـعـد قـد سـمـا فى عـصـره

مـــؤيدٌ مـــعظمٌ فى مـــصـــره

مـعـززٌ كـيـوسف فى قـصـره

عليـــه منشـــورٌ لواءُ نصـــره

بموكب العز السنى والجد

أعظم به من مـــاجـــدِ وشـــهـم

مـــولى شـــديد البـــأس وافى الحلم

فى الحـــــرب نـارُ جنـةِ بسلـم

مـــعـنـف من غـــاب يوم الغنم

وعاذر من غاب يوم الطرد

صـــلاته قـــبل الرجـــاء ســـابقـــه

نصـــاله للمـــبـــغـــضين لاحـــقـــه

* الأردان جمع مفرده (رُدن) بضم لرء ومعنه الكمّ.

همـتــه إلى المعـالى رامـقـة*

آراؤه فـيـمـا يـروم صـادقـه

كم نجحت فى حلها والعقد

كـريم صـدق وعـده لا يخلف

رفـيع جـاه بالسـمـو يعـرفُ

حـامى الذمـار بالوفـاء يؤلفُ

عـزيز جـاه فى الخطوب مـسـعف

(ص٥٦٦) راجيه لم يخطئ بلوغ قصدِ

فكم له فى منهج الأمـجـاد

حـديث وصف عـالى الإسناد

يرويه كل حـاضـر وبادى

من سـاكن الأغـوار والأنجـاد

صحيح نقل ما به من نقدِ

فلى رجـاء فى جـمـيل صـفـحـه

لأننى مـقـصـرٌ فى مـدحِـه

ولا أطيق بعض وصف شـرحـه

حـبـاه ذو العـلا جـزيل منحـه

فى دولة سعيدة وجند

بشـراه قـد وافـاه عـيـد الفطر

ممتطيـاً طرف الهنا والبـشـر

يخـتـال تيـهـا فى رداء الفـخـرِ

يَعطر الأرجـا بطيب النشـِر

مهنئا بطيب عيش رغد

مـبـشـرا بالنصـر والتـأييـد

وطول عـمـر نجله السـعـيـد

* رامقة: أى ناظرة.

علىٌّ قــــدرٍ نـاجبٍ فــــريد
عــــوّذْتهُ بربه المجـــــيـــــد
يقيه كلّ حاسدٍ وضدَ
تُهــــدى له لطائفُ الأنعـــــام
تحـــملهـــا نجــايبُ الاكـــرام
مـــحـــفـــوفـــة بالعـــز والإعظامِ
مـــحـــفــوظة من حـــادث الأيام
(ص٥٦٧) يديمها فضل الكريم الفرد
وعـــزة أحكامــــهـــا لا تُنسخ
ورفـــعـــة عـــهـــودها لا تفـــسخ
ومـــتـــعـــة على الدوام ترسخ
يُهـــدى الهنا فـــعـــيـــدُه المؤرّخ
عيدٌ به بَدت شموسُ السعدِ

وقال يمدحه بهذه القصيدة

زَهَتْ مِنْ ربا روض الســرور مــعــاهده
وأشـــرق ناديه وراقتْ مــــوارده
وفــاحت بأدواح التــهـــانى أزاهرٌ
وغـــرّد قُــمْــرى* السعـــود وناشـــده
وأضـــحت مـغــانيــه الحـــسان نواضـراً
أبرضـوان هذا العـصـر دامت مـحامـده
مـــيـــر زها بالعـــز كـــوكب ســعـــده
لـه طـارف المجـــــد الأثيـل وتـالـده
مــحــامـده تشـفـى الصـــدور ومـدحــه
يحلّى به جــيــد الزمـــان وســـاعـــده

* قُمري: بضم القاف وسكون الميم منسوب إلى (قُمر) جمع (أقمر) وهو الحمام الأبيض والأنثى قُمرية.

مـلاذٌ لراجـيـه وكـهفٌ لمحـتمٍ
يروح ويغـدو بالمسـرة وافـده
لجـأتُ إليـه عندمـا الدهر راعنى
فـامننى إسـعـافـه وعـوايده
ولاحظنى عطفـا فـانتج مطلبى
ووقـد كـان فى أقصى المرام مراصده
بلّغ آمـالى المنى بعـد يأسـهـا
فـوافى الهنا بالبـشـر والنجح قـايده
(ص٥٦٨) وقلد جيدى مسعفا عقد نعمة
تسـامت على درّ العـقـود فـوايده
وأسـعف بالإقـبـال أسـعـد مـدحـه
فـسـرّ مـحـبـيـه وغـيظت حـواسـده
فـأكـرم بمولى يُخـجل الغـيثَ رفـده
وأعظم بشـهم يبلغ السـؤلَ قـاصـده
فـيـاليتَ أنى بالبـدايع شـاكـرٌ
ومَـثن عليـه مـا حـييت وحـامـده
فـيـا سـيـداً حـاز الشـجـاعـة والندى
فـشـيـدت مـعـاليـه وعـمـت فـوايده
نهـجت سـبـيـلا مـا سُـبـقْت بمثله
سـبـيل غـيـاث أنت بالفـضل شـايده
وكم مـشـرع للفـضل عـذبٍ مـسلسل
وأنت على طرف السـيـادة وارده
تفـردت مـجـداً حـيث أنك جـامعٌ
كـمـا عـلاً تقـضى بذاك شـواهده
وألبـست هذا العـصـر ثوب مـفـاخـرٍ
وتوجـتـه عـزا فطابت مـشـاهده

فالحكم والجدوى ملكت نهايةً
وبالسطوة انقادت إليك أساوده
لكل زمان واحدٌ يقتدى به
وهذا زمان أنت لاشك واحده
قدم فى علا أوج السيادة راقياً
يروقك من روض السرور معاهده

وقال مشطراً هذين البيتين: (ص٥٦٩)

(يا غارسا لى رياض مجد
أشجاره الزهر من نوالك
زهتْ وطابَ الرياض لما
(سقَيْتَها العذبَ من زلالك)
(أخاف منْ زهرها ذبولا)
إن فاتها الفىء من ظلالك
أو أن يُرى نبتها هشيما
(ما لم يكن سقيها يبالك)

وقال يمدحه وفيها بيتان مضمنان:

روحُ النسيم يروّح الأنفاسا
ويِميد غصنا بالهوى مياسا
ويَهيج نيران الغرام بمهجة
فقدت لفرط شجونها الإيناسا
ويذيع أسرار الغرام بمغرم
قد كابد الوجدَ الشديدَ وقاسى
صبٌ له كبد يذوب صبابة
وصبيب جفن لا يذوق نعاسا

كم هام فى عـصـر التصـابى واحتـسى
في حـان ريحـان المحبـة كـاسـا
وجـرى بميـدان الهـيـام مـسـابقـاً
حـيث امـتطى من لهـوه أفـراسـا
لبـست جـلابيبَ الولَوع جـمـوحـةً
لم يسـتطع لعنانهـا إحـبـاسـا
واهاً لأيام الشـبـيـبـة إنهـا
تكسـو النهـاة بغـيـهـا البـاسـا
ومـهـفـهف حلو الدلال علقْـتـه
ظبـيـا قـد اتخـذ القلوب كناسـا*
أنواع كل الحـسـن فـيـه تجـمـعت
فـتـقـسـمت عـشـاقـه أجناسـا
مـا جـال طرْفي في رياض خـدوده
إلا اجـتـنـى ورداً وشـاهـد آسـا
فـبـجـمـر وجنتـه وخـمـر رُضـابه
يحـوى من الحـسن البـديع جنسـا
مـا الصـعـدة السـمرا ومـا غـصن النقْـا
إن هزّ عـامـل* قـده أو مـاسـا
قـمـرٌ إذا مـا افـتـر بارق ثغـره
أبكى العـيـون ونوّر الأغـلاسـا
كم بتُّ أضـرب في انتظار وعـوده
بالوصل في أسـداسى الأخـمـاسـا
وأبـيـت وسـنـانَ اللـواحظ لاهـيـاً
عن ذى سَـقـام بالشـجـون مـؤاسـا
رشـأ أضـعـت العـمـر فـيـه صـبـابة
وعـدمت من أسـفى عليـه حـواسـا

* كناسا: الكناس بكسر الكاف: مأوى في الشجر يأوىَ إليه الظبى ليستتر.

* عامل: جمعها عوامل، وهى القوائم أى الأرجل.

يزداد وجـدى عند فـقـد تصـبـرى
وأطيل من شـغـفى به وسـواسـا
فكأن بالألبـاب من ألفـاظه
سكراً ومن سـحـر العـيـون مـسـاسـا
ولعت به ولوعـهـا بمديح منْ
ملك العليين الندى والبـاسـا
إنسان عين الدهر رضوان العلا (ص٥٧١)
فـردُ الأوان لطافـةً وحـمـاسـا
شـهم تدين له الأسـود مـهـابة
وتفـاخـر العليـا به الأكـيـاسـا
عـزتْ به أمـراءُ دولةِ عـصـره
إذ كـان للرؤسـاء منهم راسـا
أفـديه من فَطِنٍ تكامل حـزمـه
ومـدبرٍ عـرف الأمـور وسـاسـا
لم يرم عن قـوس الفـراسـةِ سـهـمَـه
إلا أصـاب برأيه القـرطاسـا
إنْ أذكُـر الليثَ الهـصـورَ فـحلمـه
وذكـاه أنسى أحنفـاً وإياسـا
فـالدر ينشـر بانتظام مـقـاله
وذوو البـلاغـة يُطرقـون الراسـا
لـم يثنه فى الجـود لومـةُ لائمِ
كـالبـحـر جـاوز فـيضـه المقـيـاسـا
حـفظَت صنايعـه وأينع روضـهـا
بالإحـتكام إشـادة وغـراسـاً
ورثت خـلايقُـه أجلَّ مكـارم
عن خـيـرة الدهر الكريم أناسـا

قـــوم إذا غـــرســـوا ســـقـــوا وإذا بنوا
لا يهـــدمـــون لما بنوه أســـاســـاً
وإذا همـــو صنعـــوا الصنايع فى الورى
جـــعلوا لهـــا طول البـــقـــاء لبـــاســـا
لهِج الزمـــان بذكـــرهم حـــتى بدا
هذا الأمـــيـــر إلى العِـــيـــان تناسى
(ص٥٧٢) فغدت به غرر الزمان مواسماً
وبعـــز دولة مـــجـــده أعـــراســـا
روّح فـــؤاد المســـتـــهـــام بذكـــره
وانعش بطيب حـــديثـــهـــا الجُـــلاســـا
فـــحـــديثـــه يروى الغليل كـــأنه
روحُ النســـيم يروّح الأنفـــاســـا

وقال يمدحه:

أبيـــات نظمى بهـــا جـــمـــال
ومن امـــتـــداحى على جنابك
افت تجـــر الذيول فـــخـــراً
تهـــيم شـــوقـــا إلى رحـــابك
لعل أن تحـــتظى قـــبـــولا
وتبـــلـــغ العـــــز والســـنابك*
مـــولاى طال انتظار عـــبـــد
لـــه وثـــوق بـــعـــــز بـــابـــك
فـــادرك فـــتى كـــاد فى انتظار
يطيـــر وجـــداً على الســـنابك*

(وقال مادحاً له بهذه المقامة) مهنياً له بالبرء والسلامة
(وسمَّاها) نشر نفحة الصفا، ببشر الصحة والشفا، وفيها

* السناء: الرفعة.

* السنابك: جمع سُنْبك وهى أطراف حوافر الخيل.

لزوم مالا يلزم يظهر لمن أمعن نظره فيها وأنعم، وهى:

حكي أبو النجاح بشر بن حبيب، قال: حدثنى ابن الصلاح نصر الطبيب، عن أبى الطيب الطيبى الماهر الاريب، حديثاً بقانون الشفاء محرر ومسطور: أن مما أنتجته قضايا البراهين، وشهدت التجربة به عن يقين، وقضت بصحته أحكام القوانين، فى علاج الأمزجة اللطيفة وشرح الصدور، حمية الخاطر عن شواهد المكدرات، وتحلية الروح بأطايب المنعشات، وترويح النفس بعجايب المطربات، فى اغتباق الأصايل واعتناق البكور وتسريح العيون وإطلاق النواظر فى حدايق (ص٥٧٣) الربا والريضا النواضر، واستجلاء عرايس أدواحها الزواهر، واستنشاق شذى معطرات الزهور والإصغاء لنغمات ساجعات الحمايم، والاسترواح لنفحات ذاكيات النسايم، والاستنشاق لنسمات يانعات الكمايم، بالمغانى الزاهية على شاطئ النهور ومفاكهة الأحبا الأدبا الظرفا، ومنادمة الألبا النجبا اللطفا، ومحادثة الفصحا البلغا الحنفا، على سرر التهانى وبسط الزهور، واستماع ألحان المثانى ورنات الأوتار مع مطرب يشدو ببدايع الأشعار، ومجامر النّد نافحة بعرفها المعطار، بمجلس الأنس ونادى الهنا والحبور، فإذا توفر هذا التدبير نجح العلاج، وتراجعت القوى ودام الابتهاج، واعتدلت الطبايع وصحّ المزاج، ورقمت بشاير الشفا برق منشور، فأقسم يميناً صدقاً أبو النجاح، أن هذا هو فى الحقيقة منعش الأرواح، وطارد الهموم وجالب الأفراح، وتقوى الأبدان الإنسانية سقنقور* فوصفه لمولى عزّ قدراً وسما، ووضعه على ألطف قانون وسما، فصحّ مزاجه

* السقنقور: دابة تنشأ بشاطئ النيل لحمها جيد.

اللطيف بعد ما كان صَدر الزمان بشكايته مصدور، وزال عن الدهر الترح والعنا، ولبس ملابس الأمن والمنى، وسكن روعه بوفود البشر والهنا، وأصبح بصحة **الرضوان** مستبشرا ومسرور وتلا آيات الشفا بألواح التهانى، وروى أحاديث الصفا بمسند الأمانى، ونشر ألوية الدعا مفتتحاً بالسبع المثانى، لجناب سيدِ عليه لواء السعد (ص٥٧٤) منشور، سيد لا يحاط بأوصاف قدره، عين المجد وغرة أعيان مصره، ودرة التاج وواسطة العقد بعصره، المتحلى ببدايع مدحه المنظوم والمنثور لازالت ثغور المسرة بواديه بواسم، ورياض المبرة بناديه العاطر بواسم، ولياليه وأيامه الزاهرة أعياد ومواسم، تختال تيهاً وفخراً على سالفات الدهور، قد أظلك سيدى هذا العام الجديد مبشراً بتوارد وافر النعم والعيش الرغيد، فلك البشرى بهذا الفأل الحسن الحميد، إذ يؤرخ بحصول الشفاء به عام السرور (وختمها بقوله):

روض التهانى أينعت أزهاره
وبدوحه نهر المسرة قد صفا
والدهر أهدى من علاه بشايراً
وبعهد إسعادِ وايناسٍ وفا
والمجد قد عوفى وصح مِزاجه
حيث القوى اعتدلت بقانون الشفا
وتلا الهنا آى الشرور بصحة
قد سُطرت منا بألواح الصفا
والعام أقبل بالسرور مهنئاً
ومؤرخاً يروى حديثاً بالشفا

وقال فى سفينة أنشأها ذلك الأمير:

فُلك السعادة بالأفراح جارية
بيحر عز وجود طاب مسراها
وراية السعد فى أعلى الشراع زهت
بمجد رضوان سَرْ العينَ مرآها
(ص٥٧٥) ومطرب الأنس بالألحان أرّخها
سفينة بنسيم اللطف مجراها

وقال والمعنى يظهر فى الأبيات:

يا سيداً حاز الثنا
وله المعالى تصطفى
أنجزت وعدك منعما
وقضيت لى بتصرف
ووكلتنى لمباشر
كم ذا أراه موّفى
فانعم بإلزامٍ له
يقضى بغير توقف
لازلت تسعف راجياً
وتجود بالوعد الوفى

(وقال) يصف قصراً نمقه بالنقوش الزهية وهو المعروف بالحلّى وذلك لقدوم الصدر الكبير وزير مصر أحمد باشا:

قصر له بديع الحكم إتقان
قد قام منه على الإبداع برهان

قصر تقاصر عنه قصر ذى يزن
فما السدير وما أنشاه نعمان
قصر حكى لقصور الخلد طاب حلى
يقضى له بحلى التشبيه عنوان
قصر زها تحته الأنهار جارية
يميس فى سرحه الزاهىّ ولدان
قصر على النيل قد أبدى الفخار به (ص٧٥٦)
على الفرات وما يحويه سَيْحان
قصر به نفحت روحَ الهنا وشدت
وُرْقٌ لها بفنون الأنس ألحان
قصر به السعد إذ حل الوزير به
فهو العزيز وهذا القصر إيوان
قصر بهمة مزهيه شواهده
قامت وحسبك هذا الحكم تبيان
قصر تسامى فإن شاهدتَ منظره
فأرخْتُه حلا مزهيه رضوان

وقال يمدحه ويهنئه بمولود جديد، مقدما أمام نظمه منثورا يزرى بنظم الدر النضيد، وهو قوله:

«بشرى لنا بالتهانى بشرى، فمن أفق السعادة شهدنا بدراً، قدم اليمن والسعد بوروده، ووافى السرور والأنس بوجوده، فقرّت النواظر بحديثه الحسن، وقرئت بمصاحف النعم آياتُ المنن، فياله مولوداً روّح الأرواح، وأقام بمولده مواسم الأفراح، فلنا بعواطف الرضوان موانح، ومن لطايف الامتنان أعطر نوافح، فالله يقر عين السيد بحياته، ويحوطه وإخوته الأمجاد بعظيم آياته، ويطيلُ عمر

حياته ويحييه، حتى يرى ولدَ ولدَ ولده يحييه،

آمين آمين لا أرضى بواحدة
حتى أقول لديها ألف آمينا

والنظم هو قوله:

لاحت لنا شمس السرور عِيانا
فغدا الحِجا بشهودها نشوانا
(ص٥٧٧) شمس لها فلك التهانى مطلع
بوفود من يسمو على كيوانا
يا حبذا يوم السعود بمولد
أضحى لأعياد الهنا عنوانا
وغدا ينادى والزمان مهنئاً
داعى الصفا ببشارة إعلانا
بشرى لقد جاد الزمان بمنحةٍ
أرخ حبا بمحمد رضوانا

وقال يمدحه ويهنئه بمولد جديد

بشرى بها وُرْقُ السعود تغردُ
وهنا به شادى المسرةِ يُنْشد
والسعد بالعليا أقام مواسماً
بشهودها عيد المنى يتجددُ
وبدا صباح الحظ يزهو مسفرا
يروى أحاديث الصفا ويسند
وأضاء من أفق الحبور مطالع
إذ لاح من فلك المعالى فرقد

وتهللت غــــرر الزمـــــان بمولد
وزهت بمولـود عـــــلاه أو حـــــد
لاحت بغـرته البــهيــة بهـجـة
بشرى السعـادة من حـلاها تشـهـد
مـولى سـعـيـد بالذكـاء مـوشحٌ
ويجيـده عـقـد السعـود منضد
زاكى الموارد للمـحـامـد جـامع
زاهي المشـاهد فى المحـاسن مـفـردُ
(ص٥٧٨) بشراه فالسر المصون يحوطه
وله على درج المعـالى مـصـعـد
يربى عـزيزا فى حـجـور كـواعب
بمهـود إسـعـاد سناها أسـعـد
وله من المجـد المؤثل رفـعـة
تسـمـو عُـلا ومن المآثر سـودد
صـدقت فـراسـة ذى الحـجـا بنجـابة
فـعلى نجـابتـه الخناصـر تعـقـد
أنعـم بمولـود لـرضـوان العـلا
سـامى العـلاء فـسـعـده يتـوقـد
يهـدى له العـمـر المديد بصـحـة
يحلو بهـا العـيش ا لهنىُّ الأرغـد
حـيث التـهـانى مـقـسـم ومـؤرخ
بسـمـا الهنا هذا السـعـيد مـحـمـد

وقال مادحا ومهنئا بعيد وشفاء

لك البـشـر يا عـيـد السـرور بسـيـد
سـمـا وعـلا فى سـعـده فوق كـيـوان

فهاك منادى العز فى باب مجده
ينادى بتاريخ زهى عيد رضوان

وقال مهنئا بشفائه

* رسائل أدبية من عصر الجبرتى.

مقدماً أمام شعره الرايق، نبذة من نثره الفايق، قوله: لقد أسمعنى سعدٌ حديث الشفا، بمحضر الأنس ومجمع إخوان الصفا، فشنّف الأسماع بدرره ورنح الأعطاف، إذ أرشفنى من كئوس المسرة أطيب سلاف، فطفقت من فرط السرور (ص٥٧٩) الذى جل عن الحد أنادى فديتك زدنى من حديثك يا سعد فهناك نفحت نوافح الأفراح، فعطرت الأرجاء وأنعشت الأرواح، وأزهر روض التهانى بزهور الامتنان فنعمنا منه بروح وريحان ورضوان، وجعلنا فى دوحه الزاهى البهيج رواه، وتغنينا بدوحه الذاكى الأريج ريّاه، وجلسنا على بسط البسط وسرر السرور، والتحفنا بمطارف* الطرف وحبر الحبور، وتفكهنا من جنى جناه بفواكه الإيناس، وشربنا من رحيق سلساله المروّح الأنفاس، وأطربتنا ورقه الصادحة بنغمات المثانى، فوق أغصان المسرة فما مطربات المثالث والمثانى، وعطفتْ علينا عواطف العطف بالصفا، وروحتنا مراوح الراحة بنسيم الشفا، فانشرح الصدر طرباً وقرت العيون، وزال عن القلب ما به من ران الغبون* ، فالله الحمد على نعمة انجاب بها سحابُ الغموم، وهزم بشيرها بوفود أعلامه جيشَ الهموم، فأعظم بها منحة عمّت جميع الناس ببشرها، وأذهبت عنهم البأس والعنا بلطايف سرها، وأعادت أعياد التهانى تختال مرحاً، وثغر الزمان يبتسم سروراً وفرحا، فحق لهذا المحب أن يرفع أكف الابتهال إلى سما الإجابة تجاه قبلة الإقبال، أن يديم الله

* المطارف: أردية من خز ومفردها مطْرف بضم الميم وكسرها مع سكون الطّاء وفتح الراء.

* الغبن: هو الحزن.

لجناب المولى الصحة والعافية، وأن يورده من مناهلها الموارد الصافية، لابسا من المجد الحلل المعلمة الطراز، متوجا بتاج السعادة والإعزاز، وأن يمد له من سرادق العليا الإطناب* ويرفع له فى أعلاها الأعلام والقباب، ما أهدت الطروس من طىّ طيبها نشرا، (ص٥٨٠) وما وافى البشير مؤرخا حباه صدق الشفاء بأطيبها بشرا، وشعره المشار إليه هو قوله:

وافى السرور فأذهب الأتراحا
وأقام فى نادى المنى الأفراحا
وأعاد أعياد التهانى عندما
بدرُ العلا بعد التحجُّبِ لاحا
فُتحت له أبواب أنس أغلقتْ
وغدا حِماها روُضه فياحا
نشرت بآفاق البلاد بشاير
نشرُ المنى من طيبها قد فاحا
بشرى روى عنها أحاديث الشفا
وتلا لها من آيها ألواحا
والعيد وافى بالشفاء مبشراً
قد ألبسته يدُ الجمالِ وشاحا
يزهو برضوان العلا متهللا
إذ حاز من لطف العلاج نجاحا
صحّت بصحته النفوس وأوضحت
شرح الصدور بمتنها إيضاحا
وتألقت أرجاء مصر وأزهرت
أدواحها بمسرة أفراحا
أنعم به مولى تسامى قدرُه
عمّت مدايحه رباً وبطاحا

* أطناب: بفتح الهمزة وسكون الطاء مفرده طُنُب بضمتين وهو حبل الخباء أو الخيمة.

ذو مظهـر بالعـز أُشـرق عـصـره
يحكى سناه كـوكـبـاً وضّـاحـا
دامت معـاليـه ودام سروره (ص٥٨١)
وحـوى بمسـعـاهُ الجـميلِ فـلاحـا
ونوافح الأنس الذكى شـمـيـمـة*
تغشى حـمـاه عَشيـتـه وصَبـاحـا
فله الهنا ولنا السـرور بصـحـة
أهدت إلى روح العـلاءِ صـلاحـا
والحق مـانح والسـعـود مـؤرخ
بسنا شـفـاه أنعش الأرواحـا

* شميمة: أى مشمومة.

(واستنسخ) الأمير الممدوحُ كتابَ روض الآداب، لكاتبه إبراهيم البلبيسى الذى هو عمدة لفنون هذا الباب، فعند إتمامه واختتام نظامه، طلب من مولانا صاحب الترجمة أن ينشىء له مقامة، تكون للكتاب ومحاسنه تميمة ومتممة، فأنشأ هذه المقامة وسماها «سحّ سُحبِ الأدب البديع المعانى، بسوح روض الآداب البديع الرضوانى» مبتدئاً فيها بقوله هذه الأبيات:

بشـرى حـبـيـت بروض آداب
باهى الرياض بنشـره ونظامـه
يختـال فـخـراً اذ تملك رقـه
رضـوان عـزّ عـزّ فى أحكامـه
وحـلا لابراهيم نسـخـا أرخـوا
فـزهت مـبـاديه وحـسن تمامـه

حبذا روض الآداب الحسن البديع، المثمر بالبلاغة والمزهر

بأنواع البديع، جرت مياه البراعة خلال سطوره، وتفيأت اليراعة تحت ظلال مسطوره، وتفتح زهر الفصاحة من كمايم مبانيه، ونفح أرج (ص٥٨٢) البيان من نسايم معانيه، روض ابتهج بالآلئ المنظوم والمنثور، وتدبج بأحمر الشقيق وأصفر المنشور* فهو بحالى الترصيع والتوشيع بهيج، وبغالى الترشيح والتوشيح أريج، فلله در سحايب قرايح أظهرت نَوْره، وأضحكت من أقاح أدواحه الزاهية ثغوره، روض قامت على أغصان ألفاته* خطباء الأقلام، وصدحت على أفنان همزاته حمايم الأفهام، فغدا نزهة الناظر وفاكهة الخلفا، ومرح الخاطر ومفاكهة الأدبا والظرفا، فمن ظفر بهذا الروض وحل حماه، حبى طرف السرور من مغانيه ورباه، (روض) من ارتقى على أرائكه السنية الرفيعة، وتأمل فى أوصاف محاسنه البهية البديعة، رأى بيوتاً سمت بالمحل الأرفع، وشرفت حيث أذن الله لها أن ترفع، ووجد فى كل دوحة ثماراً يانعة مختلفة الأنواع، وأزهاراً شذى نوافحها مختلفة الأضواع (روض) حوى فى زوايا خباياه كنوز ذخايره دراً منثورا ولؤلؤا منظوما، ياقوتا وجواهر وبه مسارح آرام ومراتع غزلان ومعاهد أنس وَشّحَتْ بحسن واحسان، وفيه صادحات أطيار بألحان الهنا تترنم، تذكر أيام الصبا وتهيج أشجان الصب المغرم (روض) رويت أحاديث جماله بمحاضر السرور، وتليت آيات كماله بمجامع الحبور، فهو لعمرى مفرد جمع لجميع الفنون، فيه تنافست ذوو الحجا وفى ذلك فليتنافس المتنافسون، فروح الروح فى بهجة حواشيه، ووجه وجه الثناء لمالكه (ص٥٨٣) وحاويه (روض) الرياض الزاهية المثمرة الوريقة، ومنبع الغياض الذاكية المزهرة الانيقة، من تنسم أرواح الصبا طيباً بربع

* المنثورة: نبات ذو زهر ذكى الرائحة الواحدة منثورة.

* الألفات: بكسر اللام جمع الألف وهو أول حروف الهجاء.

علاه، وتبسم ثغور الحدايق إذا جرى حديث حلاه، حضرة الأمير الكبير رضوان كتخدا، لازال بالسبع المثانى محفوظاً من العدا (روض) أمر جناب حضرته العلية باستكتابه، فنسختْ له هذه النسخة الجلية وزفت إلى بابه، تحرّى الناسخ في نسخها ونمق أى تنميق، فجاءت مبدعَة على وجه حسن أنيق، تروّح الروح بنشرها وتجلى الناظر، وتشرح الصدر ببشرها وتحلى الخاطر، (روض) تحلى عقود الانتهاء حالية الانتظام، وتطيب من نوافح طيب مسك الختام، فى ابتداء غرة ربيع الأول المستطاب، عام تاريخه يزهو بكمال روض الآداب، فما أبدع هذا الاتفاق الحسن البديع، حيث جلى الروض علينا فى ربيع، (روض) أذكرنى بهذه المناسبة النفيسة، زمان الربيع وموارده المنعشة الأنيسة، إذ فيه تنفح الزهور، وتصدح الحمايم وتسلسل النهور، وتضحك الكمايم بطيب الوقت وتعتدل القوى، وتنبسط نفوس أهل الصبابة والهوى، شعر:

زمـــان الربيع زمـــان الســـرور
زمـان التـهـاني وشـرح الصـدور
مـهـيج النفـوس بنفح الزهور
وصـدح الطيـور وجـرى النهـور

(روض) حق له أن يفوح بطيب عرفه، ويفتخر (ص٥٨٤) ببديع جماله وكمال وصفه، حيث كان اسمه مجتنى من اسم الرضوان، فله مع التشريف والعزة روح وريحان، وكم اشتمل على نكات ظريفة، يفهمها أهل الذكاء والقرايح اللطيفة، (روض) تشرف الناسخ بتحريره، ممتثلا أمر سيده حيث أمر بتسطيره، داعياً له بدوام عزه وعلو مجده وتلألؤ

كواكب علاه بمشرق سعده، مصليا على من أوتى الكتاب المحكم، وأله وأصحابه الذين طراز كمالاتهم بالفصاحة معلم، شعر:

(روض) زها أبدى البديع بهيج
وحماه من طيب القريض أريج
(روض) به روح البراعة قد سرى
بلطيف سر بالسرور نسيج
(روض) به ورق الفصاحة غردت
بلحون نظم زانها التهزيج
(روض) حلى الآداب وشى طرازه
ببدايع منها لها تضريج
(روض) حلا وتفتحت أكمامه
عن زهر إبداع به تبهيجُ
(روض) زها بالإفتتان تلوّناً
فحلاه من تلوينه تدبيجُ
(روض) بأنواع الفنون مفوّق
وله بتوشيح الحلى تبريجُ
(روض) به لذوى الغرام تروّح
لكنّه نارُ للغرام يهيج
(ص٥٨٥)(روض) حديث الحُسن عنه مسلسل
وله بمسند ذى الهوى تخريجُ
(روض) حوى أوصاف حسن قد سمت حالى الموارد بالبيان مريجُ
(روض) الرياض حبى بعز رفعة
فسما فما لعُلاه قط نسيجُ
(روض) سما أن قد تفيأ ظله
رضوان عز من سناه بليجُ

(روض) الشجاعة والسماحة والندى
منه لتيجان العلا تتويجُ
(روض) تروّحت النفوس بطيب عطر مديحه ولسوقه ترويج
(روض) نضير والنضار ثماره
فيه يُرى التفريح والتفريج
(روض) نعمنا باجتناء زهوره
وبظله الضافى يزول وهيجُ
(روض) له بالمدح أسعدُ بلبل
دوما له حُسْنُ الثناء هزيجُ
(روض) نَدِى مَهَّد له تاريخه
روض زها أبدا البديعْ بهيج

متع الله جنابه بروض العز والتهانى، مقتطفا منه ثمار الأنس وأزهار الأمانى يروّحه فيه الصفا بنسايم الارتياح، ويشرحه البشر منه بصدح حمايم الأفراح، ممتداً عليه من الصحة سرادق، منشورا له فى آفاق العلا ألوية بالثنا خوافق، (ص٥٨٦) بجاه من اختاره المولى وله اصطفى، سيد الأولين والآخرين طه المصطفى، صلى الله عليه صلاة تليق بمقامه الأسنى، وعلى آله وأصحابه الناهجين مناهجه الحسنى، مع سلام موشى ببدايع النثر والنظام، مازهت المطالع بأحسن ابتداء مؤرخة فطاب الختام.
انتهت المقامة وما يليها وفيهما تواريخ خمس، كل منهما يشرح الصدر ويسر النفس، وقال مؤرخاً بناءَ بابِ العزب الذى جدّده الأمير المشار إليه وضمنه بيتاً من كلام السموأل.

لقد أشرقت شمس السعود ببابنا
فلا يعتريها بعد ذاك أفول

لنا المجد إرثا والسيادةُ منصبا
ودولتنا العلياء ليس تزولُ
(إذا سيدٌ منا خلا قام سيدٌ
قؤول لما قال الكرام فعول)(*)
وسيد أهل العصر رضوان كتخدا
أشاد علاءً ما إليه وصول
فلذ بالحمى مذ أرخوا وببابه
فهذا حِمانا ملجأ ومَقيلُ

وقال يمدحه بهذه القصيدة الربيعية، بل الدوحة المثمرة الشهية، وسماها نشر نوافح البديع ببشرى مقدَم الربيع:

بشرى الربيع الزهي وافت بشايرة
وعن حلاه البهى نمت سرايره
ونشر روح الصبّا أهدى لنا خبراً (ص٥٨٧)
من طيبه فاح فى الآفاق عاطره
ومالت القضْبُ والأطيار قد صَدَحتْ
وقد تَبسّم من عُجب أزاهره
وجاء فى حُلة الابداع مبتهجاً
يختال تِيها به حفت عساكرُه
قسرٌ مقدمه الحالى أخا شجن
يهيجه من معانى الدَوْحِ ناضره
وروحه بمعانى الحسن قد علقت
وفى صفاه فكم تسعى خواطره
وروضة لنجوم الزهر جامعة
وزهرها مفرد فى الحسن سايره

* هذا البيت للسموأل بن عاديا الذى ضرب به المثل فى الوفاء، فيقال: أوفى من السموأل. وهو من قصيدة أولها:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه
فكل رداء يرتديه جميل

إلى أن قال:

وننكر إن شئنا على الناس قولهم
ولا ينكرون القول حين نقول
إذا سيد مناخلا قام سيد
قؤول لما قال الكرام فعول
وما أخمدت نار لنا دون طارق
ولاذما فى النازلين نزيل

قامت بها أمراء الدوح خاطبة
مقام عز تسامى منه فاخره
رام الخلافة كلٌ إذ علا وسما
من فوق مِنْبَرِهِ الزاهى منابره
فالورد قام بدعواها فشوكته
قوية حيثما سُلّت خناجره
والبان وافى بتاج الملك منتصبا
وقال من رامه حكما أناظره
والأقحوان بدا يزهو ببهجته
وحوله زمرةٌ قامت تناظره
والنرجس الغض يرنو نحوها شزراً
لأنه طالب للملك ناظره
قال الشقيق حويتُ الفخرَ أجمعه
والملكُ حقٌ الذى تسمو مفاخره
(ص٥٨٨) وطال بينهما دعوى الخلافِ إلى
أن قام سنبلها الزاكى عواطره
وقال سلطاننا الورد السنى وله
دعوى الخلافة* لا تُعصى أوامره
فكم له طيبُ نشرٍ عمَّ عابقه
بمجلس الأنس إذ فاحت مجامرُه
وكم روينا أحاديثا مسلسلة
فى مدحه وبه طابت مخابره
فعندها سلّموا للحق واعترفوا
بملكه المرتضى والله ناصرُهُ
فاعلَنتْ ورقها بالبشر قائلة
سقى رباك من الوَسْمىِّ باكره

* لعل الشاعر يشير هنا إلى اطماع الامير رضوان فى حكم مصر بالشكل الذى كانت عليه فى ظل حكم المماليك باعتبارها مسكن الخليفة.

والدوح قـد بُسطت فـيـه مطارفـه
والروض قـد رنحت حسنا قـيـاصـره
الزهر من فـرحٍ أهدى النثـار بهـا
لما سـمـا الوردُ واسـتـعلتْ مظاهره
حكى بمنظره الحـالي ومـخـبـره
صـفـاتِ رضـوانِنا السـامي زواهره
أمـيـر مـجـد لنا تتلى مـدايحـه
مـدى الزمـان كـمـا تروى مـآثره
شـهم ومـا غـيـرُ آسـادِ فـريسـتـه
من فـرَّ يومَ لقـاه فـهـو عـاذره
تـخـالـه الـليث والمريخ في يده
إذا بدا جـائلا والسـيف شـاهره
تعطل الجـود من أزمانً قـد سلفت (ص٥٨٩)
والآن حـقـاً به قـامت شـعـائرُه
روض نـضـيـر ولكن مـثـمـر أبداً
غـيـث ولكن ندى عـمَّت مـواطره
وكم له من عـلاً كـالشـمس مـشـرقـة
لهـا يشـاهِدُ باديه وحـاضـره
فكل ذى أدب أقـلامـه عـجـزت
عن مـدحـه بل ومـا وفَت مـحـابره
يا سـيـدا قـد علت بالمجـد رتبـتـه
عـزا فـمـا أحـد فـيـهـا يناظره
أنـعـم بـأن ربـيـع حـان مـورده
تـسـعى إلى بابك السـامى بشـايرُه
واجلس حـبـيت بمغنى الحظِّ منتـشـقـا
طيبَ الصـفـا فـصـبـاً الإسـعـادِ ناشـره

وسرِّح الطرفَ في ميدانِ نَضْرته
ترى من الحسنِ ما يبهيك ناظره
واسمع حمائم أفراح به صدحت
عن لحنها الموصلى كلت مزامره
واشهد لرناته السبع التى اشتهرت
من يجتليها بها تزهو محاضره
وأغنم زمان ربيع بالسرور أتى
صاف موارده حال مصادره
ولا تُضِعْ فرصة مهما ظفِرت بها
واصغى لمن قالَ والممدوح ناصره
خذ من زمانك ما أغناكَ مغتنما
وأنت تاه لهذا الدهر آمره
(٥٩٠) ودم بروض العلا والعز منبسطاً
بمطربات الهنا يشدوك طائره
تجنى به ثمرات الأنس يانعة
مع السرور ومن تهوى تسامره
منعما ببقا نجليك من بهما
هذا الزمانُ لقد قرّت نواظره
فذو المعالى عليّ مصطفى حُفظا
يُهدى لكل من الأعمارِ وافره
لازال كلّ بأوج المجد مرتقياً
بطالع العزّ والإسعاد ناظره
واهنأ بعام سرورٍ إذ تؤرخه
ربيعه المزدهى فاحت عواطره

(وهذا) آخر ما انتقيته من كلامه ونقلته من المدايح

الرضوانية، ومن مؤلفات المترجم ورحلته المسماةُ بموانح الأنس برحلتى لوادى القدس. توفى المترجم سنة ثلاث وسبعين وماية وألف .

٢٦٢ محمد سعيد بن محمد الحنفى السمان.
ت/ ١١٧٣ هـ / ١٧٥٩م.

[ومات] أديب الزمان، وشاعر العصر والأوان العلامة الفاضل شمس الدين الشيخ/ محمد سعيد بن محمد الحنفى الدمشقى الشهير بالسمان، ورد إلى مصر فى سنة أربع وأربعين وماية وألف فطارح الأدبا، وزاحم بمناكبه الفضلا، ثم عاد إلى وطنه، وورد إلى مصر أيضاً فى سنة اثنتين وسبعين وماية وألف، وكان ذا حافظة وبراعة وحسن عشرة، وصار بينه وبين الشيخ عبد الله الإدكاوى محاضراتٌ ومطارحات، وذكره فى مجموعه وأثنى عليه وأورد له من شعره (ص٥٩١) كثيرا، ومما انتقيته من مختار أقواله قوله:

وليلٍ نامت الرقباءُ فيه
وقد أمنوا الوصالَ لطول هجرى
وزار معذبى من دون وْعد
ولم يك وصلهُ منى بفكرِ
فقمت لملعب الهمْيان* أخطو
لأهصُرَ غُصْنَه من دون صبرِ
فلم تر مقلتى إلا وشاحاً
تراءى حائلا من دون خصر

* الهميان: كسر الهاء وسكون الميم حزام يشَدُّ على الوسط توضع فيه الدراهم أو هو ما يُشد به السروال، وقول الشاعر (ملعب الهميان) يقصد به الخصر الذى يتحرك حوله الحزام أو الشداد.

وله أيضاً:

وما أنا بالناسى وقد خيَّم الدُجى
ووافى الذى أهوى ولمَ يُثْنِه ذُعر

وبتنا بحــــالٍ لـم يَرُعْنا مـــؤنِبٌ
وراح يعــاطينى ومــا ابتــسم الفــجـر
ســلافــةَ ألفــاظٍ وجِـريال* مَــبـسـم
وخـمــرة ألحـاظ لذا التـبس الأمــر
فلـم أدر أىّ أسكـر العــقل رشْــفــا
ولـم أدر أىّ غـــاب عنى بهـــا الفكرُ

* الجِريال والسلافة معناهما الخمر.

وله هذا المعنى الذى لم يسبق إليه:

يقـــولون لى لما بدا العـــارض الذى
به غـيـض مـاء الحـسن من وردة الخـدّ
نراك أطلتَ الصـمتَ فـينا ولـم تكن
مـعــانيك إلا الدُّر يرفض* من عِـقــد
أمــا عَلمــوا أن العنادل* فـى الـرُبــا
سكوت إذا مــــا فــــاتهم زمن الـورد

* يَرْفضّ: بتشديد الضاد أى يتفرق وينتثر.

* العنادل جمع العندليب وهو طائر حسن التغريد.

(ص٥٩٢) وله أيضاً:

ألا رُبَّ لـيـلٍ عـلـى غـــــــفـلـةٍ
مـن الـدهـر جـــادت بـرغـم الخـلـى
فــتــاة ســبــتنى بحكـم الهــوى
بجــفـن عن الفــتك لم يغــفـل
إلى أن بـدا الفـــجــر من شــرقــه
يلـوح لـدى الأفـق كـــالمنـصـل*
فــأرْخَتْ أثيــثــا* عـلــى بــانــة
أعـــــاد لـى لـيـلـى مـن الأول

* المنصل: بضم الميم وسكون النون وضم الصاد أو فتحها السيف.

* الأثيث الشعر الملتف الكثيف، والبانة القد الطويل المياس والمعنى (أسدلت شعرها على قدها).

وله أيضاً:

وليلٍ تعـــاطينا به أكـــؤسَ اللّقــا
ومـــدّعلى مـــا بيننا حُللَ السَّـــتـــرْ
يلاصقُ منا الكشحُ كشحاً* منعْمـاً
ونقـرع من فـرط الهـوى الثغـرَ بالثغـرِ
ومـــا راعنا فـيــه حـديثُ وُشـاتنا
ومـا نظرتْ شـزْراً* سـوى أعينُ الزَّهر
فـافنيـتــه ضـمّـاً ولثْـمـاً ولم تزَلْ
يداى بما أبغى نطاقـا على الخـصْـر
إلى أن بدت من مـفـرق الشـرقِ غـرة
أطارتْ غـرابَ الليل عن ذلك الوكـر
فكفَّ يدى عن خـيــزرانة قــدره
وولى وفى أعطافــه نشــوة السكر
وقـال وقـد أتبـعـتُـه نظرة الأسى
أوألقـيت كـفـاً للوداع على الصدر
لا لابدا صــبح يريع مـتـيـمـاً
ولا انجـاب ليل فى الورى كـاتم السـر
فلست أرى كـالليل أسـتـرَ للهـوى
ولست أدرى شـيـئـاً أنم من الفـجـر

* الكشح: ما بين السُّرة ووسط الظهر من الجانبين.

* شزراً: بفتح الشين وسكون الزاى، هو نظر الغضبان بمؤخر عينه.

وله مضمناً: (٥٩٣)

كم قلت للبـدر والأجـفـان تلعب بى
أهلوك بالفـتك كم يسطو على المهج
فـقــال والدر يبـدو من مـبـاسـمـه
هم أهل بدر فـلا يخـشـون من حـرج

وله من قصيدة:

أأشكوكَ الغـــرامَ ومـــا أقـــاسى
وقلبك يا مـذيقى الهـجـرَ قـاسى
وفى طى الجـوانح جـمـر وجْـدٍ
يؤجـجـه التـذكـر والتناسى
أبانات اللوى عن سُحبْ عـينى
سـقـاك الرىُّ من دون احـتـبـاسى
فكم لى فى ظلالك من مـقـيـل
تـفـدّى أهله منى حـواسى
أقـمـت به وشـاطئ واديه
مـلاعب جـؤذر وظبـا كِناسى
فـمـا للعين لم تنظر طلولا
ولا رسـمـا يدل على أسـاس
أمـا هذى الديار ديار سـعـدى؟
أمـا هذى المعـالم والرواسى؟
أأحـلام أرى أم عن حـقـيـق
تقـوضت الخـيـام بلا التـبـاس؟
نعم هذى المعـاهد والمغـانى
فـأين بدور هاتيك الأناس؟
فـإنْ أقـوت* فـهل لى من سبيل
إلى صـبـر يعلل مـا أقـاسى
(ص٥٩٤) وإن عهدى على اللأوا تناسوا
لعـمـرى لست عـهـدهم بناسى
أأبكى أم أجـاوب فى أنينى
حـمـائمَ فى الدياجى لى تؤاسى
أساجلها فـتـعـرب عن شـجـونٍ
وتبـريح على غـيـر القـيـاس

* أقوت: اى خلت.

أتعجب أن قضيتُ هوى ووجدا

وجانبت المؤانس والمواسى؟

وأنى فزت بالقدْح المعلىّ

وبُلّغت المنى من بعد ياسي؟

وقال يمدح السيد على افندى المرادى مفتى الشام:

برِح الخفاءُ فلا الغيور يقيك

كلا ولا بيض الحمى يحميكِ

إلا الذى من سقم جفنكِ ينتضى

وتراه يُغمد فى حشا داعيك

أيس الهوى من أن يجن بخاطرى

ذكر السلو فعاد بى يغريك

فتحكمى فى مهجتى وتهكمى

فيمن غدا بعيونه يفديك

إن كنت عالمة بما فعل النوى

عند الوداع به فذا يكفيك

دنف إذا ضرب الدجى أطنابه

وصل الأنين برنة تشجيك

وإذا انقضى برق العقيق حسامه (ص٥٩٥)

هاجت لواعجه لمبسم فيكِ

وإذا الهديل تجاوبت أصداؤه

جزعا على ما ناله يبكيك

لبس الجوى بردا فأخلقه جوى

حتى رثى لسقامه واشيك

فإلامَ يكتم لوعة فى ضمنها

جمر يَشُبُّ بدمعه المسفوك

ويرى ركوب الصعب فى نهج الهوى
هينا ولا التمويه عن ناديك
فسلى جوانحه التى قد صيرت
مشواك هل فى ذاك من تشكيك؟
كم وقفة دون الكثيب رمى بها
نظرا أطال به التفكر فيك
حيران من أسف يعض بنانه
حذرا عليك مواقع المأفوك
لم يثنه عن رشف ذياك اللمى
إلا اجتناب الظن من أهليك
حجبوك لا بالرغم عنه ولو دروا
أن الحشا مأواك ما حجبوك
أوقات وصلك لو بأيام الصبا
والروح تشرى ما أبى وأبيك؟
إيان من طرب يصون مسامعا
عن غير خُرْس الحى من هاديك
والبيض من فوق الخدود طوالع
والحى ماأهول الحمى يذويك
(ص٥٩٦) مرّت فمرت بعدهن حياتُه
بل شمسها قد آذنت لدنوك
يا سالما مما يكابد فى الهوى
لا تسألنْ عن خبرة المهلوك
وصلوا ومن خلف المطى فؤادُه
تستن قصد سبيلها المسلوكِ
فبكل وادٍ من نوافح طيبهم
أرج وكل قرارة وسموكِ

فكأنهم بثنا المرادى* قد غدوا
يتضرعون إليه بالتبريك

* المرادى: اسم الممدوح.

إلى آخر ما قال، وله من قصيدة

سلوا طيفها أين استقلت نواحيها
غداة النوى لما ترنّم حاديها
وحيعل داعى البين خلف ركابها
وباتت بنات الشوق تحمى مآقيها
وأعرض بشر دوننا وهضابه
وأوغر صدَر الصبّ جمرُ تنائيها
فلا تُنكرى يا بَثن* موقف ذلتى
بدار عفتْ أطلالها ومغانيها
على مثلها المفئود من حُرق النوى
يذيل مصونات الدموع بواديها
تنكر بعد الظاعنين نسيمهُا
وأقفر من ذكر السواجع* ناديها
فلم يبق إلا رسمها فكأنه
سطورٌ عن الأفهام رقت معانيها
(٥٩٧) ومغنى عناق* فى همود دوارس
وشسع* غدا قلبُ المتيم يحكيها
فحييتِ داراً بالأوايد آنست
مِن الآنسات الغيد زهر روابيها
تكاد على الإقْواء* تزداد بهجة
لزائرها لولا ترحُل أهليها
لئن أنهجتْ آثارَها راحةُ البِلى
فمن مهجتى لم يمح كنهُ معانيها

* البثنة: الأرض السهلة اللينة، وبها سميت المرأة بثنة، وبتصغيرها سميت بثينة. والبثنية بلاد بالشام كذلك.

* السواجع: مفردها ساجعة وهى الحمامة إذا ردّدت صوتها.

* مَغْنى عناق: أى المكان الذى كان آهلاً يسعد أهله باللقاء والعناق أصبح هامدا قفراً دارساً لا حياة فيه.

* شسع: الشِسْعُ أصلها ما يشد به زمام النعل، والمقصود أن قلب المحب أصبح ممزقا مثل هذه الشِسع.

* الإقواء: بمعنى الإقفار.

وليلةَ أعـملتُ الرواسم للسُّـرى
كـأني سـمـاها والنواحي دراريهـا
أخـوض الدجى والدجن* يطغو عبابه
فيرقم أطراف السباسب* هاميـهـا
إلى أن رمت أحـداج حـزوى بنظرة
ولاحت لهـا أطلالُها ومـغـانيـهـا
طرحت خـبـاء الحي والقـومُ شُرَّعت
مـخـافـة إلمامي صـدورَ عـواليـهـا
ولست بمذعـور الجنان من القنا
ولم أخش آسـادَ الشرى وضـواريهـا
سـوى لحظاتِ الغيـد يحتمل الفتى
وليس يذودُ الصبـرَ غـيـرُ تجنيـهـا
ولولا مـقـالُ الكاشحين يُريبنا
محوتُ اللمَى الممنوع باللثْم من فيـهـا
ومـا راعني إلا الوداعُ وقـولُهـا
أتعتاض عن ذكر الظِبـا بتناسيـهـا؟
أما بابنةِ الطائي وموقف ساعة (ص٥٩٨)
بمنعـرَج الجـرعـاء مـازلتُ أبكيـهـا
سـأذكـرها حـتى الممـاتَ إن أمتْ
فـعظمي في الاجداث يندب هاميـهـا
فَـمَنْ مبلغ قـومي وجيـرانَ أسـرتي
إذا هدأت ليـلاً عـيـونُ أعـاديهـا
بأني بحـمـد الله في ذروة العـلا
بكف المنى أجنى زهور تهـانيـهـا

(وله من أخرى) يمدح بها بعض الأعيـان وهو

* الدَّجْنُ: المطر الكثير. ويطغو بمعنى يجاوز الحد.
* السبسب: المفازة أو الأرض المستوية البعيدة والجمع سباسب.

على أفندى المرادى:

لمن فى سراها أنحلتها* الدكادك*
يحن اشتياقى والنجومُ شوابك
إذا أدلجت قاد الهوى بزمامها
وإن صوّبت هانت لديها المسالك
وإن أنجدت طارت بغير قوادمِ*
وإن أتهمت فهى الرياح السوابك
فماذا على تلك الحُداة لو انهم
أناخوا بها حيثُ السيوف البوانك؟*
وحيث الحمى يحمون بيضة خِدره
أسودٌ بأيديها تُهزُّ النيازك*
وكل كمى لا يرى العمر مغنما
وكل أبىٍ لم ترعه المهالك
يخوض مثار النقع والعزمُ عابسٌ
ويطعن ما بين الكُلى وهو ضاحكُ
ويغدو عليه من دم القوم حلةٌ
لها السمهريات الدقاق خْوابكُ
(ص٥٩٩) ولكنّ فيه من ظِبا ذلك الحمى
ظبا جردتهن الجفونُ السوافكُ
فمن كل رَوْد* لو بدت فى نقابها
لأبهتَ ذو رشد وأفتن ناسكُ
تُلاعب فى أعطافها نشوةُ الصبا
كما لاعبت غصنا رياحٌ ركائك*
وتُبدى محيا فى أثيث* مجعد
كما البدرُ أبدته الليالى الحوالك

* انحلتها: أى أنهكتها.
* الدكادك: جمع مفردها دكدك بفتح الدالين أو كسرهما ومعناها الأرض الرملية المستوية.
* قوادم الطير: أى اجنحته ومفردها قادمة، أما قوله أنجدت الريح فمعناه صعدت إلى مكان مرتفع وعكسها أتهمت الرياح أى انخفضت.
* البوانك: القواطع.
* النيازك: جمع نَيْزَك بفتح النون وهو الرمح القصير وهى فارسية.
* الرَوْد: الشابة الحسنة.
* ركائك: أى رقيقة ضعيفة.
* أثيث: الكثير الملتهب والمقصود به شعرها الأسود حول وجهها المضئ.

فتسفتك منها فى الخدود عيوننا
وفى قلبنا الحاظُها الفواتك
على أنها لورام طيف خيالها
أخو وهم عزّت عليه المداركُ
من اللاء لولا قُرْطها ووشاُحها
لقلت مهاة إذ عَرتّها السنابك
تملكن حبّات القلوب كأنما
علىٌّ لها بين البرية مالك
أغرُ غدا يغنيك لألاءُ وجهه
عن الشمس حتى تنثنى وهى دالِك
ذَنوب كان المجد ذاتٌ وروحه
معاليه والصيد الكرام حوارك

وقال يمدح الأستاذ محمد بن سالم الحفنى قدس الله سره

عُجها على تلك الربوع الهمّد
واسأل معالمها لعلك تهتدى
وقف الرواسم بالرسوم معللا (ص٦٠٠)
قلبا لواعج شوقه لم تَبردِ
وانثر لآلى أدمع ضنت بها
عيناك إلا للخليط* المنجد
فالطالما فيه أطعت صبابتى
ونبذت ظهْرياً مقال الحسّد
طلل وقفت على صُوى* أرباضه
أيدى الحنينَ إلى ظباهُ الشرّد
وأدرت طَرْفىْ وامق لعبتْ به
بْرَحُ البعادِ إلى أسى لم يُعهد

* الخليط: هو المخالط للشخص أى جليسه ونديمه وصديقه.

* صُوَى: جمع صُوَة وهى الحجر المرتفع الذى يكون دليلاً وعلما فى الطريق.

وبكيتُ من حــــزن بمقلة حــــائرٍ
أسفٍ إلى أحـــبـــابه لـم يُرشـــد
ولثـــمتُ آثار الظعـــائن ريثـــمـــا
أطفـــأتُ بعض غليلىَ المتـــوقـــد
وطفــقت أخــتــبط الدجنة والهــوى
يقــتـــادنى نحـــو المقــيم المقــعــد
لا صــبــر لى عنهم يقينى حســرة
أخــفــيــتــهــا خــوف اطلاع مــفند
ناشــــدتكم يا زاجـــريهـــا أنتم
ســـرتم بهـــاتيك الظبـــاء الخـــرد*
كـيف اسـتطعـتم أن تروا مـثلى على
مــا تعــهـدون وتذهبــوا فى الفــدفــد*
وتضـــيــعــوا وداً عليــه عــقــدتم
عـــقـــد الخناصـــر إنه لـم يجـــدد
هلا رثيـــتم واصـطنعـــتم عنده
قــبل الرحــيل يدى شـفـيق مـســعـد
(ص٦٠١) أرايتكم أين استقروا بعد ما
سلكوا خـــروق مـــواقف لم تـســدد
ضـــربوا الخـــيام على ثنيـــة ضـــارج
ورضـــوا بجـــرعـــاها وذاك المعـــهـــد
حـــتى استـــطاب ترابَهـــا فـــتـخـذته
لجـــفـــوننا كـــحـــلا مكان الإثمـــد*
ومن العــجــايب أن أرى مـــســتـخـبـراً
عـــمن ثوى بصـــمـــيم قلبى المكمـــد
وإذا أرادوا يكتـــمـــون مـــســيـــرهم
نمت نوافـــحـــهم ولم أســـترشـــد

* الخرَّد: جمع خريدة وهى البكر.
* الفدفد: الفلاة.
* الإثمد: بكسر الهمزة حجر يكتحل به.

يا مـودعـا بملامـه جـمـر الغـضـا
بجـوانحى فـاقـصـر مـلامك أو زدِ
أنا من علمت ومن إذا ذكـر الهـوى
فـاربط يديك على ولاه وأشـدد
سل عن فـؤادى أعين العين التى
أسـيـافـهن بغـيـره لم تغـمـد
مـذسـار خلف ركـابهم يوم النوى
وبقـيت مـبـهـوتا وأسـقط فى يدى
كـيف التـصـبـر والحـيـاة لمدنف
لم يبق غـيـر ذَمـائه* المتـردد
مـا كنت يا ذات الجناح بعـالم
أن الوداع للوعـتى وتسـهـدى
وأراك تبكى فى الغـصـون وتشـتكى
ألم النوى إن كنت مـثلى فـاسـعـد
افـتندبى شـجناً وإلفك حـاضـر
فلقـد أسـأت وإن أسـأت فـعـدد
(ص٦٠٢) مـا أنت ممن قـد أطارَ فـؤادَه
داعى النوى وجـفـاه طيبُ المرقـد
أين النحـول وأين أحـمـر أدمع
تجـرى وجـمـرة مـهـجـة لم تخـمـد
دْعنى فـإنى لست أولَ عـاشقٍ
قـتل الغـرامُ ولا قـتـيل لم يُدِ
حـزنى عليك يزدنى قلقـا على
مـا أودع التـبـريح فى القلب الصدِى
حـتى الجناح فـأنتِ خـيـر طليـقـة
وأنا الذى بالوجـد خـيـرُ مـقـيـد

* الذماء: بفتح الذال بقية الروح.

ودعى الصــــبابة جــانبـا وترنمى
بحـديث من أهوى ومـدح مـحـمـد
العـــالم اللسن الذى أوصــافـــه
بعـبـيـرها تغنى عن الروض الندى
ومن ارتدى برد المحـامـد يافـعـا
وتلفع الحـسنى بأزكى مـحـتـد
وسـرى على النهج القـويم ولم يزُغ
حـتى ارتوى عن عـذب ذاك المورد
وصـفت مـواقع ذكـره فـتـقـاصـرت
عنهـا النهى من كل نَدْب أحـيـد
وحـوى خـصـائل نافـست زهر العـلا
حـتى علتْ نجم السـهـا والفـرقـد
وسـمـا على الأعـلام من أهل الهـدى
بمآثرٍ غـَـرّا وحـسـنِ تودد
(٦٠٣) كم مشكلٍ قد فك ربقةَ عُسره
ببـداهة تزرى بحـد مـهند
ولكم دقـيـقـةِ مـعـضلٍ وافى بهـا
شنفـا لاذن السـامع المسـترشـد
ولكم لـه فى كل علمٍ غـامض
سِـفّـر تناهى فى الكمـال المفـردِ
أدبٌ على النقـاد دُر حـديثـه
مـتناسـقـا كـاللؤلؤ المتنضـد
ومـبـاحث مـا السـعـد فى اتقـانهـا
ومـقـاصـد تزرى بقـول السـيـد
فـإذا علينا قـد أدار مُـدامـه
غنِ عن البكر الشـمـول الصـرخـد*

* صرْخَد: موضع نسب إليه الشراب.

خلع الدنا* متمسكا بعرا التقى
وبكل أمر بالشريعة مقتدى
وسرى على سبل الهداية مرشداً
من أمه بوسائل لم تبعد
فبوجهه يغنيك عن شمس الضحى
وعن الغيوث ببحر كف مزيد
فالفضل منحصر به أما السوى
فمقلد لعلاه فاسمع تسعد
والجود من جدواه يعرف كنهه
والدين والتقوى بدون تردد
فانظر إلى رجل تجسم من علا
ورفيع مجد فى الأنام وسودد
يا مالكا منا الأنام بلطفه (ص٤٠٦)
وبحسن ما يروى وأنضر مشهد
لك ما تروم من الزمان وبره
فوق المراد وكل عيش أرغد
ما فيك إلا ما يقر قلوبنا
وعيوننا ويسر كل مسوّد
واليكها ممن غدت أفكاره
نهب التنائى والزمان الأنكد
جاءتك تعثر فى ذيول خجالة
وتدير طرف الحائر المستنجد
فلئن رأتْ منك القبول فحسبها
فخراً وطيب تودد وتعهد
حوشيت أن تغضض وشيمتك التى
غير الكمال الصرف لم تتعود

* الدُنا: جمع الدنيا بضم الدال فيهما.

وأبيك لو وزنوك عندى فى الورى
لوزنتهم وإذا شككت تعمد

ومن كلامه:

لا أريد الوصال بالمنّ ممن
أنحل الجسم بالجفا والدلالِ
إنما دائما له أتمنى
فتمنى اللقاءِ نصف الوصالِ

وله:

لا تكرر لحظاً إذا خلتَ وجها
ذا جمال وبهجةٍ وبَهاءِ
واغضض الطرف مثل ما أمر اللهُ
فتكرير اللحظ نصفُ الزناء

(ص٦٠٥) ثم توجه إلى الشام وبها وافاه الحمام، ودفن بالصالحية سنة ثلاث وسبعين وماية وألف.

٢٦٣ عامر الأنبوطى.

[ومات] الشيخ الصالح الشاعر اللبيب الناظم الناثر الشيخ/ عامر الأنبوطى الشافعى، شاعر مفلق هجاء لهيب شرارة محرق، كان يأتى من بلده يزور العلماء والأعيان وكلما رأى لشاعر قصيدة سايرة قلبها وزنا وقافية إلى الهزل والطبيخ، فكانوا يتحاموْن عن ذلك، وكان الشيخ الشبراوى يكرمه ويكسيه ويقول له يا شيخ عامر لا تزفر قصيدتى الفلانية وهذه جائزتك»، ومن بعده الشيخ الحفنى كان يكرمه ويغدق عليه ويستأنس لكلامه، وكان شيخاً مسناً صالحا

١١٧١هـ.
١٤٧٤ق.
١٧٥٧م.
غاية الفيضان: ١٢ قيراط / ٢٢ ذراع

- في ١٦ محرم/ ١ أكتوبر، كانت وفاة السلطان عثمان خان الثالث ابن السلطان مصطفى الثاني، وله من العمر ٦٠ سنة، حكم منها ٣ سنين و١١ شهرا، ثم تسلطن بعده، في يومها، السلطان مصطفى خان الثالث ابن السلطان احمد الثالث.
- ١ يناير ١٧٥٨ = ٢٥ كيهك ١٤٧٤ = الأحد ٢٠ ربيع الثاني ١١٧١.
- فيها ضرب ميدى وزنه يقرب من عشر درهم وعياره النصف فضة تقريبا، وقيمته ٣,١ سنتيم.
- فيها عزل على باشا حكيم أوغلي، بعد ان حكم مصر سنتين، وتولى بعده محمد سعيد باشا.
- فيها نقص وزن الزر محبوب، فصار كل مائة محبوب ٨٤ درهما.

مكحل العينين دائماً عجيباً في هيئته، ومن نظمه ألفية الطعام على وزن ألفية ابن مالك وأولها

يقول عامر هو الأنبوطي
أحمد ربي لست بالقنوط

ويقول:

وأستعين الله في ألفيه
مقاصد الأكل بها محويه
فيها صنوف الأكل والمطاعم
لذت لكل جايع وهايم

إلى أن يقول:

طعامنا الضاني لذيذ للنهم
لحماً وسمنا ثم خبزاً فالتقمْ
فإنها نفيسة والأكل عمْ
مطاعماً إلى سناها القلبُ أمْ

ومنها:

والأصل في الأخباز أن تقمروا (ص٦٠٦)
وجوزوا التقديد إذ لا ضررا
فامنعه حين يستوى الخرفان

(ومن) كلامه قصيدة أيضا على وزن لامية العجم منها:

أناجر الضان ترياق من العللِ
وأصحنُ الرز فيها منتهى أملي
أكلي غدا وأكلي في العشا على
حدٍ سويّ إذا اللحم السمين قُلي

فـيم الإقـامـة بالأرياف لا شِـبـعى
فـيـهـا ولا نزهتى فـيـهـا ولا جـذلى
ناء عن الأهل خـالى الجـوف منقـبض
كـمـعـدمٍ مـات من جـوع ومن قَـشل
فـلا خليل بدفعِ الجـوع يرحـمنى
ولا كـريم بلحمِ الضـان يسـمح لى
طال التلهف للمطعـوم واشـتـعلت
أحُشـاشتى بحـمـام البـيت حين قُلى
أريد أكـلا نفـيـسـا أسـتـعين به
على العـبـادات والمطلوب من عـملى
والدهر يفـجع قلبىَ من مطاعـمـه
بالعـدس والكشك والبـيـسـار والبـصل
ناديت هيـا ولا تبطى بغـرفك لى
فـإنه خُلق الإنسـان من عـجَلِ

إلى آخرها (وله) على وزن لامية ابن الوردى (ومنها):

اجتنب مطعوم عدس وبصل (ص٦٠٧)
فى عـشـاء فـهـو للعـقل خـبلْ
وعن البـيـسـار لا تعن به
تمس فى صـحـة جـسـم من علل
واحـتـفل بالضـان إن كنت فـتى
زاكى العـقل ودع عنك الكسل
من كـبـاب وضلوع قـد زكت
أكلهـا ينفى عن القلب الوجلْ

إلى آخرها.

ومن كلامه على وزن كلام ابن عروس:

أكلك من الضان رطلين
يزيد قلبك نفاسه
وابعد عن الكشك يا زين
ذا الأكل منه تعاسه

وأيضاً:

أكل المطبق مع الفجر
بالشهد والسمن سايح
إللى يجيبه له أجر
فى جنة الخلد رايح

وأيضاً:

يا طابخ الضأن إشتد
واغرف أوانى وسيعه
عامر أتى لك وله يد
فى الأكل ديما سريعه

وأيضاً:

العدس والكشك والفول
الأكل منهم شماته
يصبحوا الشب مخبول
قُطعوا الجميع التلاته

وأيضاً:

أوصيك لا تأكل الفول
يورث لقلبك قساوه

تقطع نهـــارك كـــمـــا الغـــول
تايه وعندك غـــــشـــــاوه

وأيضا: (ص٦٠٨)

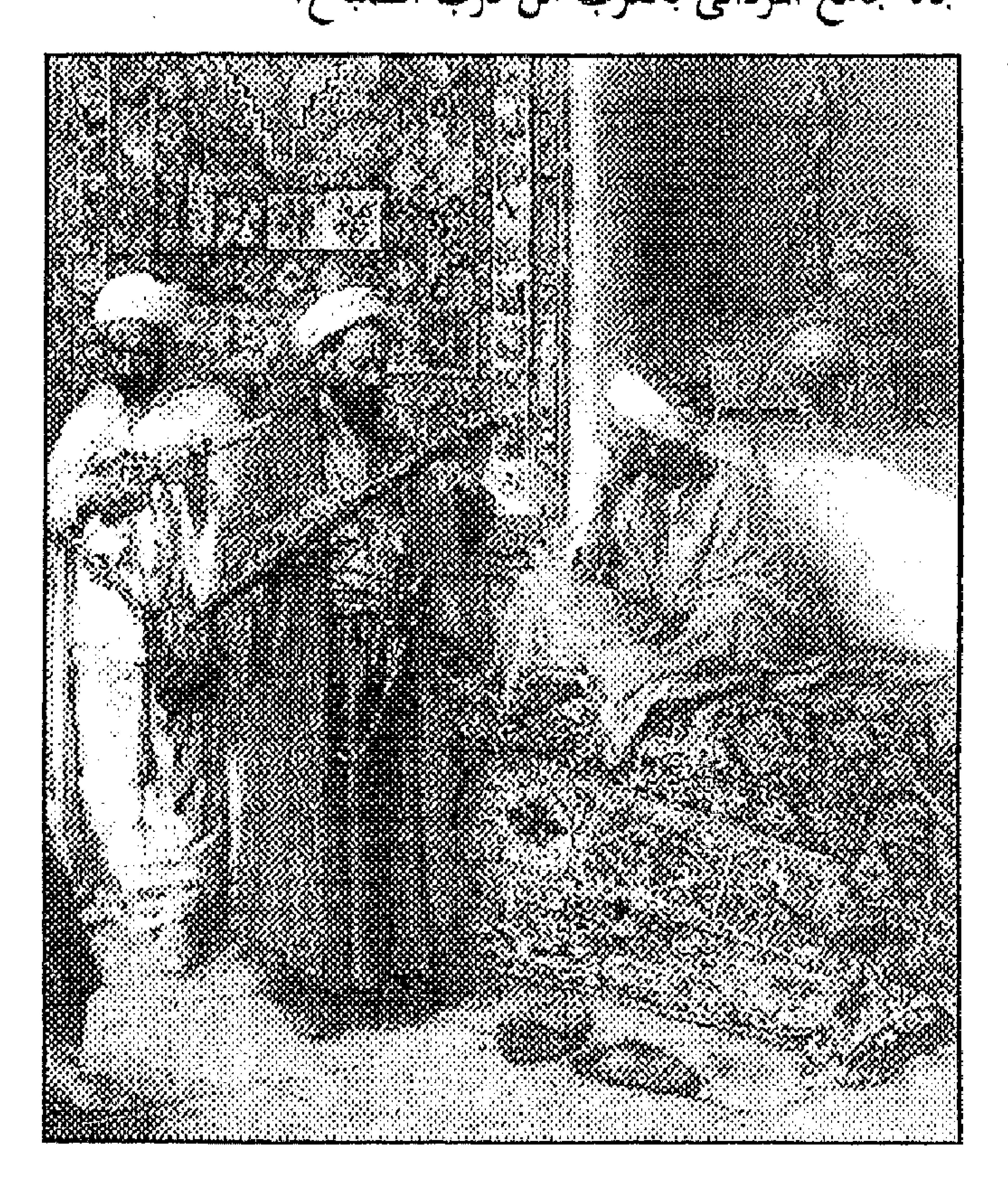
خـــشـــاف مـــشـــمش وعناب
الـشـــــــرب منـهـم دوايـه
من بعـــد مـــا كلْ كـــبـــاب
يـا رب حـــــقق رجـــــايـه

٢٦٤ عمر بك رضوان
ت/ ١١٧١ هـ = ١٧٥٧م.

[ومات] الأمير الكبير/ عمر بك ابن حسن بك رضوان وذلك أنه لما قلد إبراهيم كتخدا تابعه على بك الكبير إمارة الحج وطلع بالحجاج ورجع في سنة سبع وستين وماية وألف، ونزل عليهم السيل العظيم بظهر حمار، وألقى الحجاج أحمالهم إلى البحر ولم يرجع منهم إلا القليل، تشاوروا فيمن يقلدونه إمارة الحج فاقتضى رأى إبراهيم كتخدا تولية المترجم وقد صار مسنا هرماً فاستعفى من ذلك فقال له إبراهيم كتخدا «إما أن تطلع بالحج أو تدفع مائتى كيس معدة» فحضر عند إبراهيم كتخدا فرأى منه الجد فقال «إذا كان ولابد فإنى أصرفها وأحج ولو أنى أصرف ألف كيس» ثم توجه إلى القبلة وقال «اللهم لا ترنى وجه إبراهيم هذا بعد هذا اليوم إما أنى أموت أو هو يموت» فاستجاب الله دعوته ومات إبراهيم كتخدا فى صفر قبل دخول الحجاج إلى مصر بخمسة أيام وتوفى عمر بك المذكور سنة إحدى وسبعين وماية وألف.

٢٦٥ ابراهيم الأوسطى السكاكيني صانع السيوف.
ت/ ١١٧١هـ = ١٧٥٧م.

[ومات] الرجل الفاضل النبيه الذكى المتقن الفريد الأوسطى/ إبراهيم السكاكينى، كان إنساناً حسنا عطاردياً يصنع السيوف والسكاكين ويجيد سقيها وجلاءها ويصنع قراباتها ويسقّطها بالذهب والفضة، ويصنع المقاشط الجيدة الصناعة والسقى والتطعيم والبركارات للصنعة وأقلام الجدول الدقيقة الصنعة الخرمة وغير ذلك، وكان يكتب (ص٦٠٩) الخط الحسن الدقيق بطريقة متسقة معروفة من دون الخطوط لا تخفى، وكتب بخطه ذلك كثيرا مثل مقامات الحريرى وكتب أدبية ورسايل كثيرة فى الرياضيات والرسميات وغير ذلك، وبالجملة فقد كان فريداً فى ذاته وصفاته وصناعته، لم يخلف بعده مثله توفى فى حدود هذا التاريخ، وكان حانوته تجاه جامع المردانى بالقرب من درب الصباغ.



* تاجر السيوف.

١١٧٢هـ.
١٤٧٥ق.
١٧٥٨م.
غاية الفيضان: ١٩ قيراط / ٢١ دراع
□ ١ توت ١٤٧٥ = ٩ سبتمبر ١٧٥٨ = السبت ٦ محرم سنة ١١٧٢.
□ فيها اخترع دولاند النظارات الاكرومانية، أى التى ترى الصور بدون ألوان أجنبية.
□ ١ يناير ١٧٥٩ = ٢٥ كيهك ١٤٧٥ = الاثنين ٢ جماد أول ١١٧٢.
فيها كان طرد الجزويت من البورتغال.
□ فيها أنشأ الأمير عبد الرحمن كتخدا جامع الحفنى، بقنطرة الموسكى.
□ فيها كان استيلاء الانكليز على كوبيبك.
□ فيها كان انتصار الروسيين على البروسيانيين فى كوتر سدروق.

هوامش

(١) بيت ذى عرجان: وردت فى نسخة المطابع الأميرية (بيت ذى عزجان) وهى خطا والمقصود انه بيت له عمدان ملوية.
(٢) المظفر: المقصود هنا زاوية المظفر بشارع السيوفية تجاه الطريق المؤدية إلى جامع السلطان حسن.
(٣) علم العيار: هو علم المكاييل والموازين.
(٤) العذارات: مواكب الخياله، وهى من شارات المناصب الكبيرة.


Bibliotheca Alexandrina
1240088